ديوان رفاعة الطهطاوى

جمع ودراسة

دكتور طه وادى
كلية الآداب – جامعة القاهرة

الطبعة الثانية

١٩٨٤



دار المعارف

الناشر : دار المعارف ١١١٩ كورنيش النيل ـ القاهرة ـ ج . م . ع

الإهداء

إلى الإنسان العربى
صاحب الحضارة .. وصانع المستقبل
مستقبل الحرية والوحدة والعلم .

طه وادى

مقدمة الطبعة الثانية

تصور حياة رفاعة رافع الطهطاوى (١٨٠١ — ١٨٧٣) سيرة رائد عظيم من قادة النهضة العربية فى بداية العصر الحديث ، حاول — مخلصاً — فيما كتب وعمل أن يرسم كثيراً من ملامح الفكر المتقدم الذى يحقق النهضة المنشودة . وقد اعتمد على ركيزتين هامتين فى رسم إطار لذلك الفكر : الأولى مستمدة من التراث القديم بجميع روافده الدينية والتاريخية والفكرية والفنية ، والثانية مستمدة من الفكر التنويرى الفرنسى سواء عن طريق ما ذكره فى « تخليص الأبريز » أو فى ترجماته للقانون الفرنسى والدستور وأناشيد الثورة الفرنسية . وبالطبع كان انحياز رفاعة الأكبر نحو الفكر العربى .. وإن لم يتناس آفاقاً جديدة للحياة والمجتمع وتربية البنات ، اعتمد فى الدعوة إلى تحقيقها على صيحات فى الفكر الأوربى . وحين نستعرض كتب رفاعة المؤلفة والمترجمة — سواء ما كان منها فى مجال العلم أو الفكر أو الأدب — سوف نجد أنه كان حريصاً على تطوير كافة نواحى الحياة : ابتداء من علاقة الإنسان بخالقه وانتهاء بشئون البيت والأسرة ، لذلك نراه فى كتابه القيم « مناهج الألباب المصرية فى مباهج الآداب العصرية » يقدم خلاصة شاملة لفكره ، سواء فيما يتصل بعلاقة الحاكم بالمحكومين ، وضرورة تأسيس المجالس النيابية ، وتنظيم الإدارة الحكومية ، أو « ما يجب للوطن الشريف على أبنائه من الأمور المستحسنة » . كما أشار إلى أهمية التقدم العمرانى فى مجالات الزراعة والصناعة والتجارة ، على أساس أن « صرف الهمة إلى الصنائع فى بلدة من البلاد يقطع عرق الفتنة والشرور فيها » .

كذلك لا يمكن إغفال دوره التعليمى ، وما قام به فى مجال الترجمة وإنشاء المدارس ، وتنظيم التعليم سواء فى مصر أو فى السوادن . ويتصل بهذا عن قرب دوره فى الصحافة سواء فى « الوقائع المصرية » التى صارت تكتب بالعربية كلية أثناء إشرافه عليها ، أم فى « روضة المدارس » وهى أول مجلة أدبية متخصصة فى مصر .

وخلاصة الأمر فيما نرى أن معظم محاور نهضتنا الحديثة تكاد ترجع نقطة البدء الصحيح فيها إلى جهود رفاعة ، وتفصيل البحث فى ذلك كله يحتاج إلى دراسات موسعة لتفى ذلك المصلح العظيم حقه .

وهذا العمل الذى نقدمه فى طبعته الثانية يضيف لرفاعة (ريادة) جديدة لم تحسب له — من قبل — فى مجال تطوير الشعر الحديث . لقد وضح لدى كثير من دارسى الأدب صورة رفاعة رائداً لكتابة السيرة الذاتية — كنوع أدبى — فى « تخليص الأبريز فى تلخيص باريز » ، ورائداً لترجمة الرواية فى « مواقع الأفلاك فى وقائع تليماك » ، ورائداً لتطوير اللغة وأساوب الكتابة الأدبية والفكرية فى كل ماكتب وترجم . وتكتمل ريادة رفاعة الشاملة بجلاء من خلال صورته (شاعراً) لأول مرة ، على الرغم من أن الشعر كان يمثل لديه — كما هو الحال عند كثير ممن قالوا الشعر فى عصره — اهتماماً ثانوياً ومجالا محدوداً . وهو نفسه يؤكد هذا بقوله :

وما نظم القريض برأس مالى ولا سندى أراه ولا سنادى
ووافر بحره إن جاد يوما فممدوحى له وصف الجواد

* * *

ومع تقديرنا لمجمل الدور العظيم الذى أسداه ذلك المفكر الرائد ، فإن هذا لن يجعلنا ننظر إلى شعره — الذى كان جهده فيه جهد (الهاوى) — نظرة تابعة فى التقدير أو التقويم ، وإنما سوف نحاول تقويمه من خلال منظور موضوعى ملتزم بجوهر الحقيقة . وعلى هذا فإن ذلك العمل وإن كان جديداً فى موضوعه فلن يكن إلا علمياً فى نتائجه .

وفى إطار من الموضوعية نذكر أن رفاعة قدم مجالات جديدة وموضوعات طريفة لتكون مضامين حديثة للقصيدة العربية مثل : الشعر الوطنى — من خلال القصيدة والنشيد — حيث يصدر رفاعة فى هذا المجال عن حب حقيقى للوطن يصل إلى درجة القداسة :

يا صاح حب الوطـــن حليـــة كل فطــــــن
محبـــة الأوطــــــــان من شعب الإيمـــــان
فى أفخـــر الأديـــــان آيـــة كـــل مؤمـــن

كما يعد رفاعة أول رائد فى الأدب العـــربى لترجمة الشعر شعراً . وهذا مجال لم يكتب فيه أى شاعر عربى قبل رفاعة . وإذا كان قد ترجم بعض قصائد فى المدح فقد أحدث توازناً فى القيمة حين ترجم قصائد أخرى ثورية مثل « نشيد المارسايز » و « القصيدة الباريسية » ، وكلاهما من حصاد الثورة الفرنسية ، وفيهما حض مباشر على الثورة :

فهيا يا بنى الأوطـــان هيا فوقت فخاركم لكم تهيـــا
أقيموا الراية العظمى سويا وشنوا غارة الهيجا مليـــا
عليكم بالسلاح أيا أهـــالى ونظم صفوفكم مثل اللآلى
وخوضوا فى دماء أولى الوبال فهم أعداؤكم فى كل حال
وجورهم غدا فيكم جليا بنا خوضوا دماء أولى الوبال

كذلك حاول رفاعة أن يعيد موضوع الشعر إلى ذات الشاعر ، ليصبح هو نفسه موضوع قصيدته ، بعد أن اغترب عنها كثيراً فى العصور الوسطى ، ونجد له قصيدة جعلنا عنوانها « خواطر الغربة فى السودان » يعبر فيها عن همومه النفسية أثناء الاغتراب والنفى .. ومما جاء فيها :

وقد فارقتُ أطفـــالا صغـــارا بطهطا دون عودى واعتيادى
أفكـــر فيهم سراً وجهـــــرا ولا سمرى يطيب ولا رقادى
وعادتْ بهجتى بالنـــأى عنهم بلوعة مهجـــة ذات اتقـــاد
أريد وصالهم والدهـــــر يأبى مواصلتى ويطمع فى عنـادى
وطالت مدة التغريب عنهم ولا غنم لدى سوى الكســـاد

بل إن رفاعة حين كتب فى قصيدة المدح التقليدية حاول أن يُلوى عنقها ليصف الممدوح بصفات عصرية ، تصوّر ما فعله من إصلاحات سياسية

وإنشاء المدارس للبنات والبنين وإحياء العلوم وتنظيم الجيش وإعداده .
من ذلك تهنئته لإسماعيل بإنشاء مجلس شورى النواب :

يا حسن عيـد وافتتـاح ... شورى بها الإصلاح لاح
عنـوان أنواع الفـلاح ... فى مصـر صار مخلـدا

ومرة أخرى يمدحه بإنشاء المدارس لتعليم البنين والبنات قائلا :

قد لهجت بمدحه اللغـات ... ورددت نشيده الأصوات
لم يرو مثل فخـره الرواة ... عن ملك شهم له هبـات
تجعل هنداً فى النهى كزيد ... والدرس للأنثى كما الغلام
من بعد أسرها بقيـد وغد ... بالعلم حازت صفة احترام

وكما أحدث رفاعة تطويراً فى قصيدة المدح أحدث كذلك تطويراً فى قصيدة الوصف ، حيث جعلها تدور فى وصف بعض مظاهر الحضارة الجديدة فى مصر . وإذا كانت معظم جهود رفاعة فى تطوير الشعر تأتى من ناحية (المضمون) .. فالذى لا شك فيه أيضاً أنه حاول أن يرتقى بلغة الشّعر وأدواته الفنية أيضاً ، وأن يتخفف إلى حد ما — فى أخريات قصائده — من التلاعب اللفظى بالمحسنات البديعية والتأريخ بالشعر ونظم المتون . وهذه المحاولة لتطوير لغة الشعر تبدو أيضاً فى بعض محاولاته المبكرة ، من ذلك قوله فى قصيدة « نظم العقود فى كسر العود » التى ترجمها عن الفرنسية أثناء البعثة :

شنّف السمع من رقيق التغانى ... واستمعْ يا أخىّ صوت المثانى
يا خليـلى بالله هـلا ترانى ... أننى قد أحييت شعر ابن هانى

بعد أن كان قد توسد لحْداً

حيث شعرى نجل الشجاعة يُملى ... لست أحجوه فى البراعـة إلا
أنه قد رقى العـلا وتمـلى ... وغدا لائقاً بحضـرة مـولى

فقد الشبه فى الورى والضدا

فرفاعة هنا — على سبيل المثال — يعترف بأنه أحيا شعر ابن هانى الأندلسى ، وأن شعره « قد رقى العلا وتملى » . وسوف يتضح من خلال الدراسة أن رحلة تطوير الشعر فى العصر الحديث قد بدأت — بالفعل — منذ عصر رفاعة ، وأن البارودى ليس بدءاً لمرحلة فحسب ، وإنما هو من ناحية أخرى تتويج لمرحلة طويلة سابقة عليه . وتفصيل الأمر فى شرح ذلك يطول حديثه ، وهو ما اعتزم إصدار دراسة علمية عنه قريبا بإذن الله ، لكى أزيل الغموض عن مرحلة هامة من مراحل تطور الشعر لم تأخذ حقها من الدراسة والتقويم .

* * *

وبعد ... فالحمد لله الذى هدى إلى كشف هذه الحلقة من حلقات الشعر الحديث من خلال ديوان رفاعة الطهطاوى ، وما أدى إليه هذا الكشف من البحث والتنقيب عن تلك المرحلة شبه المهملة من تاريخ الشعر . وهذا الديوان — فى طبعته الجديدة — قد حذفت منه مقطوعتين ، تَثْبتُ من كونهما ليسا لرفاعة ، كما أضفت نصوصاً أخرى عثرت عليها فى بعض الكتب والدوريات ، أو لم أكن متثبتاً من صحة نسبها إلى رفاعة عند الطبعة الأولى مثل قصيدته فى مدح جده « أبى القاسم الطهطاوى » . وقد جمعت معظم أشعاره التى تتكون من بيتين باستثناء نماذج قليلة جداً وردت فى « تخليص الأبريز » بصفة خاصة — مثل قوله فى وصف باريس :

لقد ذكروا شموس الحسن طرا — وقالوا : إن مطالعها بمصـــر
ولكن لو رأوها وهى تبـــدو — بباريس لخصوهـــا بذكـــر

أو قوله مرة أخرى متعجباً من علم باريس وكفرها :

أيوجد مثل باريس ديـــار — شموس العلم فيها لا تغيب
وليل الكفر ليس له صباح — أما هذا وحقـــكم غريب ؟

فهذه الأبيات وأمثالها لا تشكل قيمة فى حد ذاتها .. وإنما هى جزء من السياق النثرى الذى وردت فيه .

بقيت ملاحظة أخيرة .. إن معظم عناوين القصائد قد وضعتها بنفسى لكى تعبر عن روح النص ، كذلك الأمر فيما يتصل بتقسيم شعره إلى محاور مختلفة ، فقد جمعت كل ما يتصل بموضوع معين فى فصل مستقل ، مؤثراً أهمية الترتيب الموضوعى لصعوبة الوصول إلى الترتيب التاريخى .

وقد بذلت مزيداً من الجهد فى تصحيح بعض أخطاء مطبعية وقعت فى الطبعة الأولى التى نشرت وأنا فى مهمة علمية خارج الوطن . كما حددت الوزن العروضى لكل نص من نصوص الديوان ، وأضفت بعض إضافات فى النص والدراسة كان لابد منها .

وبمناسبة إعادة نشر هذا الديوان أود أن أقول : إن كثيراً من مصادر تراثنا القديم والحديث مهملة وغير محققة ، وأتمنى أن يأتى – قريباً – اليوم الذى تنشر فيه كل مصادر تراثنا الواسع المبعثر فى أنحاء الدنيا ومكتبات العالم .

وأخيراً . . سأظل معترفاً بالفضل لكل الذين احتفوا بهذه الدراسة .. ونوهوا بها .. أو جادلونى فى بعض جزئياتها ، أو ساعدونى وأنا أعدها لطبعة جديدة ، فإلى أولئك وهؤلاء جميعاً أقدم خالص تقديرى .

والله أسأل أن يوفقنا جميعاً إلى ما فيه الخير والهدى والمحبة ، إنه على ما يشاء قدير ، وهو نعم المولى ونعم النصير .

الدقى ، القاهرة فى ١٥ ديسمبر ١٩٨٣ **دكتور طه وادى**

مقدمة الطبعة الأولى

يضم هذا المجلد كتابين يدوران حول موضوع واحد :

الأول : رفاعة الطهطاوى .. شاعراً — حيث يتناول بالدراسة والتحليل أهم القضايا الاجتماعية والفكرية والفنية التى تتصل بالشاعر وشعره فى إطار العلاقات والظروف التى شكلت الحركة الأدبية خلال ثلاثة الأرباع الأولى من القرن التاسع عشر فى مصر ، وينتهى بتقويم دور الشاعر بالنسبة لشعراء العصر ، ويوضح أن رفاعة كما كان رائداً من رواد النهضة العربية الحديثة فى مجالات شتى ، فإنه يعد أيضاً نقطة البدء الصحيح لتطوير الشعر العربى وتجديده بعد الضعف والتخلف أثناء العصور الوسطى ولا سيما مرحلة الحكم التركى .

الثانى : ديوان رفاعة الطهطاوى .. وهو يقدم — لأول مرة — تراث الطهطاوى الشعرى (كاملا) بعد جمعه من مصادره المتعددة فى الكتب والدوريات . وقد أقمت نشر الشعر مضطراً — من أجل تثبيت الملامح الفكرية والفنية لكل ما تناوله من قضايا — على حسب الموضوعات المختلفة التى دار حولها . وقد بدأت بالأشعار التى هى أقرب إلى التعبير عن ذات الشاعر الإنسانية والفنية ، ثم رتبت القصائد فى كل فصل على ما تصورته من قيمة فنية أو تاريخيه لها .

وقد بدأت فكرة ذلك الكتاب حين دعيت للمساهمة فى مؤتمر علمى عقد بكلية الألسن جامعة عين شمس (ديسمبر ١٩٧٦) للاحتفال بذكرى مرور قرن على وفاة رفاعة . ولم أكن أتخيل — حين اخترت شعر رفاعة موضوعاً لبحثى فى المؤتمر — أنه سوف يأخذ من الجهد والعناء ما أخذ ، أو أن تراثه الشعرى كان على هذه الصورة إذا ما قورن بشعر عصره . كما لم أكن أظن أن البحث والدراسة سوف يخرجان بمثل هذه النتائج التى يقدمها ذلك الكتاب بالصورة التى هو عليها الآن . وقد اكتشفت من خلال مناقشات المؤتمر ومن كتب تاريخ الأدب بل ومن أسرة رفاعة نفسها ،

أن صورة رفاعة شاعراً غير واضحة المعالم ، وأن معظم ما أبدعه يكاد يكون (مجهولا) حتى بالنسبة للدارسين المتخصصين أنفسهم .

كل هذا حفزنى على نشر الدراسة والديوان اللذين حاولت فيهما — قدر الطاقة — أن أوفى الدراسة حقها ، وأن أجمع كل ما تثبت منه مع إبعاد القليل الذى تيقنت من عدم نسبته إليه ، كما استبعدت من النشر منظومته الطويلة « جمال الأجرومية فى النحو » لأنها من النظم التعليمى الذى لا يدخل فى مجال الأدب .

وأود أن أشكر حفدة الطهطاوى : فتحى رفاعة ، محمد فتحى رفاعة ، محمود رافع ، الذين قدموا لى بعض النصوص .

وما أنا حريص عليه — وأنا أقدم ذلك الكتاب — أن أشير إلى أنه لا يكشف صورة جديدة لشاعر لم تكن معروفة بالشكل الذى تقدمه فحسب ، وإنما هو — أى الكتاب — يلفت الاهتمام ويشد الانتباه ويثير الأهمية نحو منطقة تكاد تكون شبه مجهولة على خريطة تاريخ الشعر الحديث .

وإذا استطاع هذا البحث أن يوجه نظر الدارسين إلى ضرورة العناية بهذه المرحلة المرهصة لنهضتنا الفكرية والأدبية ، فإنه يكون قد وفى بعض ما رجوته منه ، وما حاولت أن أثبته — لنفسى ولتلاميذى — من أصول فكرية وتقاليد علمية ينبغى سيادتهما فى دراستنا وأبحاثنا ، حتى نسهم فى التأريخ العلمى الصحيح لأدبنا العربى فى العصر الحديث .

وعلى الله قصد السبيل ..

أول أكتوبر ١٩٧٨

دكتور طه وادى
كلية الآداب جامعة القاهرة

القسمُ الأول

الدراسـة

رفاعة الطهطـاوى .. شـاعرا

الفصل الأول

سـيرة الطهطاوى الشاعر

وفد الطهطاوى إلى القاهرة سنة ١٨١٧ ، وهو فى السادسة عشر من عمره ليتعلم فى الجامع الأزهر ، وبدأ يدرس ماكان مألوفاً من علوم النقل والعقل ، التى كان يدور أغلبها حول علوم الدين واللغة وبعض كتب التصوف والتاريخ والمختارات الأدبية(١) ، وقد كان الطهطاوى فيما يبدو طالباً نابهاً يدفعه إلى ذلك موت أبيه ، ورعاية أخوال -كانوا رجال علم فى الأزهر - تتلمذ عليهم ، وأعطوه (نموذج) عالم تطلع إليه فى صورة أكمل ، حين واصل تلمذة أخرى بلغت درجة التبنى على يد الشيخ حسن العطار (١٧٦٦ - ١٨٣٥) ، الذى كان من أهم شيوخ الأزهر فى عصره ، وأوسعهم أفقاً وثقافة ، فقد اتصل بعلماء الحملة الفرنسية وحضر بعض مجالسهم العلمية والفكرية . ولا شك أن الصداقة القوية التى جمعت بينه وبين المؤرخ الكبير عبد الرحمن الجبرتى (١٧٥٤ - ١٨٣٥) ذات دلالة على ماكان يجمع بينهما من أواصر فكرية مستنيرة .

وقد اكتسب حسن العطار من علاقته بعلماء الحملة الفرنسية ومن سياحته فى تركيا وبلاد الشام ، ما جعله يقدم نموذجاً لعالم الأزهر المستنير بالنسبة لعصره . وقد حاول محمد على بعد توليه الحكم (١٨٠٥) بمساعدة رجال

---

(١) لمزيد من التفصيل يراجع :

- صالح مجدى : حلية الزمن بمناقب خادم الوطن، تحقيق جمال الدين الشيال ، نشر وزارة الثقافة ، القاهرة ، ١٩٥٨ ، ص ٢٣ .
- حسين فوزى النجار : رفاعة الطهطاوى ، مكتبة مصر (سلسلة أعلام العرب العدد ٥٣) صفحة ٦٠ .

الأزهر أن يعزلهم داخل جدران مسجدهم وبين تلاميذهم، من هنا سعى الجاد منهم – مثل الجبرتي والعطار – إلى أن ينمي دوره الإصلاحي في ميدان تخصصه. وعلى هذا فقد « أقبل العطار على كتب لم تكن تدرس وقتذاك بالأزهر في التاريخ والجغرافيا والطب والرياضة والفلك والأدب ، وقرأ الكثير من هذه الكتب وتفهمها . غير أن نظام التدريس في الأزهر لم يكن يسمح له بأن يدرس بعض هذه الكتب ، أو ما أفاد منها ، أو إذا سمحت له النظم فإن المجموعة التي كانت تحيط به من شيوخ وطلاب ما كانت لتستسيغ هذه المعارف أو تتقبلها ، بل لعلها كانت تتهم المشتغلين بها بشيء من الزيغ عن الجادة ، والبعد عن علوم السلف ، وعما يجب أن يلتزم به رجل الدين »(١) . نتيجة لهذا فقد اصطفى بعض تلاميذه وقربهم إليه ، وقرأ عليهم وناقشهم في بيته – فيما كانت الأوضاع لا تسمح به في الجامع الأزهر . وعن علاقة رفاعة بأستاذه العطار .. يذكر صالح مجدي أنه كان يقصده « ليتلقى علوماً أخرى (غير التي كانت تدرس في الأزهر) كالتاريخ والجغرافيا والأدب ؛ وطالما كان يسمعه من رائق أشعاره وفائق نثره ، ما يستدل به شيخه على أنه وحيد عصره وفريد مصره »(٢) .

ويهمنا في هذا النص – ونحن نترجم لرفاعة شاعراً – أنه بدأ يقول الشعر وهو طالب . ولا نعتقد أن ما قاله ذلك الشاب – الذي يخطو نحو العشرين من عمره – كان شعراً بالمعنى الحقيقي . فنحن حين نقرأ شعر هذه المرحلة في دواوين من لهم دواوين مثل إسماعيل الخشاب (– ١٨١٥) ومحمود صفوت الساعاتي (– ١٨٨٠) ، وصالح مجدي (– ١٨٨١) ، أو في بعض الموسوعات الجامعة لتراث العصر مثل تاريخ الجبرتي « عجائب الآثار في التراجم والأخبار » – لا نجد للشعر وظيفة جليلة سواء على مستوى الذات الشاعرة أو على مستوى الجماعة العامة أو الجمهور الخاص .

---

(١) جمال الدين الشيال : رفاعة الطهطاوي ، طبعة دار المعارف بمصر ، ١٩٥٨ ، ص ٢٣

(٢) صالح مجدي : حلية الزمن ، ص ٢٥ .

فقد كان الشاعر « ينظم » تقرباً لشخصية كبيرة المقام .. أو « يعارض » قصيدة قديمة يحملها مضموناً صوفياً أو دعوة إلى الزهد أو مدحاً فى الرسول . وأحيانا يقدم مقطوعات غزلية تقوم على التكلف والصنعة اللفظية ، أو يكتب عن لغز وقد يطلب حله بالشعر أيضاً . وهناك مجال تعليمى استنفد جهد كثير من شيوخ العلم وتلاميذه فى هذا العصر ، هو « نظم المتون » فى المواد التعليمية المختلفة . وهذا الضرب من النظم رغم قدمه الحضارى — منذ كتب هزيود « الأعمال والأيام » وهوراس « فن الشعر » ، كما أنه قديم فى الثقافة العربية (حيث شاع فى العصر العباسى الأول على يد رؤبة بن العجاج وأبان ابن عبد الحميد) — إلا أنه لا يعد نوعاً أدبياً .. ولا يدخل مجال «الفن» على أى صفة . ونرجح أن ما ادعى صالح مجدى أن رفاعة كان يسمعه أستاذه العطار من « رائق أشعاره » ليس إلا بعض منظومات تعليمية ، ذلك أنه « نظم أرجوزة فى التوحيد بعد مدة يسيرة من انتظامه فى سلك طلبة الأزهر ، ولما قرأها على الشيخ الفضالى وعده بأن يشرحها شرحاً لطيفاً سهل التناول على الخاص والعام »(١) .

ويبدو أن هذه « المنظومة » فى التوحيد لم تنشر(٢) ، وإنما الذى نشر له فى هذا المجال فيما بعد منظومة أخرى هى « جمال الأجرومية » فى النحو سنة ١٨٦٣(٣) . وفى « تخليص الأبريز » نجد الطهطاوى يذكر بعض الأبيات التى نظمها مبكراً ، فى سياق حديثه عن صعوبة ترجمة ذلك النوع من الشعر الذى يمكن أن يقصد إلى « التورية » قصداً ليجمع « مصطلحات » علم معين . وهو يقدم لهذه الأبيات بقوله : « ولا يمكن أن ينقل إلى لغاتهم (الفرنسيين) ما قلته فى نظم مصطلح « الحديث » :

---

(١) صالح مجدى : حلية الزمن ، ص ٢٨ .

(٢) الطهطاوى : تخليص الأبريز فى تلخيص باريز ، تحقيق محمود فهمى حجازى ، ط . الهيئة المصرية للكتاب ، ١٩٧٤ ، ص ١٣٠ .

(٣) المرجع السابق ، ص ١٣٤ .

(صحيح) جسمى من فرط الهوى (عضلا)
و (مرسل) الدمع من عينى قد (اتصلا)

(تواترت) قصتى فى الناس قاطبة
حتى (لضعفى) رثى لى كل من عذلا

(تعنعن) السحب عن عينى روايتها
كما (يسلسل) عنها الدمع إذ (هملا)

(رفعت) أمرى إلى قاضى الهوى فأبى
وقال : ما لى عن هذا المليح ولا

يا قلب صبراً على ما فيك من (عال)
ولا (تشذ) وتجزع واترك المللا

ودع بقية ما أبقاه من رمق
لديه ، لا تعتبر تعنيف من (عدلا)

فذاك لاح و (بالتدليس) (مشتهر)
وقوله (منكر) (زور) وما قبلا

إلى آخر قولى فيها(١) :

(وقفت) حبى عليه لا يجاوزه
وهكذا شأن صبٍّ فى الهوى (كملا)

وهذا النص يمثل مرحلة مبكرة فى سيرة الشاعر ، ومضمون الأبيات يدور فى إطار معانى الغزل « التقليدية » إلا أن الهدف الأساسى منها هو بيان مصطلحات (علم الحديث) التى امتلأت بها الأبيات ، وقد وضعناها بين قوسين حتى يسهل التعرف على حجمها فى الأبيات .

ولكن القصيدة التى تجعلنا نعلن « ميلاد » الشاعر بحق ، هى التى ذكرت أيضاً فى « تخليص الأبريز » وكتبت أثناء البعثة فى باريس (١٨٢٦ —

(١) المرجع السابق ، ص ٢١٥ .

١٨٣١) وتدور محاورها الأدبية حول الحنين إلى مصر والتغني بفضلها ، ثم تنتهي بمدح الوالي محمد علي وتبدأ — كما هو مألوف في كل الشعر القديم — بمقدمة غزلية ، تمضي على هذا النحو (١) :

ناح الحمام على غصون البـــان ... فأباح شيمة مغـــرم ولهان
ما خلته مذ صـــاح إلا أنـــه ... أضحى فقيد أليـــفة ومعـــاني
وكأنـــه يلـــقي إليّ إشـارة ... كيف اصطباري مذ نأى خلاني
مع أنني والله مذ فارقتـــهم ... ما طاب لي عيشي وصفوُ زماني
لكنني صبٌّ أصـــون تلهفي ... حتى كأني لست باللهفـــان
وبباطن الأحشاء نار لو بدت ... جمراتها ما طاقهـــا الثقـــلان
أبكي دماً من مهجتي لفراقهم ... وأود أن لا تشعر العينــــان
لي مذهب في عشقهم واريته ... ومذاهبُ العشاق في إعـــلان
ماذا عليّ إذا كتمت صبابتي ... حتى لو ان الموت في الكتمان
ما أحسن القتلى بأغصان النقى ... ما أطيب الأحزان بالغزلان
قالوا : أتهوى والهوى يكسو الفتى ... أبدا ثياب مذلة وهـــوان ؟
فأجبتهم : لو صحَّ هـــذا إنني ... أختار ذلي فيه طـــول زماني
والذل للعشاق غـــير معـــرة ... بل عين كل معـــزَّة للعـــاني
أصبو إلى من حاز قدا أهيـــفاً ... يزري ترنحُّه بغصن البـــان
وأحن نحو شقيق تم خـــــده ... قد نم فيه شقايق النعمــــان
ويروقني أبدا نزاهة مقاـــتي ... في حسن طلعة فاتاتٍ فتـــان
أُمسي وأصبحُ بين شعر حالك ... ومنـــير وجه هـــكذا الملوان

ثم ينتقل من الغزل إلى الحنين للوطن وعلماء الأزهر ببيت يعـــد (رابطة) فنية توحد بين المحورين : الغزلي والوطني ، وهذا ما كان يسميه البلاغيون القدماء حسن التخلص فيقول :

ولطالما قضيتُ معـــه حقبـــة ... ونسيم مصر معطّـــر الأردان

---

(١) راجع القصيدة في : تخليص الأبريز ، ص ٢٠٣ .

زمن علىٌّ به لمصر – فديتها – حق وثيق عاطل النكـــران
لو شاهدت عيناى فائض نيلها لم توف بعض شفائه أحزانى
أو لو حكى قلبى بحار علومها طرباً لما أخاـــو من الخفقـان
ولكم بأزهرها شموسٌ أشرقت وأنارت الأكـوان بالعرفان
فشذا عبير علومهم عم الورى وسرت مآثرهم لكل مكـان
وحوتهمو مصرفصارت روضةً وهمو جناها المبتغى للجـانى
قد شبهوها بالعروس وقد بدا منها «العروسى» بهجة الأكوان(١)
قالوا تعطـــر روضها فأجبتهم «عطارها حسن» شذاه معانى
حبر له شهدت أكابر عصره بكمال فضل لاح بالبرهــان
لو قلت لم يوجد بمصر نظيره لأجبت بالتصديق والإذعـان
هذا لعمرى اليوم فيهـا سادة قد زينوا بالحسن والإحسان
يا أيها الخافى عليـك فخارها فاليك إن الشاهد « الحسنان »(٢)
ولئن حلفت بأن مصر لجنـــة وقطـوفها للفـائزين دوانى
والنيل كوثرها الشهى شرابه لأبر كل الـبر فى أيمــانى

ثم يمهد للانتقال إلى المحور الثالث من القصيدة – الذى يمدح فيه محمد على – بهذا البيت الذى يربط أيضاً بين الحديث عن الوطن وحديث المدح فيقول :

دار يحق لهـا التفاخـر سيَّما بعزيزها جدوى بنى عثمـان
حاز المحامد إذ دُعى بمحمــد ورقّى العلا فعلا على الأقران
من كان مثل أميرنا فقرينـه اسكندرٌ أوكسرى أنو شروان
فى وجهه النصر المبين على العدا لاحت بشائره لكل مُعـانى
فى كفه سيفان : سيفُ عنـاية والشهم إبراهيم سيفٌ ثـانى
سل عنه ينبيك الحجاز مشافها بدمار أهل الزَّيغ والبهتـان

---

(١) وضعنا علامات التنصيص ليسهل التعرف على ما فى الأبيات من « تورية » مقصودة . وأسماء الأعلام الواردة هنا كلها من شيوخ الأزهر حينذاك .

(٢) الحسنان : الشيخ حسن العطار والشيخ حسن القويسنى .

من قبل كانت سبله مذعورة — والآن صارت فى كمال أمان
لا غروَ إنْ نجداً أدامت شكره — فلقد كساها حلة الإيمان
وسعت إلى زنج طلائع جيشه — فأطاعها العاتى من السودان
وتقلب الأروام عدل شاهد — كم منه قد نالوا شديد طعان
حتى لقد باءوا بوافر خزيهم — وتقاسموا حظاً من الخسران
لم تخطِ قامة رمحه أغراضها — وإصابة الأغراض نيلُ أمانى
أحيي بدولته علوماً قد غدت — لوضوحها تجلى على الأذهان
بطل مكارمه الجليلة قلّدت — هام الزمان مكالل التيجان
يهنيك يا مصر لقد حزت البها — بمحمد باشا علىّ الشان
فاحظى بفاخر حكمه وتمتعى — وبذلك افتخرى على البلدان
مدّى أكف الشكر وابتهلى بأن — يبقيه مولاه طويل زمان

وهذه القصيدة تعد أول شعر ناضج للطهطاوى عندما نؤرخ له ، وتعكس – من زاوية أخرى – بشكل واضح فهمه لماهية الشعر ووظيفته .

أولا : ماهية الشعر

على دارس الأدب أن يتبين مدى فهم المنتج لماهية النوع الأدبى الذى يمارسه ، ليكون ذلك معيناً موضوعياً على فهم الأديب وتحديد المعيار القيمى لأدبه والفلسفة الفنية التى يصدر عنها . ومن خلال هذه القصيدة – التى أثبتناها كاملة – نستطيع معرفة مدى فهم الطهطاوى لماهية القصيدة سواء من حيث الإطار الأدبى أو أدوات التشكيل الجمالى .

أما من حيث الإطار الأدبى الذى يشكل مضمون القصيدة ، فنستطيع القول بأنه لم يتجاوز ما عرف فى أدبيات النقد القديم بتقاليد « عمود الشعر العربى » ، وعلى هذا تبدأ القصيدة عنده بالغزل الذى يمثل منطلقاً ثابتاً لمعظم ديوان الشعر العربى حتى نهاية القرن التاسع عشر – الذى يمثل قمة نضج المدرسة الكلاسيكية الحديثة فى الشعر العربى ، ولم يكن ذلك الموضوع فى مطلع القصيدة العربية يعكس تجربة فنية ، بقدر ما يكشف عن حرص شديد على التمسك بالتقاليد الجمالية الكلاسيكية للقصيدة : التى توظف ذلك

المطلع الغزلى إرهاصاً وتمهيداً لسواه من الموضوعات التى قد تمثل المثير الحقيقى لتجربة الشاعر ، لذلك نجد الطهطاوى ينتقل من هذا الغزل التقليدى إلى وصف مصر والحنين إلى أهلها ، ولا سيما رجال الأزهر الذين كانت تربطه بهم علاقة وثيقة . وبعد ذلك تنتقل القصيدة أيضاً إلى محور ثالث يتناول مدح الحاكم ببعض صفات المدح التقليدية أيضاً التى لا تتجاوز وصفه بالشجاعة النصر على الأعداء وبلوغ أقصى مراتب الرفعة والمجد ، والدعاء له بطول العمر والسيادة .

ومن حيث التقاليد الجمالية التى تربط الموقف بالأداة والمضمون بالشكل فى قصيدة الطهطاوى ، نجد فى البداية عنصر (المبالغة) ، التى تقوم على ما يشبه السذاجة الفكرية والفنية فى آن واحد ، وتكاد تعد سمة أساسية فى القصيدة . ففى الجزء الأول يرسم صورة لحبيب مثالى فى جماله وصفاته وسر التعلق به ، لا لشىء إلا لأن الشاعر شكل صوره ومعاينه من التراث الشعرى « المحفوظ » ، وحرص على أن يذكر كل ما علق بذاكرته من أوصاف الحبيب فى مجال الغزل سواء أكان ما يقوله يمكن أن يقدم صورة إنسانية متسقة أم لا ؟ كما يقول فى هذه الأبيات :

أصبو إلى من حار قدا أهيفاً   يزرى ترنحه بغصن البـــانِ
وأحن نحو شقيــق تم خـــده   قد نم فيه شقائق النعمـــان
ويروقنى أبدا نزاهة مقاـــتى   فى حسن طاعة فاتك فتـــان
أمسى وأصبح بين شعر حالك   ومنير وجهٍ هكذا الملوان(١)

ونفس المبالغة — التى تخل بمنطق الصورة على المستويين الفكرى والفنى — تنطبق على ما يقوله فى وصف حنينه إلى مصر .. فى هذه الأبيات :

لو شابهت عيناى فائض نيلها   لم توف بعض شفائه أحزانى
أو لو حكى قلبى بحار علومها   طرباً لما أخلو من الخفقـان

---

(١) الملوان : الليل والنهار .

و نفس المبالغة نجدها فى مدحه لمحمد على ، حين شبهه باسكندر وكسرى و ذكر أن انتصاراته واضحة للعيان ، وأن فى كفه سيفين : سيف عناية من الله « والشهم إبراهيم سيف ثان » .

و هذه المبالغة –على طول القصيدة– فى الغزل والوصف والمدح ، تعكس قدراً من البساطة الفكرية والسذاجةالفنية فى تمثل ماهية الشعر وطبيعته الأدبية . وكأن ما يقوله الشاعر لا يشترط أن يخضع لأى منطق فى التفكير ، وبالتالى فى التشكيل والتصوير ، وعلى هذا تبدو بنية القصيدة على المستوى الفكرى هشة وعاجزة عن أن تقنع بحقيقة شعرية أو توحى بخيال خصب متميّز .

كذلك يتصل بجماليات القصيدة عند الطهطاوى أن تكوين الصورة عنده يتمّ فى إطار أقرب إلى المباشرة والبساطة فى الصياغة والبناء ، كما لو كانت تتشكل بطريقة آلية ، لا يوجد بين عناصرها ما يوحى بإعطاء الصورة دلالة خاصة متميزة أو علاقة مركبة مبهرة ، لذلك تصبح الصورة عنده – بسبب من تقليدية التكوين وبساطته – أقرب إلى الوضوح النثرى ، مثل قوله فى وصف الحبيب :

أمسى وأصبح بين شَعر حالك ومنير وجه هـكذا الملوان

فالصورة تتشكل من التشبيه البسيط المفرد والمطابقة الواضحة ، حيث يمسى بين شعر الحبيب الأسود.. ويصبح بين وجهه المشرق مثل الليل والنهار .

وقد تقوم الصورة على تكلف الجناس والتورية وتعمدهما بدرجة تجعل الجملة خالية من وهج الشعر وحرارة الفن ، مثل ربطه بين وصف مصر بالعروس والحديث عن الشيخ العروسى فى قوله :

قد شبهوها « بالعروس » وقد بدا منها « العروسى » بهجة الأكوان

ومثل هذا الجناس المزهق لأى روح شعرية فى مدحه لمحمد على بقوله :

حاز « المحامد » إذا دُعى « بمحمد » ورقى « العُلا فعلا على » الأقران

وإذا كان الجناس مقبولا إلى حد ما بين المحامد ومحمد ، فهو شديد التكلف والثقل حين جمع بين الاسم والفعل والحرف فى « رقى (العلا — فعلا — على) الأقران » .

أما من حيث التركيب اللغوى فنحس بشكل واضح أن اللفظة المفردة لا تحمل فى جملة الطهطاوى الشعرية |— من خلال النسق اللغوى لها — أى دلالة خاصة ، معنوية أو تصويرية . من هنا فإن المفردات فى تراكيبها عنده تحمل معنى مألوفاً مباشراً كذلك الذى يمكن أن نجده فى النثر .

وعلى الجملة فإن هذه القصيدة تضع يدى الدارس لشعر الطهطاوى منذ البداية على كثير من السمات الفكرية والتقاليد الجمالية ، التى سوف ينطلق منها الشاعر بعد ذلك بشكل مطرد — كما سوف نتحدث عن ذلك بالتفصيل فيما بعد . ومن هذا يتضح أن فهمه للماهية لم يتغير عما كان معروفاً فى عصور الأدب السابقة عليه .

ثانياً : وظيفة الشعر

تتسق وظيفة الشعر مع ماهيته لدى كل شاعر فى إطار التقاليد الجمالية للمدرسة التى ينتمى إليها . ونجافى العلم والموضوعية إذا لم نرصد تقاليد المدرسة فى ضوء من الوعى الشديد بالواقع الذى تعاصره ، لأن الواقع الاجتماعى يفرض بالضرورة الفلسفة الفكرية للمرحلة ، التى تفرز بدورها فلسفة فنية تتواءم وحركتها الاجتماعية ، وتحدد مثلها الأدبية والإنسانية ، وتحافظ على ما تريد تثبيته من القيم المختلفة . وخلال المرحلة الاجتماعية التى عاصرها الطهطاوى (١٨٠١ — ١٨٧٣) كانت العلاقات الاجتماعية يحكمها الإطار « الإقطاعى » حيث كان « الوالى » يتحكم بصفة عامة فى كل أمور البلاد والعباد ، ورغم مظاهر النهضة الاجتماعية المختلفة ومحاولة تحديث المجتمع المصرى إلا أن ذلك لم يغير من جوهر طبيعة المرحلة إجتماعياً (١) .

---

(١) راجع : طه وادى : شعر ناجى ، الموقف والأداة ، ط . دار المعارف ، الثانية ، ١٩٨١ ص ١٧ — ٢٩ .

نتيجة لهذا كان الشعر — أهم نوع أدبى فى تلك المرحلة — بلا (جمهور) حقيقى يرتبط بحركته ، ذلك أن الأمية الفكرية والتعليمية كانت واسعة الانتشار ولم تكن هناك ندوات أدبية .. أو صحافة ، وعلى الرغم من إنشاء جريدة « الوقائع المصرية » (١٨٢٨) فإنه لم يكن لها جمهور عام اللهم إلا بعض موظفى الدولة الذين قد توزع عليهم « رسمياً » لأعمال مصلحية(١) .

ونقرأ ديوان الشاعر إسماعيل الخشاب (ت ١٨١٥) فنجده يدور كله فى إطار شعر المدح والتهانى والرثاء ، وأقرب الموضوعات فيه إلى التعبير عن ذات الشاعر ماكان يمثل مراسلات بينه وبعض أصدقائه من شيوخ عصره مثل الشيخ محمد الأمير والشيخ أحمد الشافعى وغيرهما (٢) . وله كثير من القصائد يبدؤها جامع الديوان بقوله (وقال) ... وهى مقطوعات كثيرة فى الديوان لا نحس منها أن هناك دافعاً واضحاً أغرى الشاعر بقولها ، اللهم إلا مجرد الرغبة فى قتل وقت الفراغ . ومن الطبيعى أن ينحدر حال الشعر معه إلى أن نصل إلى مقطوعات تأخذ هذا العنوان : وقال مشطراً .. وقال يصف غلاماً .. وقال مطرزاً .. وقال فى من اسمه حسين(٣) .

والطهطاوى يرد أهم أسباب بوار الشعر فى تلك المرحلة — إلى ما قاله أحد الشعراء السابقين عليه — فيذكر :

---

(١) كانت اللغة التركية هى المسيطرة على جريدة « الوقائع المصرية » فى أول ظهورها ، وكان ما تنشره يكتب باللغتين التركية (على اليمين) والعربية (على الشمال) ، إلى أن تولى الطهطاوى الإشراف على القسم العربى بها سنة ١٨٤٢ فصحح الوضع وجعل اللغة العربية على اليمين . وبعد عام أخذت تصدر فى عددين : أحدهما بالعربية ، والآخر بالتركية ترجمة له .

وإذا كانت « الوقائع المصرية » قد توقفت فى عهد الخديوى عباس وسعيد ، فلا نستطيع القول بأنه وجدت صحافة أدبية فى مصر إلا ابتداءاً من سنة ١٨٧٠ حيث ظهرت مجلة « روضة المدارس » وكان الطهطاوى وابنه على فهمى من أهم المشرفين عليها والموجهين لحركتها نحو العناية بالفكر والأدب ، وقد توالى بعد ذلك صدور الكثير من الصحف والمجلات .

(٢) ديوان الخشاب (ضمن مجموعة كتب) ، ط الجوائب ، القسطنطينية سنة ١٣٠٠ هـ ، ص ٣٦٦ ، ٣٧٣ .

(٣) ديوان الخشاب ، ص ٣٥٠ ، ٣٧٦ — ٣٧٧ .

قالوا تركتَ الشعر ، قلتُ ضرورةٌ   بابُ الدواعى والبواعثِ مُغلَقُ
خلت الديارُ ، فلا كريمٌ يُرتجى   منه النوالُ ولا مليحٌ يُعْشَقُ (١)

وعلى هذا فقد صار من الضرورة بالنسبة لشاعر تلك المرحلة أن « يوظف » شعره فى دائرة (الحاكم) وما يحدث له من أمور وما يتعلق به من مناسبات ، وأن يعجز – بحكم طبيعة المرحلة : إجتماعياً وفكرياً وفنياً – عن أن يوظف شعره فى التعبير عن واقعه العام أو ذاته الخاصة .

وكان من المحتم على الطهطاوى الشاعر أن يفهم وظيفة الشعر على سياق من فكر عصره وألا يشذ عنه ، ذلك الفهم الذى استمر حتى أحمد شوقى (١٨٧٠ – ١٩٣٢) الذى شكا منه واعتذر عنه فى مقدمة الطبعة الأولى لديوانه (١٩٠٠) قائلا : « إنى قرعت أبواب الشعر ، وأنا لا أعلم من حقيقته ما أعلم اليوم ، ولا أجد أمامى غير دواوين للموتى لا مظهر للشعر فيها ، وقصائد للأحياء يحذون فيها حذو القدماء ، والقوم فى مصر لا يعرفون من الشعر إلا ماكان مدحاً فى مقام عال ، ولا يرون غير شاعر الخديوى صاحب المقام الأسمى فى البلاد ، فمازلتُ أتمنى هذه المنزلة وأسمو إليها ... » (٢) .

ويؤكد هذه الحقيقة – حقيقة توظيف الشعر فى مجمله مدحاً للحاكم – أن جماهير الشعب المصرى لم تكن مرتبطة – حينذاك – بالشعر الفصيح ، وإنما كان غذاؤها الوجدانى الحقيقى فى أشكال (الأدب الشعبى) المختلفة . والمستشرق الإنجليزى « إدوارد وليم لين » الذى زار مصر فى النصف الأول من القرن الماضى ، ودوّن كتاباً (١٨٣٥) عن مشاهداته فى القاهرة ، يؤكد أنه كان من أهم تسليات المصريين «القصاص» الذين يغشون مقاهى القاهرة وغيرها من المدن فى ليالى الأعياد الدينية خاصة ، ويسامرون الناس ببراعة تجذب القلوب ، « ولكن الأمر لم يكن مقصوراً على الأعياد فحسب ،

---

(١) تخليص الأبريز ، ص ٣٧٥

(٢) طه وادى : شعر شوقى الغنائى والمسرحى ط . دار المعارف ، الثانية ، ١٩٨١ ص ١٦٦ .

بل كان هناك كثرة من رواة القصص تسمى « المحدثين » (الذين يقصون الحواديت) وهم من حيث العدد يتلون « الشعراء الشعبيين » ففى القاهرة ما يقرب من الثلاثين منهم »(١) .

وقد استمرت سيطرة الأدب الشعبي إلى النصف الثانى من القرن الماضى ، فقد كان الناس فى عصر الخديوى اسماعيل « يتعشون ويذهبون إلى القهوة التى يميلون إليها ، لسماع الراوى يقص سيرة بنى هلال وحروب أبى زيد ودياب والزناتى خليفة ، أو أعمال فروسية عنترة بن شداد والمهلهل وحرب البسوس أو أفعال سيف بن ذى يزن ، وحيل على الزيبق وأخاديعه »(٢) ، وغير ذلك من قصص « ألف ليلة وليلة » وغيرها من الحكايات .

وهكذا نستطيع القول بأن الأدب الشعبي بأشكاله المتنوعة ، كان يمثل الغذاء الوجدانى الحقيقى لجماهير الشعب ، التى أدركت بالفطرة أن البشر لا تقدر أن تحيا — فى أى مرحلة — بغير فن ، فإن لم تجد من يقدمه لها من المتخصصين ، صاغته هى بنفسها .. بلغتها المتداولة المألوفة وأساليبها الفطرية البسيطة .

يتضح من كل ما سبق أن الشاعر — فى تلك المرحلة — عندما كان يكتب شعره ، لم يكن فى وعيه أن للجمهور صلة بما ينتجه ، وكان هذا بالضرورة أمراً بالغ السوء بالنسبة للشعر على المستويين : الإبداعى والتذوقى ، لأن فقدان تلك الصلة الضرورية بين المبدع والمتلقى ليجعل الشاعر بلا جمهور ، والشعر بلا روح .

إن الشعر — مثل أى نشاط إنسانى — إذا لم تكن له وظيفة اجتماعية تربطه بحياة جماهير المجتمع : صانعة الفنان وصاحبة الفن ، فلن يكون له وجود على الإطلاق . ولا شك أن غياب هذه الصلة الحميمة بين الشعر والواقع

---

(١) ادوارد وليم لين : المصريون المحدثون ، شمائلهم وعاداتهم فى القرن التاسع عشر . ترجمة عدلى نور ، ط الرسالة (الأولى) القاهرة ، ١٩٥٠ ، ص ٢٩٤ .

(٢) الياس الأيوبى : تاريخ مصر فى عصر اسماعيل ، ط دار الكتب المصرية ، ١٩٣٢ ، ص ٢٩٠ .

الاجتماعى ، جعلت شعراء المرحلة — والطهطاوى واحد منهم — لا يرون للشعر — بصفة عامة — إلا وظيفة غاية فى الضيق والتحدد ، وهى أن يكون فى (إطار الحاكم) وما يعن له من مناسبات ، وإذا كان الحاكم شبه أعجمى لا يفهم العربية ، والشاعر شبه مغترب لا يرتبط بواقعه ، فمن الضرورة أن يكون للشعر — الذى كان فى شبه حالة احتضار فنى — تلك الوظيفة الباهتة وذلك الدور الممسوخ خاصة فى النصف الأول من القرن الماضى .

الفصل الثانى

المكونات الثقافية للطهطاوى الشاعر

(أ) الثقافة العربية القديمة :

لاشك أن صلة الطهطاوى بالأزهر .. طالباً ومعلماً وزميلا للممتازين من شيوخه تجعل الحديث عن ثقافته الدينية واللغوية والبلاغية والتاريخية والأدبية العامة تحصيلا لحاصل . فقد كانت تلك العلوم وحدها مركز الدائرة فى الدراسة الأزهرية — كما سبقت الإشارة إلى ذلك . ولكن الذى نحاول أن نثبته هنا — والحديث عن الطهطاوى شاعراً — هو معرفته بشعراء العربية السابقين عليه .

وتراث الطهطاوى — رغم اختلاف المجالات التى كتب فيها — يحاول ربط كل موضوع يتحدث عنه إلى قول مأثور من التراث القديم ، يدعم به رأيه ويثبت وجهة نظره . بيد أن أهم عنصر فى المأثور التراثى عنده يتبلى فى استشهاده الواسع (بالشعر) السابق عليه قاطبة ، بحيث لم يكد يفلت من حافظته اسم شعرى معروف فى تاريخ الأدب العربى على اختلاف العصور وتباين الموضوعات ، بل إن بعض أدباء النثر أيضاً لم يفلتوا من إشارة إليهم أحياناً . وعلى هذا نجده يستشهد من العصر الجاهلى بامرىء القيس (١) ، عنترة بن شداد العبسى (٢) ، زهير بن أبى سلمى (٣) ،

---

(١) تخليص الأبريز ، ص ٢٦٣ .
— مناهج الألباب ، ص ٧٩ — ١٥٠ .
— أنوار توفيق الجليل ، ص ١٤١ — ٤٤٢ — ٤٤٣ .
— نهاية الإيجاز ، ص ١٠٦ .
(٢) تخليص الأبريز ، ص ٢٩٩ .
(٣) تخليص الأبريز ، ص ٢٨٤ ؛ المرشد الأمين ، ص ٢٣٦ ؛ مناهج الألباب ، ص ٥٨ .

طرفة بن العبد (١) ، عروة بن الورد ، العباس بن مرداس السلمى ، السموءل ، عامر بن الطفيل ، ضرار بن الخطاب بن مرداس ، كعب بن مالك ، النابغة الذبياني (٢) ، صاحب لامية العرب ، وهو لا ينسبها إلى الشنفرى دلالة على وعيه بقضية الانتحال حول ذلك النص (٣) .. كما يستشهد بشعر للخنساء في رثاء أخيها صخر (٤) ، الحطيئة (٥) ، قس بن ساعدة (٦) .

وإذا ما تجاوزنا هذه الأسماء من العصر الجاهلي ومن المخضرمين إلى العصر الإسلامي والأموي وجدناه يستشهد بأشعار لحسان بن ثابت (٧) ، وكعب بن زهير (٨) ، وعمر بن أبي ربيعة (٩) ، كثير عزة (١٠) ، مجنون ليلى (١١) ، جميل بثينة (١٢) ، قطرى بن الفجاءة (١٣) ، الفرزدق (١٤) ، جرير (١٥) ، عبد الله بن قيس الرقيات (١٦) ، عروة بن أذينة ، ميسون بنت بحدل .

---

(١) تخليص الأبريز ، ص ٤٠١ .
(٢) المرشد الأمين ، ص ١٠٩ .
(٣) تخليص الأبريز ، ص ٢٩٩ ؛ المرشد الأمين ، ص ٩١ .
(٤) المرشد الأمين ، ص ٢٧٩ .
(٥) نهاية الإيجاز ، ص ٣٥٥ – ٤٤٤ .
(٦) أنوار توفيق الجليل ، ص ٥٣٤ .
(٧) نهاية الإيجاز ، ص ٢٢ ، ٢٥ ، ١١٧ ، ١٢٢ ، ١٦٧ ، ١٩٠ ، ١٩٢ ، ٣٧٨ ، ٤١٦ .
(٨) المرشد الأمين ، ص ٧٨ ؛ نهاية الإيجاز ، ص ٢٤٤ .
(٩) المرشد الأمين ، ص ١٦٧ ؛ نهاية الإيجاز ، ص ٢٨٩ .
(١٠) نهاية الإيجاز ، ص ٥١٩ .
(١١) المرشد الأمين ، ص ٢٠١ – ٢٠٣ ؛ مناهج الألباب ، ص ٣٩٩ .
(١٢) مناهج الألباب ص ١٤ – ٤٤٤ ؛ نهاية الإيجاز ، ص ٥١٧ .
(١٣) تخليص الأبريز ، ص ٣٨٢ – المرشد الأمين ، ص ١٦٥ .
(١٤) المرشد الأمين ، ص ٥٢ .
(١٥) مناهج الألباب ، ص ٦٣ .
(١٦) نهاية الإيجاز ، ص ٢٧٧ ؛ تخليص الأبريز ، ص ٣٧٦ .

و من شعراء العصر العباسي يستشهد الطهطاوي بشعر لمجموعة من الأعلام في مقدمتهم : السيد الحميري ، أبو العتاهية(١) ، أبو نواس(٢) ، ابن المعتز (٣) ، مسلم بن الوليد(٤) ، الشريف الرضي (٥) ، أبو تمام(٦) ، البحتري (٧) ، أبو فراس الحمداني(٨) ، ابن الرومي(٩) ، أبو الطيب المتنبي (١٠) ، الحريري(١١) ، الشريف المرتضى (١٢) ، الإمام الغزالي(١٣) .

كما نجده يستشهد بشعر للإمام الشافعي(١٤) المتوفى سنة ٢٠٤ هـ ، الذي ينقل عنه كثيراً من الحكم النثرية و الشعرية(١٥) .. مثل قوله :

تغرَّبْ عن الأوطان في طلب العلا ... و سافرْ ففي الأسفار خمسُ فوائد
تفريجُ همٍّ واكتساب معيشةٍ ... وعلمٌ وآدابٌ و صحبةُ ماجد

(١) نهاية الإيجاز ص ١٥٣ ، المرشد الأمين ، ص ٢٥ ، ٢٩ ، ٢٣ ؛ مناهج الألباب ص ٣٣ ، ٣٤ ، ٤١٨ .

(٢) تخليص الأبريز ، ص ١٧٥ ؛ مناهج الألباب ، ص ٣٢٤ .

(٣) مناهج الألباب ، ص ١١٣ – ١٩١ .

(٤) تخليص الأبريز ، ص ٣٧٦ .

(٥) المرشد الأمين ، ص ٥٧ ؛ مناهج الألباب ، ص ١٢ .

(٦) المرشد الأمين ، ص ٧٩ – ٨٠ ؛ تخليص الأبريز ، ص ٢١٩ – ٣٨١ . مناهج الألباب ، ص ١٤ ، ١٩١ ، ٤١٩ ؛ نهاية الإيجاز ، ص ٥٢٧ .

(٧) المرشد الأمين ، ص ١٥٨ .

(٨) المرشد الأمين ، ص ١٧٣ .

(٩) المرشد الأمين ، ص ٩٠ ، ٣٠٢ ؛ مناهج الألباب ، ص ١٦٨ ، ٤١٨ ، ٤١٩ .

(١٠) المرشد الأمين ، ص ١١٥ – ٢٢٣ .؛ تخليص الأبريز ، ص ٣٧٨ – ٤٠٨ . مناهج الألباب ، ص ٣٠ ، ١٩١ ، ٤٠٩ .

(١١) تخليص الأبريز ، ص ١٥٨ .

(١٢) مناهج الألباب ، ص ١٢ .

(١٣) المرشد الأمين ، ص ٣١٦ .

(١٤) المرشد الأمين ، ص ٢٣ ، ٦٥ ، ١٣٧ ، ١٥٠ ، ٢٢٠ ، ٢٢٣ ، ٢٦٦ ، ٢٧٣ ، ٢٩٢ ، ٢٣٤ ، ٣٣٩ ، ٣٧٤ . مناهج الألباب ، ص ١٦٠ .

(١٥) كثرة الاقتباس عن الإمام الشافعي تدل على أنه كان « شافعياً » .

و ينقل عن الشاعر الصوفى عمر بن الفارض (١) ، و الإمام البوصيرى (٢) ، و الإمام السيوطى (٣) ، و الزمخشرى (٤) الذى ذكر له بعض أبيات فى الحكمة تبدأ بهذا المقطع (٥) :

قطع الجهول زمانه بتغزل — إن الجهول عن الكمال بمعزل

أنا لا أميل إلى كلام العذل — سهرى لتنقيح العلوم ألذ لى

من وصل غانية و طيب عناق

كذلك يستشهد الطهطاوى بشعر لبهاء الدين أبى حسين العاملى (٦) ، و ابن رزيق الكاتب البغدادى (٧) ، و الصلاح الصفدى (٨) ، و العلامة الصفتى (٩) ، و الصفى الحلى (١٠) ، و الشهاب الحجازى (١١) ، و الوأواء (١٢) ، و القاضى عبد الوهاب البغدادى (١٣) ، و الشيخ شمس الدين المزين (١٤) ، و الشيخ عباس

---

(١) المرشد الأمين ، ص ٣٠ ، ٥٧ ، ٢٠١ . — نهاية الإيجاز ، ص ١٠٧ ، ٢٠٤

(٢) المرشد الأمين ، ص ٦٨ ؛ مناهج الألباب ، ص ٢٤١ ؛ نهاية الإيجاز ، ص ٤٢ ، ١١٧ ، ٢١٩ ، ٣٠٤ ، ٣٠٥ .

(٣) مناهج الألباب ، ص ٥٥ .

(٤) تخليص الأبريز ، ص ٤٠٣ .

(٥) راجع المقطوعة كاملة فى : مناهج الألباب ، ص ٥٦ .

(٦) تخليص الأبريز ، ص ١٤٩ .

(٧) تخليص الأبريز ، ص ٢١٧ .

(٨) المرشد الأمين ، ص ١٨٠ ، نهاية الإيجاز ، ص ٣٠٦ .

(٩) تخليص الأبريز ، ص ١٩٩ — ٢٠٠ .

(١٠) المرشد الأمين ، ص ٢٥٣ .

(١١) تخليص الأبريز ، ص ١٩٩ — ٣٧٧ .

(١٢) تخليص الأبريز ، ص ٣٧٧ .

(١٣) مناهج الألباب ، ص ٣٦ .

(١٤) مناهج الألباب ، ص ٣٧ .

اليمنى (١) ، وكمال الدين بن العديم قاضى حلب (٢) ، والبهاء زهير (٣) ، وعيسى بن سنجر الحاجرى (٤) ، وعبد العظيم بن أبى الإصبع (٥) ، وشمس الدين الحكيم بن دانيال (٦)، والسراج الوراق (٧)، وابن سناء الملك (٨) والحافظ بن حجر العسقلانى (٩) ، والشيخ تقى الدين بن دقيق العيد (١٠)، وجمال الدين محمد بن نباتة (١١)، وعبد العزيز بن نباتة (١٢) ، والقيراطى الذى ينقل له بعض أبيات من قصيدة همزية طويلة فى مدح الرسول (١٣) ، والشيخ حسن العطار (١٤).

كذلك تتردد فى استشهاداته هذه الأسماء المختلفة : ابن هانىء الأندلسى (١٥) ابن سهل الإسرائيلى الأندلسى (١٦)، الصاحب بن عباد (١٧)، ابن دريد (١٨)،

(١) تخليص الأبريز ، ص ٢١٢ .
(٢) نهاية الإيجاز ، ص ٣٣٣ - ٣٣٤ .
(٣) مناهج الألباب ، ص ٤٠١ .
(٤) تخليص الأبريز ، ص ٢٥٤ .
(٥) مناهج الألباب ، ص ٣٥ .
(٦) مناهج الألباب ، ص ١٩١ .
(٧) أنوار توفيق الجليل ، ص ٢٦٦ .
(٨) المرشد الأمين ، ص ٣٠٢ .
(٩) نهاية الإيجاز ، ص ٣٧٢ .
(١٠) المرشد الأمين ، ص ٢٢٢ .
(١١) المرشد الأمين ، ص ٢٢٣ .
(١٢) مناهج الألباب ، ص ١٩٠ .
(١٣) نهاية الإيجاز ، ص ٤٣ ، ٤٨ ، ١٤٨ .
(١٤) تخليص الأبريز ، ص ١٤٠ .
(١٥) المرشد الأمين ، ص ٧٩ .
(١٦) تخليص الأبريز ، ص ١٨٨ ، ٣٧٦ .
(١٧) تخليص الأبريز ، ص ٢١١ .
(١٨) تخليص الأبريز ، ص ٢٠٨ .

ابن بسام البغدادى (١)، أبو نصر الفارابى(٢)، أبو حيان(٣)، ابن زيدون (٤)، الرئيس أبو على بن سينا (٥)، محي الدين بن عربى الذى يلقبه « سيدنا الأكبر والكبريت الأحمر » (٦)، أبو حفص الوردى، الحافظ كمال الدين الإدفوى.

وهذه الأسماء الشاعرة التى تكاد تغطى تاريخ الأدب العربى كله — على امتداد عصوره وتنوع أقاليمه — لا تجعلنا ننتهى إلى أن الطهطاوى قد اطلع على الشعر العربى قاطبة، وإنما الحقيقة التى نرجحها هى أنه قد عرف مظعم هذه الأسماء وتلك الأشعار من خلال كتب (المختارات الأدبية) التى شاعت فى عصره، مثل : العقد الفريد لابن عبد ربه — الأمالى لأبى على القالى — خزانة الأدب للبغدادى — الكشكول لبهاء الدين العاملى — صبح الأعشى فى صناعة الإنشا للقلقشندى، أو كتب المجموعات الشعرية مثل : المفضليات للمفضل الضبى — الأصمعيات للأصمعى — ديوان الحماسة لأبى تمام وغيرها.

ومع أن رفاعة الطهطاوى قد تعرف على الشعراء السابقين وبعض شعرهم من خلال كتب المختارات الأدبية — إلا أننا ينبغى أن نقدر جهده فى الإلمام بالثقافة والأدب القديمين فى إطار الواقع الذى كان يعيش فيه، والظروف التى كان يتحرك خلالها .. إن الإطلاع على مثل هذه الثقافة الأدبية يعد حالة (متقدمة) بالنسبة لعصره سواء اطلع عليها أثناء وجوده بالأزهر : طالباً ومعلماً، أو بعد عودته من فرنسا بعد أن بدأت مطبعة بولاق تنشر، منذ سنة ١٨٢١ أمثال هذه الكتب وغيرها من كتب التراث.

أيا ما كان السبيل إلى تحصيل هذه الثقافة، فالذى نستطيع أن نوكده بالنسبة للروافد القومية فى تكوين الطهطاوى الشاعر والمفكر أيضاً أنها كانت

---

(١) مناهج الألباب، ص ٣٨.
(٢) تخليص الأبريز، ص ٢٢٣.
(٣) المرشد الأمين، ص ٢٣٧.
(٤) المرشد الأمين، ص ١٨٠.
(٥) المرشد الأمين، ص ٨٣.
(٦) المرشد الأمين، ص ٢١٤.

من العمق و الشمول بحيث نستطيع القول بأنه لم يكد يتوفر لأحد من معاصريه من الشعراء أو المفكرين مثل هذه الإحاطة الشاملة بالتراث العربى القديم والوسيط ، لقد كان شاعرنا (موسوعياً) فى إنتاجه الفكرى و الأدبى ، بل و فى مجالات عمله و إصلاحاته ، و ليس بعزيز و الأمر كذلك أن تكون صلته بالتراث واسعة و أقرب إلى الكمال بالنسبة لظروف الواقع الذى عاش فيه .

ظاهرة محيرة :

و لكن الشعر المستشهد به فى كتب رفاعة يثير قضية أخرى ، ذلك أننا نجد قدراً منه مسنداً إلى أصحابه ، و بعضاً آخر (غير مسند) يشكل حيزاً كبيراً بالنسبة لاستشهاداته الشعرية . و تبدو هذه الظاهرة — ظاهرة الشعر غير المسند — بشكل لافت فى كتابيه « أنوار توفيق الجليل » (١٨٦٨) ، و « نهاية الإيجاز فى سيرة ساكن الحجاز »(١٨٧٣) ، من ذلك أنه عند حديثه عن القيصر « أدريانوس » الذى تولى حكم مصر سنة ٥٠٥ (ق . هـ) .. « يحكى أنه فى أثناء سفره على النيل السعيد إلى جهة الصعيد ، فقد ولده أنطنيوس و ناح عليه نواح الخنساء على أخيها صخر ، و الثكلى على ولدها الأبر ، و لا عجب فى الأسف والحزن على الأولاد ، فإنهم فلذات الأكباد ، كما قيل ، و هو جيد فى المعنى :

على صفحتى خدى أجريتُ مقلتى   بحيث ترى الأنهار من تحتها تجرى
وخدى لسقم عاد صخراً و جندلا   فمقلتى الخنساء تبكى على صخر

و قال آخر :

لئن أخليتُ منك اليوم أنسى   فما أنا فيك من أسفٍ خلىُّ
عصانى الصبر بعدك وهو طوعى   و طاوع بعدك الدمع العصىّ
و هل أبقت لى الأيام دمعاً   فيسعدنى به الدمع الشقىُّ (١)

---

(١) أخبار توفيق الجليل فى مصر وتوثيق بنى إسماعيل ، ط بولاق ، ١٢٨٥ هـ ، ج ١ ، ص ٢٨٦ .

وهذا الشعر (غير المسند) يوقفنا أمامه فى حيرة شديدة حين نحاول تحقيق نسبته . فهل حفظه الطهطاوى لبعض الشعراء ، ثم لم تسعفه الحافظة على تذكر أسمائهم حين استشهد بشعرهم ؟ .. وكيف يمكن تصور ذلك وقد كان ثقة ومتثبتاً من كثير مما رجع إليه من كتب أو أسماء . أو أنه حفظه من كتب لا تهتم بإسناد الشعر كثيراً مثل كتب التاريخ العام ؟ أو أن ذلك الشعر للطهطاوى ولم يشأ أن ينسبه إلى نفسه ؟ بحيث يمكن القول بأنه أراد أن يقوّى رأيه بالشعر فى المجال المستشهد به ، أى أنه كتب ذلك الشعر ونظمه على البديهة تأييداً لبعض أفكاره ، ووجد أن فى إهمال النسبة إليه تدعيماً للموقف أكثر ؟ أو لعله أحسّ بأنه صاحب الكتاب المؤلف كله ، فأى ميزة يمكن أن تضاف إليه إذا ذكر أن هذه الأبيات القليلة المتناثرة له ؟ .

وخلاصة القول أن ذلك القدر من الشعر غير المسند فى تراث الطهطاوى يثير قضية على النحو الذى ذكرناه . ولا نريد أن نميل – بشكل حاسم – إلى أى من الإجابات التى توحى بها تساؤلاتنا السابقة ، ويبدو أن بعض ذلك الشعر قد ألفه رفاعة الطهطاوى نفسه ، ليثبت بعض آرائه ، ولكنه آثر فى النهاية – لسبب ما – ألا ينسبه إلى نفسه .

(ب) الثقافة الأوروبية :

يوضح كتاب « تخليص الأبريز » نوع الدراسات المختلفة التى تلقاها الطهطاوى أثناء السنوات الخمس التى قضاها فى باريس ، والأساتذة الذين تتلمذ عليهم ، وكان بعضهم من المستشرقين المشتغلين بالتراث العربى مثل البارون سلوستر دى ساسى ، والخواجة يعقوب المصرى الذى رحل مع الحملة الفرنسية (١) . وهناك ثبت بالكتب والدراسات التى حصلها فى باريس باللغة الفرنسية فى التاريخ والحساب والهندسة والجغرافيا والترجمة ، وغير ذلك مما قرأه أو درسه وأدى الإمتحان فيه (٢) .

---

(١) تخليص الأبريز ، ص ٢١٨ - ٢٢٤ .

(٢) تخليص الأبريز ، ٢٣٢ ، ٢٤٢ .

ويشير الطهطاوى عند المقارنة بين اللغة العربية والفرنسية بعض قضايا نقدية هامة ، تفصح عن وعيه منذ وقت مبكر – بما بين الشعر كفن أدبى و « النظم » – كمجرد صياغة لفظية لفرع من العلوم – من فروق جوهرية ، فيذكر أنه « لاتساع اللغة العربية كان بها كثير من كتب العلوم منظوماً . وأما لغة الفرنسيس فلا ينظم فيها كتب العلوم أصلا ، والنظم هو أن يفصح الإنسان عن مقصوده بكلام موزون مقفى ، وهو يحتاج زيادة عن الوزن إلى رقة العبارات وقوة الأسباب الداعية لنظمه » .. ثم يردف ذلك بقوله : « ومعرفة فن النظم لا تكفى فى نظم الشعر ، بل أن يكون الشاعر به سجية النظم سليقة وطبيعة وإلا كان نفسه بارداً وشعره غير مقبول » (١) .

وفى مجال المقارنة بين علم البلاغة فى اللغتين العربية والفرنسية يذكر أنه « علم تحسين العبارة أو علم تطبيق العبارة على مقتضيات الأحوال ، والمقصود منه على العموم توصيل الإنسان إلى الإفصاح عما فى ضميره بفصيح الكلام وبليغه .. وهذا العلم بهذه الكيفية ليس من خواص اللغة العربية – بل قد يكون فى أى لغة كانت من اللغات ، فإنه يعبر عن هذا العلم فى اللغات الإفرنجية بعلم « الريتوريقى » (٢) .

ويرى أن هذا العلم فى العربية أتم وأكمل منه فى غيرها ، خصوصاً علم البديع ، فإنه يشبه أن يكون من خواص اللغة العربية لضعفه فى اللغات الإفرنجية ، وهو يرى أيضاً أن لكل لغة بلاغتها الخاصة ، وأنه قد « يكون الشىء بليغاً فى لغة وغير بليغ فى أخرى أو قبيحاً فيها » وينتهى إلى ن البلاغة فى أى لغة تقوم « على ما يقبله الطبع » عند أهل تلك اللغة (٣) .

وعند حديثه عن النحو (٤) يبين أهميته بالنسبة لأى لغة (فحينئذ سائر

---

(١) راجع النص كاملا فى تخليص الأبريز ، ص ٣٧٥ – ٣٧٦ .

(٢) Rhétorique

(٣) تخليص الأبريز ، ص ٣٨٢ .

(٤) Grammaire

اللغات ذات القواعد لها فن يجمع بين قواعدها ، سواء كانت لدفع الخطأ فى القراءة أو الكتابة فيها أو لتحسينها (١) . والتأكيد على أهمية النحو بالنسبة للغة أمر منتظر من رفاعة الذى اشتغل بتدريسه والتأليف فيه ، والذى يقول عنه فى مقدمة كتاب له بعنوان « التحفة المكتبية لتقريب اللغة العربية » ١٨٦٩ :

كلامٌ بلا نحوٍ طعامٌ بلا ملحٍ ونحوٌ بلا شعر ظلامٌ بلا صبحِ

وخلاصة القول فيما يتصل باللغة الفرنسية وثقافتها ، أنه كانت لهما آثار قوية على فكر الطهطاوى وأعماله الإصلاحية ، إلا أننا لا نستطيع أن نتلمس أثراً مباشراً واضحاً لذلك فى شعره .

ويبدو أنه لم يحاول أن يدرس الأدب الفرنسى عامة ، لا لأنه لم يوجه لدراسته — فقد درس بعض ما لم يوجه إليه من العلوم والكتب ، وإنما لأن الفرنسية — كانت فى تصوره — وعاء حضارة ولغة وعلم ، أما بالنسبة للأدب فيبدو أنه كان موقناً إلى حد كبير بأن العربية عندها — فى هذا المجال — ما يغنى كل راغب فى التعلم أو الاستلهام . يؤكد هذا أن حديثه عن الأدب الفرنسى يدل على عدم معرفة قوية به ، فيذكر أن «العلوم الأدبية الفرنساوية لا بأس بها ، ولكن لغتها وأشعارها مبنية على عادة جاهلية اليونان وتأليهم ما يستحسنونه .. وبالجملة فكثير من الأشعار الفرنساوية لا بأس بها» (٢) .

ونتيجة التعصب للأدب القومى ، وعدم العناية بالأدب الفرنسى ، نجده يؤكد أهمية الأدب العربى وأفضليته على كل ما عداه فى بيتين غير منسوبين — ولعلهما له — وهما (٣) :

إلى العربى ملْ فى نظم شعرٍ فذاك لسانُ أربابِ الكمالِ
فشعر الفرس أسكرنا بجامٍ وشعر الترك طرزٌ بالخيال(٤)

---

(١) تخليص الأبريز ، ص ٢١٦ .

(٢) تخليص الأبريز ، ص ٢٢٤ .

(٣) المصدر السابق ، ص ٣٧٦ .

(٤) جام : كأس ، والشاعر يفضل الشعر العربى على الفارسى الذى يصور الخمرة كثيرا ، وعلى التركى المطرز بالخيال .

كما أنه فى نهاية مقارنته بين اللغة العربية والفرنسية ، يفضل العربية بشكل حاسم ، ففى رأيه أن « ليس كل مائع ماء ولا كل سقف سماء ، ولا كل بيت بيت الله ، ولا كل محمد رسول الله ، وكما يقول الشاعر :

وهيهات ما كل النسيم حجازيا ولا كل نور يبهج الشرق والغربا

وقال آخر :

وما كل مخضوب البنـــان بثينة ولا كل مسلوب الفؤاد جميل

فلا شك أن لسان العرب هو أعظم اللغات وأبهج ، وهل ذهب صرف يحاكيه بهرج ، ولله در من قال (١) :

يليق الخطـــاب اليعـــربى بأهــله فيهدى الوفا للنقص والحسن للقبح
ومن شرف الأعراب أن محمـــداً أتى عربى الأصل من عرب فُصح
وأن المثـــانى أنزلت بلســـانه بما خصصته فى الخطاب من المدح

وهذا الموقف (غير المتسق) من علم الغريب وأدبه ، قد يبدو لنا الآن (متناقضاً) ، ولكنه بالنسبة للطهطاوى وعصره كان يبدو أمراً متلائماً مع طبيعة المرحلة وفلسفة العصر ، ذلك أن النظرة شبه العدائية للغرب — حينذاك — جعلت من الممكن نقل الجانب المادى والعلمى عن الغرب ، أما فيما يتصل بالتراث الأدبى أو السلوك الاجتماعى فهذه أمور كان العربى يحس فيها بأن عنده ما يكفى ، بل ما يوجب الفخر ، ولعله كان يرى أن الاقتباس فى هذا الجانب المعنوى قد يهز العقيدة ويفقد بعض سمات الشخصية القومية (٢) .

وعلى هذا فقد رفض الطهطاوى (واعياً) — مثل كل أدباء عصره — فتح مجال التأثر بالأدب الفرنسى أو غيره ، وقد يكون هذا سبباً من أسباب تخلف الشعر عنـــده — بصورة واضحة — إذا ما قورن بمجمل تراثه فى مجالات أخرى . ولا ينفى رأينا هذا بالنسبة لموقف الطهطاوى من الأدب الفرنسى ترجمته لبعض القصائد كما سوف نشير إلى ذلك .

---

(١) تخليص الأبريز ، ص ٢١٨ .

(٢) راجع هذه القضية بالتفصيل فى : شعر ناجى ص ٢٠ ، ٢١ .

الفصل الثالث

فى إطار الواقع الاجتماعى واللغوى

سنحاول أن نقوم تجربة الطهطاوى الشعرية على المستويين : الفكرى والجمالى ، ولكن ينبغى — قبل ذلك — أن نوضح أمرين سبقت الإشارة إليهما بتركيز شديد ، وهما : طبيعة الواقع الاجتماعى الذى كان يكتب فى ظله الطهطاوى شعره ، ثم طبيعة اللغة السائدة فى إطار ذلك الواقع ، ليتسنى — من خلال هذا — التقويم الموضوعى للتجربة فى إطارها الحقيقى .

أما بالنسبة للواقع الاجتماعى المصرى فى تلك المرحلة ، فلا نستطيع القول بأن محمد على بعد توليه الحكم (١٨٠٥) قد استطاع — بله أن يكون قد فكر فى — تغيير بنية المجتمع ، لقد صادر كل أدوات الإنتاج من المماليك والإقطاعيين لتصبح ملكاً للحكومة أو للحاكم ، وعلى هذا لم تبعد ملامح المجتمع « الإقطاعى » كثيراً عن مصر فى النصف الأول من القرن الماضى . وكانت محاولات تحديث الحياة فى المجتمع المصرى يتم معظمها — غالباً — فى إطار الجيش ، الذى أراد الحاكم أن يغزو به المنطقة ليكون لنفسه امبراطورية تصبح القاهرة عاصمة لها . ولا شك أن جماعة المثقفين خاصة أعضاء البعثات كانت من ضآلة الحجم بحيث لم تكن تملك حتى لنفسها قدرة رفع الضر إذا ماحاول الحاكم إيقاعه بها. وليس أدل على ذلك من أن الطهطاوى نفسه تعرض للنفى إلى السودان فى عهد الخديوى عباس (١٨٤٩ — ١٨٥٤)[٢]، كما أن على مبارك قد أبعد عن مناصبه فى عهد الخديوى سعيد (١٨٥٤ — ١٨٦٣) .

وإذا كانت معظم الثروة قد تجمعت فى يد الحكومة ، وكل السلطة قد تمركزت فى يد الحاكم ، فلا شك أن هذا كان مبرراً كافياً لأن تكون

الكثرة الغالبة من شعر العصر عند الطهطاوى وغيره ، هى التى تندرج تحت قصيدة المدح . وعلى هذا يسهم الواقع الاجتماعى بالضرورة فى تحديد مسار الأدب وتشكيل محاوره الموضوعية . ومن الطبيعى — نتيجة ذلك — أن نجد شعر المدح يحتل مساحة عريضة فى تراث الطهطاوى ، وأن تكون صورة الحاكم فى شعره مبالغاً فيها ، سواء أكان محمد على أو أحد أبنائه من بعده ، من ذلك قوله فى مدح « أفندينا ولى الممالك محمد على باشا الذى سارت الركبان بذكره فى كل ناد ، وهامت الشعراء بمدحه فى كل واد .. » (١) .

ملا الكون بشراً عدله واعتداله ... وأغنى البرايا بره ونواله
حوى عزم كسرى فى مهابة قيصر ... وما اسكندر فى هزم دارا مثاله
متى قسته بالفرد منهم ظلمته ... فقد زينت كل الملوك خلاله

وأما بالنسبة للواقع اللغوى فى تلك المرحلة ، فأنه على الرغم من حالة الانحدار النسبى التى وصلت إليها العربية الفصحى فى أواخر العصر العثمانى — حيث كانت قاصرة على مجال التعلم فى الأزهر ، وقل استخدامها فى التأليف الفكرى والإبداع الأدبى لندرة المشتغلين بهما — إلا أنها كانت أسعد حالا مما هى عليه فى بداية عصر محمد على (الذى لم يتعلم القراءة بالعربية إلا وهو فى الأربعين) ، وذلك لأن اللغة التركية قد زاحمت العربية وأصبح لها من الأهمية أضعاف ما كان لها فى العصر العثمانى ذاته . وهذه الحقيقة يخطىء فى تصويرها بعض المؤرخين والكتاب الذين يفترضون أن التركية كان لها شأن قبل محمد على ، ولكن العكس هو الصحيح . وتفسير هذا أن اللغة العربية فى العصر العثمانى ، كانت « سيدة الموقف » يكتب بها ويسجل ، أما فى عصر محمد على — الذى لم يكن يجيد العربية فى البداية هو وبعض أبنائه مثل إبراهيم (٢) — فقد كان الوالى ، وهو المسيطر الذى يصدر الأوامر وحده . يريد أن يطلع على كل صغيرة وكبيرة ، وكانت اللغة الوحيدة التى يفهمها (ويقرأ بها)

---

(١) راجع القصيدة كاملة : فى بداية القدماء ونهاية الحكماء ، ط بولاق ، سنة ١٢٥١ هـ (١٨٣١ م) ص ٤ .

(٢) إبراهيم : ابن محمد على بالتبنى ، لأنه ابن زوجته من زوج سابق .

هى التركية ، فلا عجب إذن من انتشارها لدى الصفوة ورجال الحكومة والجيش » (١).

وتتضح مُزاحمة اللغة التركية للعربية فى ناحيتين :

الأولى : ناحية (الترجمة) — حيث بلغ عدد الكتب المترجمة إلى العربية ١١٤ كتاباً بينما ترجم إلى التركية ٦١ كتاباً فى عصر محمد على .

الثانية : التى تبرز قضية الازدواج اللغوى هذه هى (الصحافة) ، سواء أكانت « الوقائع المصرية » (١٨٢٨) أو « الرائد التونسى » (١٨٦٠) أو « طرابلس الغرب » فى ليبيا (١٨٦٦) أو « الزوراء » فى بغداد (١٨٦٩) فقد كانت التركية جزءاً أساسياً فى تلك الصحف . وقد كتبت فى البداية على اليمين فى « الوقائع المصرية » . وظلت نسخة تركية منها موجودة بشكل مستقل إلى ما بعد دخول الإنجليز مصر (١٨٨٢) .

أكثر من هذا فقد شاعت فى هذه المرحلة اللغة (الفارسية) لغة ثانية بعد التركية ، « ورغم أنها كانت محدودة الاستعمال يستخدمها بعض الأتراك والمصريين ، وكانت تفرض على تلاميذ معظم المدارس الحديدة . وقد ظلت لغة العلية المثقفة ، يشبعون بها شغفهم الروحى ، إلى أن حلت اللغة الفرنسية محلها(٢) ». وقد استمر للغة الفارسية حضورها لدى الصفوة على المستويين : الاجتماعى والثقافى ، حتى حلت اللغة الفرنسية محلها تقريباً فى نهاية القرن الماضى . ومعروف أن البارودى وعائشة التيمورية كان لهما بعض أشعار بالفارسية .

ومع هذه العناية بالتركية إلا أنها ظلت لغة « رسمية » فحسب ،

---

(١) جمال الدين الشيال ، تاريخ الترجمة والحركة الثقافية فى عصر محمد على ، ط دار الفكر العربى ، القاهرة ، ١٩٥١ م ص ٢٢٢ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٢٢٣ .

تستخدم فى بعض إدارات الحكومة ودواوينها، وفى بعض الجرائد أول الأمر.
وقد بدأت مكانة اللغة التركية والفارسية تنحسر تدريجياً مع نهايات النصف الأخير من القرن الماضى . وإذا كان للتركية بعض التأثيرات على الحياة المصرية فى فجر النهضة الحديثة ، فلم يكن ذلك فى مجال اللغة والأدب على الإطلاق . إنه لا يصح إلا الصحيح ، لذلك بدأت لغة دواوين الحكومة والجرائد والترجمة فى عصر إسماعيل تتعرب كلية . ولا نريد أن نشير — خشية الإطالة — إلى تأثير نشر التراث العربى القديم فى إثراء اللغة العربية الفصحى ، سواء عن طريق مطبعة بولاق الأميرية بمصر (أنشئت سنة ١٨٢١) أو المطابع الكثيرة التى أنشئت فى لبنان (ابتداء من سنة ١٨٣٤) ، أو عن طريق مطبعة « الجوائب » بالقسطنطينية التى كانت ترسل كثيراً من مطبوعاتها العربية القديمة والحديثة إلى الأقاليم العربية المختلفة .

وما نريد أن نصل إليه من كل هذا هو أن الطهطاوى كان يكتب شعره ونثره وترجمته باللغة العربية الفصيحة — رغم ما كانت تعانيه اللغة من فقر وبوار ، وما كانت تمر به من أزمات ومزاحمات ؛ من هنا نعد الطهطاوى أيضاً (رائداً) من رواد التجديد بالنسبة لتاريخ اللغة العربية فى العصر الحديث.
إن « اللغة » قبل الطهطاوى — فى مجال الشعر والنثر — لم تكن وسيلة تعامل حية أو أداة ثقافة راقية . لقد منح الطهطاوى اللغة — عن طريق التأليف والترجمة — قدرات هائلة على التعبير والتفكير على مستوى الكتابة الأدبية والعلمية .

وإذا كنا فى مجال دراستنا للأدب — غالبا — نتجاوز دراسة التركيب اللغوى له ، لأن معظم دراساتنا عنـــه تكون فى عصور ازدهار أدبى هى بالضرورة مراحل ازدهار لغوى ، وذلك يعنى وجود علاقة مطردة بين مواكبة حالة الأدب للغة . ولكن الأمر ينبغى أن يختلف عندما ندرس أديباً — كالطهطاوى — ظهر فى مرحلة واضحة الضعف والتأخر بالنسبة للغة ، حيث كانت عاجزة عن أن تكون لغة تخاطب وأداة أدب ووسيلة علم ،

بله أن تكون لغة حضارة راقية . لذلك لابد أن نشير إلى ذلك (الدور المؤثر) والخطير الذى قام به الطهطاوى وكثير من معاصريه من أجل تطويع اللغة العربية ، لتكون قادرة على أن تصبح أداة راقية للأدب والفكر . ولاشك أن دراسة علمية لتطوير طرائق التعبير فى اللغة العربية منذ بداية العصر الحديث يمكن أن تقدم لنا صورة صادقة لتطور الأدب والفكر خلال مرحلة هامة ومبكرة من مراحل نهضتنا الحديثة .

الفصل الرابع

المحاور الأدبية لشعر الطهطاوى

عند التصدى لدراسة تجربة أدبية لشاعر ما ، ينطلق منهجنا النقدى فى التعامل معها على أساس أنها بنية مركبة حية متسقة على مستوى الموقف و الأداة ، إذ لا مضمون للنص الأدبى بدون شكل فنى يصوغه ، و يحدد إطاره التعبيرى و فلسفته الأدبية ، ذلك أن « التفريق بين الشكل كعامل فعال من الناحية الجمالية و مضمون غير فعال من الناحية الجمالية يلاقى صعوبات لا يمكن تجاوزها »(١) .

و مع إيماننا المطلق بوحدة العمل الأدبى ، و اعتباره بنية مركبة متحدة الأعضاء متناغمة الإيحاء والدلالة ، إلا أننا سنفرق — من أجل السعى نحو دقة التحليل — فى دراستنا بين الحديث عن المحاور الأدبية التى وظف فيها الطهطاوى شعره ، و بين الأدوات الجمالية التى استعان بها للتعبير عن تجربته الأدبية . و سوف نرى فى النهاية أن المبحثين — رغم ذلك — سيصلان بنا إلى نتيجة (متكاملة) و متسقة فى دلالتها على السمات الفنية المشتركة لشعر الطهطاوى (٢) .

---

(١) أوستن وارين ، رينيه ويلك : نظرية الأدب ، ترجمة محى الدين صبحى ، مراجعة حسام الخطيب ، ط المجلس الأعلى للفنون و الآداب ، دمشق ، ١٩٧٢ ، ص ١٨٠ .

(٢) كتب رفاعة الطهطاوى التى وجدنا فيها شعره هى :

- تخليص الأبريز فى تلخيص باريز .
- مناهج الألباب المصرية فى مباهج الآداب العصرية .
- المرشد الأمين فى تربية البنات و البنين .
- ديوان قلائد المفاخر فى غريب عوائد الأوائل و الأواخر .
- أنوار توفيق الجليل فى أخبار مصر و توثيق بنى إسماعيل .
- نهاية الإيجاز فى سيرة ساكن الحجاز .
- تعريب الأمثال فى تأديب الأطفال .
- منظومة وطنية مصرية .
- مقدمة رواية « مواقع الأفلاك فى وقائع تليماك » .
- نظم العقود فى كسر العود . (مترجمة) .

وقد سبق أن أشرنا إلى أن الطهطاوى رغم معرفته بالثقافة والحضارة الفرنسية ووجود بعض سماتها فى تراثه الفكرى ، إلا أنه بالنسبة للأدب ، كان يرى أن « الشعر » إحدى الميزات التى « اختص بها العرب بين الأنام » (١) وأنه هو الذى مدّن العرب فى الجاهلية « تمدنا خاصاً بهم » بحيث صاروا مستعدين « للتمدن الحقيقى الذى جاء به الإسلام » (٢) .

وانطلاقاً من هذه النظرة المقدسة لتراث الأمة الأدبى ، سيكون المحور الأول والعريض عند الطهطاوى ... هو :

شعر المدح :

يشكل شعر المدح ناحية هامة ومحوراً ذا شأن خطير وكبير فى تراث الشعر العربى كله ، والأمر كذلك بالنسبة لشعر الطهطاوى أيضاً . وقد أحصينا له فى مجال المدح والتهنئة والفخر بمصر عشرين نصاً ، منها قصيدتان فى مدح محمد على (تخليص الإبريز ص ٢٠٣ — بداية القدماء ص ٤) ، واثنتان فى مدح الخديو عباس (فى ختام الطبعة الثانية من تخليص الإبريز سنة ١٨٤٩ ، ص ٢٣٣) ، ومدحتان فى الخديو سعيد (مقدمة تلماك ص ١٩ ، وطنية شوقى ص ٣٩) ، وثلاث قصائد فى مدح الخديو إسماعيل . وبقية النصوص أقرب إلى المقطوعات الصغيرة ، وهى فى كتيب بعنوان « الكواكب النيرة » وربما كانت أضعف شعره فى هذا المجال (٣) .

- قصيدة وطنية إسماعيلية (مترجمة) .
- الكواكب النيرة فى أفراح العزيزة المقمرة .
- مختارات من كتب رفاعة الطهطاوى (جمع مهدى علام وأحمد بدوى وغيرهما) .
- مجلة روضة المدارس .
- جمال الأجرومية فى النحو (منظومة تعليمية) .

(١) نهاية الإيجاز ، ص ٢٢١ .

(٢) أنوار توفيق الجليل ، ص ٥٠٢ .

(٣) راجع القصائد فى الفصل الخامس من الكتاب الثانى .

ولا تتجاوز الأفكار والمحامد التى يخلعها الطهطاوى على الممدوح فى معظم هذه القصائد المألوف من معانى المدح (التقليدية) المنتشرة فى الشعر القديم — إن لم تكن ظلا باهتاً لها . من ذلك قوله فى مدح الخديو عباس مهنئاً له — فى بداية حكمه — بالعودة من الآستانة :

وسما بك الدين الحنيف جلالة	فالدين إذ ترعاه دين قيمُ
لك همة هام الكواكب دونها	لك عزْمةٌ هى غارب لا منسم
إن أضمرت ود العزيز نفوسنا	سر الضمير يكاد يظهره الفم
وإن اشتكت مصر نواه برهة	وغدت لبشرى عوده تتبسم
فمع السيادة والسعادة سائر	ومع الكرامة بالسلامة يقدم
هو خاطب العلياء وهى تسومه	هو طالب الجوزاء وهى السلم
شهم جلا فى قاب مضمار العلا	سهم السباق فحاز ما لا يسهم
لا ينكر الركن اليمانى يمنه	ونداه يعرفه العذيب وزمزم
شدت بيت مجدك بالهناء موثلا	هذا بناء مثل عدلك محكم
إن شدتُ فيك قصائدى أنشدتها	درراً لغيرك لا تكاد تنظم
إن صادفت منك القبول فسعدها	فى ظل أفنان القبول مخيم
دمْ فى جليل الملك واحكم واحتكم	لازلت تسمو فى الفخار وتعظم

فالصفات التى يذكرها الطهطاوى هنا بالنسبة للحاكم لا تبعد عما كان يقال فى شعر القدماء من حيث وصفه بالمحافظة على الدين ونشر العدل بين الرعية ، وأن ذاته تجمع بين القوة والكرم ، وأنه يعلو على العلا ، وأن الرعية تحس عند وجوده بالسيادة ولدى عودته بالسعادة والفرحة . ويختم أبياته

---

(١) راجع القصيدة كاملة فى : تخليص الأبريز ، ط بولاق ، الثانية ، ١٨٤٩ ، ص ٢٣٤
ويبدو أن الطهطاوى قد ألحق قصيدتين فى خاتمة الكتاب — فيما نرى — درءاً لخوف متوجس ، ودفعاً لخطر منتظر ، كان الطهطاوى يستشعرهما منذ بداية تولى عباس ، الذى سوف ينفيه إلى السودان (سنة ١٨٥٠ بعد عام من توليه الحكم) . أى أن رفاعة أراد أن يبدأ بالإشادة حتى لا تأتى الإساءة ، وأن يقدم حسن النية قبل الاتهام ، ولكن يبدو أنه لا يغنى حذر من قدر .

داعياً له بطول العمر ودوام الملك ، وأنه لولاه ما أنشد شعراً . وهذه المعانى كلها ليست إلا ظلالا باهتة لبعض ما هو مطروق فى قصيدة المدح على اختلاف عصورها .. ولا سيما فى العصور الوسطى ، وإنْ كان هذا لا ينفى أنه مدح أحياناً بإحياء العلوم وإنشاء مدارس للبنين أو البنات ، أو تأسيس مجلس للشورى .

مدح الرسول وأهل بيته :

انتشر الشعر الدينى — وما يتصل به من مضامين صوفية وعقائدية — ومديح للرسول وأهل بيته بشكل لافت للنظر فى عصور الضعف الطويلة والمرهقة التى مرت بالأمة العربية خلال العصور الوسطى حتى بداية العصر الحديث . وكان الشعراء — فى الغالب — يتخذون من ذلك الشعر الدينى ، وسيلة يتقربون بها إلى الله أو يتشفعون بالرسول وأهل بيته ، أملا فى تفريج الكروب ودرء المحن .

والطهطاوى له فى هذا المجال قصيدتان الأولى فى مدح أهل البيت ، قالها فى معرض حديثه عن السيرة النبوية فى كتاب « نهاية الإيجاز » (١٨٧٣ — ص ٤) .

والثانيـــة الأطول والأعمق فنياً ، يعارض فيهـــا الشاعر الصوفى عبد الرحيم البرعى ، ويقدم تخميساً لقصيدة له مطلعها(١) :

خَلِّ الغرامَ لصبٍّ دمعهُ دمه	حيرانُ توجده الذكرى وتعدمه
فاقنعْ له بعلاقاتٍ علقن بـــه	لو اطلعتَ عليه كنت ترحمه
عذلته حين لم تنظـــر بناظره	ولا علمتَ الذى فى الحب يعلمه

---

(١) راجع القصيدة كاملة فى : ديوان البرعى ، مطبعة العلوم الأدبية ، القاهرة ، سنة ١٣٤٣ هـ ، ص ٢١ .

وعبد الرحيم بن أحمد البرعى اليمنى ، شاعر صوفى من رجال القرن الخامس الهجرى =

وقد كتب الطهطاوى قصيدته هذه، وهو بالخرطوم (١٨٥٠–١٨٥٤)، ونشرها فى «مناهج الألباب» (ص ٢٦٩). وهى تبدأ بالغزل الصوفى حباً فى الرسول وأملا فى أن يشفع له عند الله ليكشف عنه ما هو فيه من غربة وعذاب. والقصيدة تعكس — من زاوية ما — وعيه بتقاليد الموضوع الشعرى الذى «يخمّسه»، وإن خرج موسيقياً على شكل القصيدة التقليدى المستوحى إلى إطار (المخمسة) الذى سيوظفه الطهطاوى كثيراً فى شعره المؤلف والمترجم. وهذا القالب «الخماسى» لشكل القصيدة قد ظهر قبل عصر الطهطاوى، وعلى هذا فهو امتداد وتقليد لقالب سبق أن وظفه الشعراء من قبل.

الشعر التعليمى :

هذا اللون من (النظم) لا يدخل فى مجال الأدب البتة، ونحن نذكره دلالة على قوة علاقة الطهطاوى بالتراث، وتقليده لكل ما وجد له نظيراً فى عصره. وله بالإضافة إلى «أرجوزة التوحيد» التى لم تطبع، منظومة «جمال الأجرومية» فى النحو (١٨٦٣)، وله منظومة أخرى فى تأديب الأطفال، وردت فى كتاب «تعريب الأمثال فى تأديب الأطفال»، وفى «مناهج الألباب» (ص ٧٦).

شعر الوصف :

الوصف موضوع قديم فى الشعر العربى، ولكن الجديد فيه عند رفاعة أنه يصور بعض معالم الحضارة الجديدة التى أوجدها الخديو إسماعيل، وله فى هذا المجال قصيدة يصف فيها «الوابور» أو المركب البخارى الذى بدأ يسير فى قناة السويس بعد فتحها للملاحة .. وهى تبدأ بقوله :

= وديوانه المذكور يبدأ بالقصائد الربانية ثم النبويات ثم الصوفيات ثم الوعظيات. وله ديوان آخر باسم «مولد النبى». وقد طبعا فى القاهرة طبعات كثيرة بسبب غلبة الحس الدينى عليهما. ولعل هذا ما جعل ناشر ديوانه يكتب على غلافه «تنبيه : ينبغى أن يعنى القارىء باستقصاء هذا الديوان قراءة، فإنا نعتقد أن قراءته من أسباب حب الله تعالى والتقرب إليه».

العقـــل فى الوابور حـــار   نبغى الجواب فلا يحـــير
فإذا أردت الاختيـــــار   علما به فاسأل خبير (١)

كما نجده يصف « ليالى العرس » فى بعض قصائد التهنئة بالأفراح .

الشعر الذاتى :

الشعر العربى القديم شعر غنائى « Lyrical » فى جملته ، رغم تنوع موضوعاته واختلاف مضامينه ، وهناك قصائد تلتحم بمبدعها التحاماً حميما لتعبر عن هموم الشاعر وخواطره الخاصة ، وقد غاب صوت الشاعر عن ذاته — بصفة عامة — فى عصور الضعف والتخلف التى أدت إلى اغتراب الشاعر عما يبدع خلال العصور الوسطى . ومع فجر النهضة العربية الحديثة نجد الطهطاوى يبدأ فى إحياء هذه السمة فى الشعر الحديث . وله فى هذا المجال نصّ تحدث فيه عن حالته النفسية الحزينة أثناء النفى فى السودان (٢) . والقصيدة تزيد على ثمانين بيتاً ، وتعد أكثر شعر رفاعة تعبيراً عن ذاته ، وهى من حيث القيمة الفنية تعد (مثالا جيداً) لنضج القصيدة عنده ، وله أيضاً قصيدة أخرى يفتخر فيها بجده أبى القاسم الطهطاوى (٣) .

الشعر الوطنى :

لم تظهر بوضوح الحساسية المفرطة لانتماء العربى لإقليمه الوطنى إلا مع بداية النهضة الحديثة ، التى ساعدت على ظهور المشاعر الخاصة إزاءه ؛ ذلك أن النهضة قد اعتمدت فى كل قطر عربى على جوهر ما يتصل بتراث العروبة . بيد أن اليقظة كانت تقوم فى كل وطن فى مرحلة متفاوتة —نسبياً— عن غيره ، مما حدا بالبعض إلى أن يدعم نضاله الاجتماعى والسياسى ، الذى يعتمد — فى الغالب —على جهد فردى من أبناء شعبه ، وعلى إثارة مشاعر الوحدة الوطنية والانتماء المتميز :

---

(١) راجع القصيدة كاملة فى : مناهج الألباب ، ص ١٢٦ .
(٢) مناهج الألباب ، ص ٢٦٥ .
(٣) راجع النص ، ص ٧٥ .

والطهطاوى يعد (أول) معبر عن هذا الإحساس « الوطنى » فى الشعر العربى الحديث . وقد حدا به إلى ذلك أمران :

الأول : أنه فتح عينيه على الدنيا مع الاكتشافات العظيمة لآثار الفراعنة وحضارتهم ، خاصة بعد اكتشاف حجر رشيد وفك شامبليون لأسرار اللغة الهيروغليفية . ولا شك أن وعى الطهطاوى بمصر القديمة : حضارياً وتاريخياً ، كان وراء إحساسه المتعالى بوطنه ، وهو عن هذا كثيراً فى شعره .

الثـانى : فترات الغربة المتكررة للطهطاوى التى تبلغ حوالى عشر سنوات فى باريس (١٨٢٦ – ١٨٣١) والسودان (١٨٥٠ – ١٨٥٤) . ولا شك أن سنوات الغربة هذه كانت مثيراً متجدداً لمشاعره الوطنية ، مما ألهمه ذلك الغناء الوطنى الذى ورد فى شعره كثيراً .

وهذا الشعر الوطنى الذى يعد رفاعة (رائداً) حقيقياً له ، نجده — بصفة عامة — مقطوعات أقرب إلى طبيعة « النشيد » الحماسى الذى يلهب المشاعر ويعبىء الهمم ،ويربى النشء . ويمكن أن نتلمسه فى « تخليص الأبريز » (ص ٢٠) ، و« المرشد الأمين » (ص ٩٢) ، وفى مقدمة ترجمة « وقائع تليماك » (ص ٧–١٥) ، وفى أكثر من كتيب بعنوان « منظومة وطنية مصرية » ، وفى كتاب « مختارات من كتب رفاعة الطهطاوى »،وفى أعداد من مجلة « روضة المدارس » .

ومضامين هذه المقطوعات والأناشيد يدور حول التغنى بحضارة مصر العريقةوطبيعتها الجميلة ، وضرورة السعى من أجل النهوض بها . ومما يلفت النظر أيضاً فى هذا الشعر هو تغنيه كثيراً بجيش مصر ووصف قدرته الفائقة على تحقيق النصر .. مثل قوله :

يا جند مصر لكم فخـــار ... بين الورى عـــالى المنــار
كالشمس فى وسط النهـار ... صيت لكم فى الجو ســـار
حـــادى السعود به حـــدا ... والطـــير صـــاح وغـــرّدا

. . .

الله أيــــد نصــــــركم والذكــــر شرف مصركم
والعـــدل أذهب إصركم والفضل حالف عصركم
والوقت طـــاب وأسعدا والعز عـــاد كما ابتدا(١)

وعلى هذا يبدو صوت رفاعة فى مجمل شعره الوطنى نشيداً حماسياً يتدفق حباً للوطن وانتماء نبيلا له ودعوة إلى نهضته وتقدمه .

الشعر المترجم :

أثارت ترجمة الشعر قضية نقدية لها تاريخها الطويل ، بيد أن القضية قد وصلت إلى نتيجة محسومة ومقدرة لدى كثير من النقاد ، وهى صعوبة — إن لم يكن استحالة — ترجمة الشعر ، ذلك أن الأدب بوجه عام — والشعر على نحو خاص — يشكل تجربة إنسانية ، تؤدى بلغة تصويرية لها تفردها الدقيق وتميزها الرهيف ، على مستوى الإيقاع والدلالة .

إن اللفظة الشعرية — فى لغة من اللغات — بما تثيره من نغمة ودلالة ، تمثل خبرة أصحابها الحضارية فى مجملها . وعلى هذا فالكلمة فى لغة ما ، ذات تراث عريق ومركب ، لذلك يستحيل نقلها إلى لغة أخرى بحيث تستطيع أن تفى بكل ماكانت قادرة على الوفاء به فى اللغة الأولى . والطهطاوى نفسه — كما سبقت الإشارة إلى ذلك — قد فطن إلى أن لكل لغة بلاغتها الخاصة ، التى تقوم على « ما يقبله الطبع » عند أهل تلك اللغة .

وعلى هذا فنحن إذ نتصدى للشعر المترجم ينبغى أن ندرك أننا وجهاً لوجه أمام الشاعر المترجم ، وليس الشاعر المترجم له ، أى أن النص الأصلى يبقى مجرد مثير ومحرك لفكر الشاعر الأدبى . وحين ينقل الشاعر قصيدة ما إلى لغته — مهما كانت معرفته بلغة الشعر المنقول عنها — فإنه يقدم بالدرجة الأولى خبرته الجمالية الخاصة ، ولا يأخذ من النص المترجم — فى الغالب — إلا ظلالا باهتة .

---

(١) راجع القصيدة كاملة فى : مختارات من كتب رفاعة الطهطاوى ، ص ٢١٤ .

من هذا المنطلق النقدى سندرس الشعر المترجم عند الطهطاوى ، الذى نقل إلى العربية قصيدة طويلة للشاعر الإيطالى «بلجرينى» على لسان «أفو سكانى» يمدح فيها الخديوى اسماعيل ، وليس هناك أى مصدر يدلنا على معرفته بالإيطالية ، لذلك نظن أنه عرف القصيدة عن واحد من سبيلين : فإما أنها ترجمت إلى الفرنسية ، أو ترجمت إلى العربية عن طريق أحد المترجمين ، ثم صاغها رفاعة بعد ذلك شعراً . والرأى الأخير هو ما نرجحه ، والقصيدة تبدأ بهذه الأبيات(١) :

يا مصر أنت أرض كل معجزة — كم فيك من آثار فخر منجزه
قد عدت كالعصر القديم منتزه — لله إسماعيـل فيما أبـرزه
فى حـيز الوجود فـوق الحد — يدوم فخـره كما الأهـرام
ولم يـزل يقـرن بالتحـدى — بدايعـا صحيحة المـرام

وتقفل هذه الأبيات الأربعة — التى يمكن أن تشكل « مقطعاً » له قوافيه الداخلية والخارجية التى تتكرر فى كل بيتين — بيت خامس يتكرر دائماً فى كل القصيدة هو :

يعيش إسماعيل رب المجـد — على مدى الأجيـال والأعوام

وقد دفع الطهطاوى إلى ترجمة تلك القصيدة ما سبق أن حدا به إلى ترجمة قصيدة « نظم العقود فى كسر العود » **La lyre brisée** — التى ألفها الخواجة يعقوب المصرى بالفرنسية (١٨٢٧) فى مدح محمد على(٢) —

---

(١) راجع النص كاملا فى كتيب يقع فى ثمانى صفحات كبيرة مزركشة بعنوان : « قصيدة وطنية اسماعيلية » نظم جناب الكونته بلجرينى الإيطاليانى على لسان بتروافوسكانى ، ترجمة رفاعة بك ناظر قلم الترجمة وأعضاء قومسيون بديوان المدارس ، طبع « بمصر المحمية » بالمطبعة الكاستيلية فى ١٨ يناير ١٨٦٥ — الموافق ٢٠ شعبان ١٢٨١ بمناسبة تولى أفندينا صاحب السعادة الحكومة المصرية » .

(٢) راجع القصيدة فى :

— تخليص الأبريز ، ص ٢٢٤ .
— مختارات من كتب رفاعة ، ص ٢١٧ .
— مجلة « الكاتب » القاهرية ، عدد مارس ١٩٧٧ .

وهو نقل ما مدح به الحاكم إلى اللغة العربية . ورغم الترجمة فإن القصيدة باستثناء المقدمة الغزلية — من حيث الفكر والتشكيل — لا تبعد كثيراً عما قاله رفاعه فى قصائد المدح التى سبقت الإشارة إليها .

وإذا كان الطهطاوى قد ترجم هذه القصائد إرضاءاً للحاكم وتقرباً إليه ، باعتباره — إلى حد ما — شاعراً يشغل منصباً فى الدولة ، ويريد — واعياً أو غير واع — أن يحافظ عليه ، فإن هناك قصائد أخرى تأخذ الخط المقابل تماماً ، وتحمل مضامين (ثورية) تهدف إلى إثارة المشاعر النضالية والتغنى بالحرية ، مثل « القصيدة الباريسية »(١) التى قيلت أثناء الثورة الفرنسية ضد شارل العاشر ، وترجمها أثناء البعثة (١٨٢٦ — ١٨٣١) ، ولعل فى مضمونها النضالى الثورى ما برر للطهطاوى ترجمتها وترجمة نشيد الثورة الفرنسية « المارسليز » La Marseillaise(٢) للشاعر « روجيه دى لوازل » « Rouget de l'Isle » . ومن أجل إثبات صدق القضية النقدية التى أثرناها من قبل عن استحالة أو صعوبة ترجمة الشعر ، سوف نقدم ترجمة — شبه حرفية تقريباً — للجزء الأول من القصيدة .. لنرى مدى خروج الطهطاوى عليه وتصرفه فيه(٣) :

« هبوا يا أبناء الوطن
فقد جاء يوم المجد
وأمامنا رفع العلم الدموى ضد الطغيان
هل تسمعون فى المعارك
زئير الجنود الضوارى
إنهم يقدمون ويصلون بين أذرعتكم

---

(١) راجع القصيدة المترجمة كاملة فى : مختارات من كتب رفاعة ، ص ٢٢٣ .
(٢) المرجع السابق ، ص ٢١٩ .
(٣) راجع ترجمة النص كاملا فى الفصل السادس من الكتاب الثانى .

فيقتلون أولادكم وأصحابكم
فإلى السلاح هبوا أيها المواطنون
كوّنوا فرقكم
وهيا بنا نمشي حتى تسقى الدماء القذرة
باطن أرضنا
ماذا تريد هذه الجماعة من العبيـــــد
هؤلاء الخونة ، هؤلاء الملوك المستذلون
ولمن هذه الموانـــع الوضيعة
وهذه القيود التي يجهزونها منذ زمن
أيها الفرنسيون ، إنه لعار لنا
هل يفكرون أن يعيدونا إلى عهد الرق السالف
فإلى السلاح هبوا أيها المواطنون » .

وقد ترجم الطهطاوى — هذا الجزء — شعراً ، وتصرف فيه على النحو التالي :

فهيـــا يا بنى الأوطـــان هيا ... فوقت فخاركم لكم تهيـــــا
أقيموا الرايـــة العظمى سويا ... وشنوا غــارة الهيجا مليــا
عليكم بالسلاح أيا أهــــالى ... ونظم صفوفكم مثـــل اللآلى
وخوضوا فى دماء أولى الوبال ... فهم أعداؤكم فى كل حــــال
وجورهم غـــدا فيكم جليـــا ... بنا خوضوا دماء أولى الوبال
أما تصغون أصوات العساكر ... كوحش قاطـــع البيداء كاسر
وخبث طوية الفـــرق الفواجر ... ذبيح بينكم بظبـــا البـــواتر

ولا يبقون فيكم [ثم] حيـا

عليكم السلاح أيا أهــــالى ... .
فماذا تبتـــغى منـــا الجنـــود ... وهم همج وأخـــلاط عبيـــد
كذا أهل الخيـــانة والوغـــود ... كذاك ملوك بغى لن يسودوا

تعصبهم لنا لم يجـــد شيـــا

عليكم بالســلاح أيا أهــالى .. ..

لمن جعلوا السلاسل والقيــودا وأغــلالا وأطــواقاً حــديدا

لأهل فرانسة ليبروا عبيــدا وليس مرامهم هــذا جديدا

أما هــذا عجيب يا أخيــا

عليكم بالســلاح أيا أهــالى .. ..

وإذا كانت هذه القصيدة — بحكم مضمونها النضالى الثائر — أقرب إلى المباشرة فى التعبير والتصوير ، مما يجعل ترجمتها — شعراً ونثراً — أمراً مقدوراً عليه إلى حد ما ، فإن الطهطاوى رغم ذلك — قادراً أم غير قادر — قد صعب عليه نقل معانى القصيدة وصورها ، ومن يحاول أن يقارن بين المقطعين السابقين — على سبيل المثال — سوف يجد أن الشاعر قد بعد إلى حد ما عن مضمون النص الأصلى ، وحوّر فيه ، وغيّر بشكل واضح .

وهذا ما يجعلنا نختم حديثنا بما بدأناه ، وهو صعوبة ترجمة الشعر — بصفة خاصة — إلى لغة أخرى ، وبالتالى فإننا حين نواجه عند الدراسة شعراً منقولا عن لغة أخرى ، فيجب أن ندرسه — فى المقام الأول — على أنه (زاوية) نقوّم بها تراث المترجم وليس المترجم له ، وبناء عليه فإن ما ترجمه الطهطاوى من شعر ، لا يتجاوز — فنياً — الإطار العام لمجمل تجربته الشعرية .

* * *

هذه هى المحاور الأدبية لديوان الطهطاوى . . ومنها يتضح أنه كتب فى بعض موضوعات لأول مرّة ، مثل : الشعر الوطنى ، وترجمة الشعر شعراً ووصف بعض مظاهر النهضة الحديثة .. وهذه الموضوعات لم يكتب فيها شاعر قبل رفاعة فى العصر الحديث ، ويجب أن تحسب على أنها إضافات جديدة لم يسبق إليها ، بل إنه لوى عنق قصيدة المدح أحياناً ليصور من خلالها حنينه إلى مصر أو اعتزازه وفخره بها ، أو التغنى بالجيش المصرى ، أو افتتاح مجلس شورى النواب ، أو إنشاء المدارس وإحياء العلوم . كما أنه كتب بعض قصائد يعبّر بها عن بعض مشاعر ذاتية خاصة فى مجال الشكوى من سوء حاله فى السودان ، أو الفخر بجده أبى القاسم الطهطاوى .

وعلى هذا يمكن أن نعدّ رفاعة فى طليعة الشعراء الذين حاولوا أن يجددوا فى نسيج الإهاب الشعرى ، ويكتبوا فى موضوعات لم يسبقوا إليها ، كما حاول إحياء بعض الموضوعات الشعرية القديمة – مثل الشعر الذاتى – وسعى أيضاً إلى ربط مضامين شعره بحركة الواقع وخاصية المبدع . وهذه كلها أمورٌ أقل ما يمكن أن توصف به هو أنها محاولة جادة للتجديد ، ورغبة جاهدة من أجل التطوير فى مرحلة كانت سماتها العامة تجنح نحو التقليد والمحافظة .

الفصل الخامس

أدوات التشكيل الفنى فى شعر الطهطاوى

يتوسل الفن – أيا ما كان نوعه – بالأداة ليعكس كل ما يريد الفنان أن يعبر عنه . ومن هنا فإن الدرس الحقيقى للأدب ينطلق من هذه الزاوية ، زاوية الأداة التى نستطيع من خلال تفسيرها أن نتبين الإطار الإنسانى لتجربة الأديب ، وموقفه الأدبى ، والمدرسة الفنية التى ينتمى إليها . أى أن تشكيل الأديب لمضمون تجربته ، وكيفية استخدامه للصورة وتركيبه للغة تكون عوامل حاسمة فى تفسير تراثه الأدبى وتقويمه .

وقد سبقت الإشارة إلى أن البنية العامة لقصيدة الطهطاوى تعكس ظلا شاحباً لما عرف بتقاليد عمود الشعر العربى ، وأنه قد حرص مضطراً على متابعة الشاعر القديم فيما وظف فيه شعره ، مدحاً لحاكم يقدر وحده على المنح والمنع . كذلك لم يستطع الطهطاوى أن يخرج كثيراً على النسق الفنى الذى صاغ فيه الشاعر القديم قصيدته . وإذا كان أول نموذج ناضج للقصيدة عنده لا يخرج عن هذه التقاليد ، فإن القصيدة التى تمثل أقصى معيار للنضج الفنى له قد ظلت عاكفة حول هذه التقاليد ، وهى التى كتبها فى السودان (١٨٥٠ – ١٨٥٤) يشكو آلام الغربة ، حيث تتعدد المحاور الفكرية التى عبر عنها ، سواء أكانت تتصل بشكواه وآلامه أو فخره بإنجازاته العلمية والإصلاحية ، أم بالحديث إلى عزيز مصر يمدحه ويرجو منه ألا يسمع كلام الوشاة والحاسدين ، وأن يعيده إلى بلاده وأولاده بعد أن ضاقت به الحياة . ويبين فى النهاية أنه قد فوض أمره إلى الله ، ولا يطالب جزاء لشعره سوى العودة إلى بلاده(١) :

---

(١) راجع القصيدة كاملة فى : مناهج الألباب المصرية ، ص ٣٦٥ .

وقد فوّضتُ للمولى أموري ... وذا عينُ الإصابة والسداد
عسى المولى يقول امضُوا بعبدى ... فيقضى لى بتقريب ابتعادى
وما نظم القريض برأس مالى ... ولا سندى أراه ولا سنادى
ووافر بحره إن جاد يوما ... فممدوحى له وصفُ الجواد
وليس لبكر فكرى من صَداق ... سوى تلطيف عَوْدى فى بلادى

ولا نريد أن نقول إن هذه المحاور المختلفة — التى تشكل النسق الفنى لقصيدة الطهطاوى — لا يوجد ما يوحد بينها سوى الوزن والقافية ، لأنها فى النهاية تعبر عن (وحدة تخيلية) تصورها الشاعر على نحو ما ، وعلى الدارس أن يحاول البحث عن عناصرها الجامعة .

وإذا كنا قد أوضحنا حتى الآن مدى فهم الطهطاوى لوظيفة الشعر وطريقة بناء القصيدة فنياً ، فإن هذا وحده ليس كافياً لتكتمل دراستنا للسمات الخاصة لشعره ، والتعرف على الفلسفة العامة لفنه . وقد بقى شىء أساسى وهو أن نحلل طريقة تركيب الصورة وبناء الجملة .

أما بالنسبة للصورة الفنية الجزئية — التى يستعين بها الطهطاوى فى مجمل تجربته — فسوف نجد أنه يتتبع طريقة الشاعر الكلاسيكى الذى يتأمل المدركات الحسية ، ويجمع بينها وبين معانيه لاعجاً أو متخيلا آصرة توحد بين العنصرين . وإذا كان الشاعر القديم يشكل صوره من تأثير الواقع ومحاولة النسج على منواله ، ولمح ما يوحد بين عناصره الإنسانية والطبيعية ، فلا نستطيع أن نخطىء فهمه ، كما فعل البلاغيون القدماء الذين حصروا الصورة فى أنواع محدودة من المجاز والبيان ، وحددوا لكل عنصر بلاغى وجه شبه واهياً يجمع بين عناصر الصورة . لقد كانت مخيلة الشاعر القديم خصبة ومتدفقة ، وإنما الذى حدث بعد أن استقرت قواعد البلاغة هو أنها قد أساءت إلى الشعر كفن وإلى البلاغة كعلم .

وعلى هذا فإن شاعراً (تقليدياً) مثل الطهطاوى — يستلهم « المحفوظ »

والمتواتر فى الشعر السابق عليه بأكثر مما يستوحى الواقع الذى يدركه – سوف نجد أن صوره « تبعد عن الحقيقة المتخيلة بدرجتين » – كما يقول أفلاطون – ولذلك كله لن تبعد الصورة عنده عن (الأنماط) التقليدية المألوفة مثل الاستعارة والتشبيه والكناية ، التى تتشكل أساساً من لمح علاقة واحدة تجمع بين أجزاء الصورة المتخيلة ، من هنا تصبح الصورة عنده أقرب إلى السذاجة فى التعبير والبساطة فى التركيب ، وتقوم على تشكيل آلى يبدو أقرب إلى العفوية أو التقريرية التى تعبر عن عالم محدد النسق ، شاحب العطاء ... من هنا تكثر فى شعره أمثال تلك الصورة المألوفة فى التراث – بأكثر من دلالتها على مخيلة مبتكرة – مثل قوله فى وصف المرأة :

تميس كغصن البان عطفا وتنثنى ... وتفتر عن برق تألق بالضحك(١)
شبهوها عند التلفت بالظـــبـ ... ى وهيهات ما هما بالسوية(٢)
أمسى وأصبح بين شعر حالك ... ومنير وجه هكذا الملــوان(٣)

أو قوله فى المدح :

برُّ الندى كالنيل وهو زاخر ... يجود فيضه بإسعاد الوطن(٤)

وإذا كان التشبيه البسيط المفرد يكاد يعد أهم نوع بلاغى يوظفه ، فإنه يميل أحياناً إلى قلب الصورة معه ، بحيث يقيم المشبه مقام المشبه به ، لا لشىء إلا ليثبت قدرة على مجاراة شىء طريف ، وجد بعض القدماء يفعله ، مثل قوله :

ما السحب إلا دموعُ العــين باكيةُ ... ولا لظى غير أحشائى محاكية(٥)
وفى الجو تقليد النجــوم منــيرة ... صوار يخ أنوار لشهب السما تحكى(٦)

---

(١) الكواكب النيرة ، ص ٢٢ .
(٢) الكواكب النيرة ، ص ٦ .
(٣) تخليص الأبريز ، ص ٢٠٣ .
(٤) الكواكب النيرة ، ص ١٩ .
(٥) مناهج الألباب ، ص ٢٦٩ .
(٦) الكواكب النيرة ، ص ١٩ .

ولا تكاد تخلو العبارة الشعرية عند الطهطاوى – سواء اعتمدت على صورة أم لا – من (التلاعب اللفظى) الذى يقوم على بعض زخارف « البديع » تورية وطباقاً وجناساً ، وهى التى شاعت إلى حد الإملال فى كتابات العصور الوسطى واستمرت حتى فجر النهضة الحديثة .. مثل قوله :

بحمد مولانا **البديع** يفتتح	**بديع** نظم زانه نظم الملّح (١)
ملأ الكون بشراً **عدله واعتداله**	وأغنى البرايا **بره ونواله** (٢)
وإذا المروءة قابلته بأصله	وفت **النتيجة** طبق شكل **قياسها** (٣)
وسلالة علوية هو دوْحها	**وبيان معناها بديع جناسها** (٤)
قوم لديهم **بيان** الحب **عجمته**	**عذابه** عندهم **عذب** وظلمته (٥)

ويبدو التقليد بشكل فاقع عند الطهطاوى فى الجمل الشعرية التى « يؤرخ » بها ، وهى لعبة لفظية ابتدعها شعراء العصور الوسطى بعد عجزهم عن إضافة أى جديد جاد ، وقد ظلت شائعة حتى عصر الطهطاوى الذى لم يستطع بدوره أن يتخلص منها – كما لم يستطع أن يتخلص من بعض سمات أخرى – ومن أمثلة ذلك قوله :

لقد شاد الخديو مهرجانا	أضاء الكون من سامى مناره
له صيتٌ به الركبان سارت	لهذا أرخوه بافتخاره
	سنة ١٢٩٨ هـ (٦)

أما بالنسبة (للتركيب اللغوى) فى شعر الطهطاوى : فإن أهم ما يلاحظ عليه هو أن اللفظة المفردة – سواء أكانت توحى بأنها مستمدة من المعجم

---

(١) ترجمة وقائع تليماك ، ص ١٩ .
(٢) بداية الحكماء ، ص ٤ .
(٣) تخليص الأبريز ، ص ٢٢٣ .
(٤) المرجع السابق ، ص ٢٢٣ .
(٥) مناهج الألباب ، ص ٣٦٩ .
(٦) الكواكب النيرة ، ص ٢٢ .

القديم أو قريبة من لغة التخاطب فى عصره – كانت من حيث « الدلالة » أدنى إلى المباشرة فى التعبير ، أى أن الشاعر كان يستخدم «اللغة» فى الشعر – كما تستخدم فى النثر العادى – دون أن يحمِّلها دلالات جديدة قوية ، لأن أنساق بناء الجملة وطرائق صياغة العبارة رتيبة وعادية ، من هنا يصبح السياق اللغوى أقرب إلى الدلالة المباشرة لمعنى مألوف وفكر متداول ، يصف عالماً رتيباً مستقر النسق محدود العلاقات .. إن الشاعر الذى يعجز عن أن يقدم بلاغة جديدة لشعره – بله أن يقصر عن تمثل البلاغة المطروقة قبله بشكل جيد – هو بالضرورة أعجز من أن يحمِّل لغته المشخصة أى قدرة تصويرية حقيقية .

والطهطاوى فى هذا القصور الدلالى للغة لم يكن فرداً ، وإنما هذه المثلبة قد تجاوزته – وهو الشاعر الهاوى إلى حد كبير – إلى بعض الشعراء فى عصره أمثال : اسماعيل الخشاب (ت ١٨١٥) ، على الدرويش (– ١٨٥٣) ، شهاب الدين (١٧٩٥ – ١٨٥٧) ، صالح مجدى (١٨٢٧ – ١٨٨١) ، عبد الله فكرى (١٨٣٤ – ١٨٨٩) .

وتتسق سمات الشعر عند الطهطاوى حين نربط كل ما سبق بموسيقى الشعر عنده ، ذلك أنه كان يستخدم نفس الأوزان العروضية القديمة ، لا سيما الكامل والرجز والوافر والبسيط(*) ، مع الحرص على أن يكون

(*) استعمل الطهطاوى الأوزان على النحو التالى :

١ – الكامل : تاماً – ١١ + مجزوءاً – ٥ = ١٦
٢ – الرجز : تاماً ٤ + مجزوءاً ٣ – ٧
٣ – الوافر : تاماً ٤ + مجزوءاً ٣ = ٧
٤ – البسيط : تاماً ٤ + مجزوءاً ٢ = ٦
٥ – الخفيف : تاماً ٦ – = ٦
٦ – الطويل : تاماً ٤ – = ٤
٧ – المتدارك : تاماً ٣ – = ٣
٨ – الرمل : – مرة واحدة مجزوءاً = ١

مطلع القصيدة معتمداً على « التصريع » - بين شطرى البيت الأول - كما هو مألوف فى الشعر القديم ، مثل قوله :

لا زلت تسمو فى الفخـــار وتعظمُ ... فلأنت صدر فى الوزارة أعظم(١)

ومن أجل إيجاد علاقة بين الصوت والدلالة فى الشعر ، نجده يحاول - أحياناً - الإكثار من حرف ذى إيقاع يتناغم والدلالة العامة للسياق ، مثل إكثاره من حرف (الحاء) ليقوى معنى الصبح والنور فى قوله :

أو ميض برق لاح أم مصبـــاح ... أم ضاء من وجه الصباح صباح(٢)

وتكرار حرف (الدال) يوحى بنوع من الحرص على تأكيد المعنى فى الشطر الثانى من بيت يقول فيه :

فإن تَرمْ إسعـــادا ... يا سعدُ دعْ سعادا(٣)

وفى مواضع أخرى تقوم هذه الظاهرة (الصوتية) فى البيت على تجنيس بعض الكلمات أو تكرار الكلمات ذاتهـــا - كما فى هذه الأمثلة :

بمرأىً جل إحسانـــاً وحسنا ... وكمّل حسنَه حسنُ الأمير(٤)

فنزالِ نزالِ عــــلى الأعدا ... لا ترعوْا فى الأعدا عَهْدا(٥)

ولولاالبيضُ من عربٍ لكانوا ... سواداً فى سوادٍ فى سوادِ(٦)

وكم حسناً دعوت لحسنِ حالى ... وكم نادى فؤادى يا فؤدى(٧)

كما نجد الطهطاوى أحياناً نادرة « ينحت » ألفاظاً لمجرد الدلالة على صوت

---

(١) تخليص الأبريز (طبعة ثانية) ، ص ٢٣٣ .

(٢) الكواكب النيرة ، ص ٢١ .

(٣) وقائع تليماك ، ص ١٢ .

(٤) الكواكب النيرة ، ص ١٨ .

(٥) مختارات من كتب رفاعة ، ص ٢٠٦ .

(٦) مناهج الألباب ، ص ٢٦٧ .

(٧) مناهج الألباب ، ص ٢٦٧ .

أو تصوير حركة ، دون أن تكون هذه الألفاظ ذات دلالة فكرية محددة ، وعلى ذلك فهى ألفاظ – قريبة مما سماه النحويون (اسم صوت) – تدل على المعنى بجرسه وإيقاعه فحسب ، مثل قوله :

رياضة رقص فى كمـال مُنزه
عن الريب موزون على التم والتاك(١)

وهذه الأمور التى استخدمها الشاعر لتثرى الإيقاع الموسيقى وتوحد بينه وبين دلالة السياق – رغم طرافتها – إلا أنها قديمة فى الشعر العربى منذ العصر الجاهلى ، ولكن استخدام الطهطاوى لها يؤكد حرصه على تجويد شعره ومحاولة تجديده .

كذلك فإن الطهطاوى حين وظف إطار « المخمسة » التى تتكون من بيتين وشطر خامس بقافية موحدة طوال المقطوعة ، بحيث تعد كالقفل فى الموشحة جامعة لأجزاء القصيدة وموحدة لبنيتها ، أو حين استخدم شكل «الرباعية » التى تتكون من عدة مقاطع كل مقطع منها يتألف من بيتين ، تكون ثلاثة أشطر منها بقافية مشتركة ، والشطر الأخير تشذ قافيته عنها لتتحد فى كل المقطوعة ، مثل قوله :

وطننـــا تعــززا وبالهنـــا تحــيزا
هل غــيره تمــيزا بسهـــله الممتنع(١)

أى أن تحول القصيدة إلى مقطوعة صغيرة تأخذ شكل المخمسة أو الرباعية هذه أيضاً ليست جديدة ، وإنما شاعت بقوة فى العصور الوسطى بتأثير من شيوع فنى التوشيح والزجل اللذين انتشرا خلال العصور الوسطى وماتلاها فى الشعر الأندلسى والمصرى .

وخلاصة القول : إن كل ما سبق ذكره عن سمات الأداة الشعرية عند الطهطاوى يبين أنه كان شاعراً متواضع القدرة محدود الطاقة ، حيث كان

---

(١) الكواكب النيرة ، ص ٢٢ .

يعيش فى واقع يحاول تحقيق نهضة عمرانية وفكرية وبالتالى أدبية ، بيد ان الأدب — فى عصره — لم يكن له دور اجتماعى واضح ، لذلك تخلف فى ركب النهضة عن مواكب الحركة العمرانية بل حتى الفكرية . إن أى مجال فى نشاط البشر يتوقف تطوره وخصوبته بقــدر تأثيره فى حياة واقعه ، وتصبح أكثر المجالات قوة وتجدداً فى حياة المجتمع هى التى ترتبط بشكل واضح بمجمل حركته الفعلية ، واحتياجاته الحقيقية مادية كانت أو روحية ، لذلك يتفاوت مسار التقدم فى ميادين النشاط الإنسانى فى واقع ما بحسب دورها الاجتماعى فى حركته .

وتراث رفاعة رافع الطهطاوى نفسه خير شاهد على ذلك ، فشتان بين آثاره الفكرية الخصبة المتنوعة ، وقصائده الشعرية المتواضعة . لقد صاغ الطهطاوى كثيراً من ملامح فكر النهضة ، وأسهم فى تحقيق كثير من منجزاتها العمرانية والإصلاحية ، ولكنه فى مجال الشعر — الذى كان دوره فيه أقرب إلى دور (الهاوى) — رغم الثقافة الرفيعة التى حصلها ، لم يحقق إضافات فنية قوية ، وظل تراثه الشعرى ذا قيمة فنية متواضعة ، وإن كانت له قيمة تاريخية كبرى ، لأنه يكاد يعد من أفضل شعر عصره ، وعلى هذا فإن شعره من حيث الكم والكيف لا يقصر عن إنتاج معاصريه ، إن لم يتفوق على بعضهم إلى حد ما ، لذلك يعد رفاعة فى مجال الشعر — أيضاً — (رائداً) ونقطة بدء حقيقية لنهضته .

وشعر الطهطاوى — فى معرض التقويم — يبدو متسقاً بشكل عضوى مع تراث غيره من شعراء هذه المرحلة ، مرحلة ما قبل البارودى ، هذه المرحلة التى أسهمت بشكل مطرد من أجل تطوير الشعر وتعديل مساره .. ولا شك أن شعراءها مجتمعين هم الذين مهدوا لظهور البارودى ومن بعده .

وقد استطاع شعراء الإحياء الأول — ومنهم الطهطاوى — أن يحققوا بعض الإضافات فى حركة الشعر على مستوى والمضمون والشكل . . كما أنهم حاولوا أن يعيدوا الشعر للجمهور وللحياة وللفن .. وهذا حسبهم.

القسم الثانى

ديوان رفاعة الطهطاوى

الفصل الأول

الشعر الذاتى

خواطر الغربة .. فى السودان :

وردت هذه القصيدة فى كتاب «**مناهج الألباب المصرية فى مباهج الآداب العصرية**» (ص ٢٦٥) ، ويقدم رفاعة لها بقوله :

« .. وفى سنة سبع وستين ومائتين وألف (١٢٦٧هـ — ١٨٥٠ م)، كنت قدسافرت إلى السودان بسعى الأمراء بضمير مستتر بوسيلة نظارة مدرسة الخرطوم ، فلبثت نحو الأربع سنين بلا طائل ، وتوفى نصف من بمعيتى من الخوجات المصريين ، فنظمت هذه القصيدة برسم المرحوم **حسن باشا كتخدا مصر** ، رجاء نشلى من أوحال تلك الأحوال ، فلم يتيسر إرسالها ، ثم أسعد الحال بتبديل مر الماضى بالحال الذى حال ، وذلك عقب تخميسى لقصيدة نبوية برعية ، متوسلا فيها بشفاعة خير البرية ، وها هى القصيدة الأولى .. » .

وعلى هذا فقد كتب رفاعة هذه القصيدة بعد تخميس قصيدة الشاعر عبد الرحيم البرعى أثناء النفى بالسودان ، وما صحبه من ظروف قاسية وآلام نفسية صعبة . وهى تعد من أقوى شعر رفاعة تعبيراً عن خواطره الذاتية ، وهمومه الخاصة . وبالإضافة إلى هذا الجانب الذاتى من حيث المضمون ، فهى أيضاً من أثرى التجارب الفنية فى شعره ، وهى مثال جيد لسمات شعر رفاعة ، وشاهد دال على أقصى ما وصل إليه من تطور فنى .. والقصيدة من بحر الوافر .

ألا فادعُ الذى ترجو و نادى ... يُجبك وإن تكن فى أىّ نادى
فمن غرَس الرجا فى قلب حُرٍ ... أصابَ جنى النجا غِبّ الحصاد
و من حُسن الخلائق سله صنعاً ... جميلا فهــو أوفى بالــوداد
وحدثْ عن وفا خــلٍ وفىّ ... بمرسلٍ حُبه فى القلب بَادى
ورب أخ تلاهى عنك يومـــا ... فربّ ودادِه أبــــداً ودادى
بنو الآدابِ إخوانٌ جميعاً ... وأخدانٌ بمختلف البـــلاد
خلائفُ عنصرٍ كل تغــذى ... بأثداء العــلا دونَ اقتصـاد
وآدابُ الفــتى تعليــه يومـاً ... إلى الأنجــاد من بعد الوهاد
وآدابِى تُسامى بى الــدرارى ... على شعثى وتبلغــنى مُرادى(١)
ومالى لا أتيــه بهـــا دلالا ... وقد دلتْ على نَهــج الرشاد
إلى سُبل الفخار تقود حزمى ... وفى ميــدانه عــزمُ انقيادى
عِصامىٌّ طريفُ المجــد سعياً ... عظامىٌّ شريفٌ بالتّـــلاد
سوى نسب العلوم لى انتسابٌ ... إلى خير الحواضرِ والبوادى
حُسينىٌّ الســلالــة قاسمىٌّ ... بطهطا معشرى وبها مِهادى
لسان العرب يُنسب لى نجاراً ... ويدنينى إلى قُس الإيــــاد
وحسبى أننى أبرزت كتبــاً ... تبيــدُ كتائباً يوم الطــراد
فمنهـــا منبعُ العرفان يجرى ... وكم طرسٍ تحــبّر بالمداد
على عدد التواتر مُعربـــاتى ... تفى بفنــون سلم أو جهــاد
وملطبرون يشهدُ وهو عــدل ... ومنتسكو يقــرُّ بلا تمـــادى(٢)
ومغترفو قراح فراتِ درسى ... قد اقترحوا سِقاية كل صادى
ولاح لسان باريسٍ كشمسٍ ... بقاهرة المعــزّ على عبـــادى

* * *

ومحيى مصرَ أحيا كان قــدرى ... وكافأنى على قدر اجتهـــادى
سأشكرُ فضلَه ما دمتُ حياً ... وما شكرى لدى تلك الأيادى
رعى الحنان عهدَ زمان مصر ... وأمطرا ربعَها صوبَ العهاد

(١) الدرارى : الكواكب الدرية .
(٢) ملطبرون : منتسكو : علماء فرنسيون ترجم لهم بعض الكتب .

رحلتُ بصفقة المغبون عنها وفضلى فى سواها فى المزاد
وما السودانُ قط مُقامُ مثلى ولا سَلماى فيه ولا سعادى
بها ريحُ السمومُ يشم منه زفيرَ لظى فلا يُطفيه وادى
عواصفها صباحاً أو مساءً دواماً فى اضطراب واطّراد
ونصفُ القوم أكثره وحوشٌ وبعضُ القوم أشبهُ بالجماد
فلا تعجبْ إذا طبخوا خليطاً بمخ العظم مع صافى الرماد
ولطخُ الدُّهْنِ فى بَدنٍ وشعر كدهن الإبل من جَرب القراد
ويُضربُ بالسياط الزوجُ حتى يُقال أخو ثَبات فى الجلاد
ويرتق ما بزوجته زماناً ويصعبُ فتقُ هذا الانسداد
وإكراهُ الفتاة على بغاءٍ مع النهى ارتضوْه باتحاد
نتيجته المولَّدُ وهو غالٍ به الرغباتُ دوماً باحتشاد
لهم شغفٌ بتعليم الجَوارى على شبقٍ مجاذبة السفاد
وشرحُ الحال منه يضيقُ صَدرى ولا يُحصيه طرسى أو مِدادى
وضبطُ القولِ فالأخيارُ نَزْرٌ وشرُّ الناس منتشرُ الجراد
ولولا البيضُ مِنْ عُربٍ لكانوا سواداً فى سوادٍ فى سواد
وحسبى فتكها بنصيف صحبى كأن وظيفتى لبسُ الحِداد

* * *

وقد فارقتُ أطفالاً صغاراً بطهطا دونَ عَوْدى واعتيادى
أفكر فيهم سراً وجهراً ولا سَمرى يطيب ولا رقادى
وعادت بهجتى بالنأى عنهم بلوعة مهجةٍ ذاتِ اتقاد
أريد وصالَهم والدهرُ يأبى مواصلتى ويطمعُ فى عنادى
وطالت مدةُ التغريب عنهم ولا غنمٌ لدىّ سوى الكساد
وما خلتُ العزيزَ يريدُ ذلى ولا يُصغى لأخصامٍ لداد (١)
لديه سعوْا بألسنةٍ حدادٍ فكيف صَغى لألسنةٍ حدادِ
مهازيلُ الفضائل خادعونى وهل فى حربهم يكبو جوادى

---

(١) يشير رفاعة هنا إلى أن السفر إلى السودان كان نتيجة وشاية بعض الخصوم .

وزخرفُ قولهم إذْ موّهوه ... على تزييفه نادى المنادى
فهل من صَيرفى(١) المعنى بصير ... صحيحِ الانتقاء والانتقاد
قياسُ مدارسى قالوا عقيمٌ ... بمصر فما النتيجةُ فى بعادى ؟
وكان البحرُ منهجَ سفن عزمى ... فكدتُ الآن أغرقُ فى الثّمادِ
ثلاثُ سنين بالخرطوم مرّتْ ... بدون مدارسٍ طبقَ المراد
وكيف مدارسُ الخرطوم تُرجى ... هناك ودونَها خرطُ القتاد
نعم تُرجَى المصانعُ وهى أحرى ... لتأييد المقاصد بالمبادى
علومُ الشرع قائمةٌ لديهم ... لمرغوب المعاش أو المعاد

* * *

خدمتُ بموطنى زمناً طويلا ... ولى وصفُ الوفاء والاعتماد
فكنتُ بمنحة الإكرام أوْلى ... بقدرٍ للتعيش مُستفاد
وغايةُ مطلبى عوْدى لأهلى ... ولو من دون راحلةٍ وزادى
وصبرى ضاع منذ اشتدّ خطبى ... وهوْنُ الخطب عند الاشتداد
وكم حسناً دعوتُ لحسن حالى ... وكم نادى فؤادى يا فؤادى
وأرجو صدرَ مصرَ لشرح صدرى ... وجهد الطول فى طول النجاد
وكم بُشرتُ أن عزيزَ مصر ... تفوهَ بالفكاك ولم يفاد
وحاشا أن أقولَ مقال غيرى ... وذلك ضد سرّى واعتقادى
لقد أسمعتَ لو ناديتَ حياً ... ولكن لا حياةَ لمن تُنادى

* * *

وفى دار العزازةِ لى عياذٌ ... يقينى نشبَ أظفار العوادى
أميرُ كبار أرباب المعالى ... فتى فى شرعة العرفان هادى
عروفُ ألمعى لا يُبارى ... بمضمار العلا طلقُ الجياد
بوافر فضله الركبانُ سارتْ ... وغنّى باسمه حادٍ وشاد
وقالوا فى معارفه فريدٌ ... فقلتُ وفى الرياسة ذو انفراد

(١) هكذا فى الأصل وينبغى أن تكون صيرف أى الخبير بتصريف الأمور .

وفى الأحكام قالوا لا يُضاهى — فقلتُ وذو تحــر واجتهاد
وقالوا فى الذكاء ذكا فقلنـا — وثاقبُ ذهنـه وارى الزناد
وقالوا وافقَ الحسنُ المُسَمَّى(١) — فقلت وكم حدا بالوصفِ حاد
وبحــر حجاه يبــدو منه در — لغوّاصِ العلــوم بلا نفــاد
فيا حسَنَ الفعالِ أغثْ أسيرا — بسجن الزنج يحكى ذا القياد
عليه دوائرُ الأســواء دارتْ — وطالتْ وفقَ أهواء الأعادى
وقد فوضتُ للمولى أمورى — وذا عينُ الإصــابة والســداد
عسى المولى يقول امضُوا بعبلى — فيقضى لى بتقريب ابتعــادى

• • •

وما نظمُ القريض برأْسِ مالى — ولا سَندى أراهُ ولا سِنادى
وافرُ بحره إن جــاد يومــاً — فممدوحى له وصف الجواد
وليس لبكر فكرى من صداقِ — سوى تلطيف عودى فى بلادى
فأحمى ذراها من بيــوتَ — رَزانٍ فى حماسَتِها شداد
ومسكُ ختامها صلوات ربى — على طه المُشَفَّعِ فى المعاد
وآل والصحابة وكلَّ وقت — مواصلةٍ إلى يــوم التنــادِ

---

(١) فى الأصل : المثنى ، والأفضل .. ما أثبتناه ، لأنه يمدح هنا حسن باشا .

مدح .. و .. فخر
بالجد الولى أبى القاسم الطهطاوى

أثناء جمع تراث رفاعة الشعرى المبعثر التقيت بالسيد/محمود رافع ، أحد أفراد أسرة الطهطاوى ، وقدم لى كتاباً بعنوان « الثغر الباسم فى مناقب سيدى أبى القاسم » تأليف السيد/أحمد رافع الحسينى الطهطاوى ، والمؤلف يتحدث فيه عن مناقب جده الشهير جلال الدين أبى القاسم الطهطاوى ، وهو مطبوع فى مطبعة الرغائب بمصر سنة ١٣٣٣ هـ.

وقد وجدت فى الكتاب قصيدة منسوبة لرفاعة فى مدح جده أبى القاسم هذا ، وذكر أنه ألفها سنة ١٢٦٠ هـ (١) ، وهى تبدأ بمقدمة غير مكتملة تدعو إلى وداع الغزل والحث على طلب المجد ، ثم تنتقل إلى مدح الجد والحديث عن بعض كراماته ، ورد نسبه إلى الإمام على بن أبى طالب .

وبعد أن قرأت القصيدة ترددت أثناء الطبعة الأولى فى نسبتها لرفاعة لضعف صياغتها إلى حد ما ، وبعد صدور الديوان جاءنى خطاب من السيد محمود رافع يعاتبنى فيه على أنى أشك فى صدق كتاب ألفه جده ، وعند الطبعة الثانية عاودت مراجعة كتب رفاعة فوجدته يشير فى « مناهج الألباب » (ص ٣٨٥) إلى مقطع من القصيدة أثناء الحديث عن نسبه ، لذلك قررت نشرها فى الطبعة الثانية .

وشكل (المخمس) الذى نظمت فيه القصيدة – التى هى من بحر الكامل – يذكرنا بقصيدته التى **خمس فيها قصيدة البرعى أثناء نفيه فى السودان** ، ويؤكد هذا أن تاريخ تأليف القصيدة المذكورة تاريخ متأخر ، كما أنه ينهى القصيدة مشيراً إلى أن غايته منها هو « خلاص رفاعة مما به » ...

. . .

---

(١) رفاعة ولد سنة ١٢٠٦ هـ .

١ — مقدمة غير كاملة فى وداع الحبِّ وطلب المجدِ :

ودّعْ أويقاتَ الصبابة والصّبا   ودعْ التنسمَ بالنسيم وبالصّبا
واحرصْ على حب المعالى منصبا   إياك تصبو فى الهوى مع من صبا
أو أن تكون بشرْعه متعصبا

ومنهـا :

كيف الوثوقُ بمن يداهن فى الهوى   ومن اختلال دوحِ خلته ارتـوى
لم تدر منـه ما عليه قد انطـوى   ويريك حباً والصداقة لاسوى (١)
من كان هذا وصفه لن يُصْحبا

ومنهـا :

فوريِّقُ غصنـك بعد إيراقِ ذوىَ   ومنير وجهك بعد إشراقٍ هوى (٢)
فوحقِّ ربِّ العرش فلاّقِ النوى   ما استعذبَ الصبُّ الغرامَ ولا ثوى
بفؤاده إلا وبـات معـذبا

٢ — مدح الولى .. الجد جلال الدين أبى القاسم :

إن فاتَ وقتك فى التشبب والغـزلْ   ولسان شعرك فى مهاوى الهزل زَلّ
لا تبق حتى يَسبق السيفُ العـزل   بل قم بمدح ولى « طهطا » منْ نزل
برحابه أزكى قراه ورحّبا

هذا جلالُ الدين وهو أبو على   هذا جليل الأصل ذو السر الجلى
هذا من الأسرار يا هـذا ملى   يا حبذا المـولى ويا نعم الـولى
قطبٌ أسرةُ وجهه ما قطبا

من مثـله بمكانةٍ زُلفَى اقتربْ   من مثـله من ربـه بلَغَ الأربْ
من مثـله بين الأعـاجم والعربْ   أبنـاؤه حـازوا الولايةَ والقرب
عند الوفاة وويلُ من قد كذبا

عبد الرحيم حباه عهـد البرزخ   وبمثله الصباغُ صار له سَخِى

(١) لاسوى : أى لسواك أو لغيرك .

(٢) إيراق : اخضرار (مصدر أورق) — ذوى : جفّ .

كل يمد له يداً من فرسخ ومن العجائب أن ذا لم يُنسخ

ماكان للعريان في زمن الصبا(١)

من «تلمسان»(٢) سرى لِيَغزُو، وهو في بستان طهطا ظاهرٌ لم يَختفِ

والطعن بان كشوكةٍ منها شُفى والمغربي لما حكى هذا نفى

وبوقته عن أرض طهطا قد نبا

وبأرض طهطا تختُه وسريرُه سلطانها و«ابن الرضى» وزيره

و«رفاعةٌ»(٣) وهو الخطيبُ مشيره ونقيبُه «طه»(٤) بها وسفيره

والألفُ جيش في الشدائد جرّبا

في هيئة الكركي قد نزلَ الحرمْ نحو الثلاثِ فقام شيخٌ محترم

ثقةٌ وأقسم أن فيها ذا الكرم سلطانُ طهطا «ابن الحسين» ولاجرم

والأمر بانَ كما أبانَ وأعربا

إن كان قد ولدتك أمك أطمسا فالنورُ لاحَ وبالحنان تأسسا(٥)

قد شقّ شيخك ناظريك فلا أسى وبذا حوى العريانُ سراً أقدسا

من سرِّ روح القدس لابل أعجبا

طاقيةُ العريان قد أُلبستَها رمزاً لسر خلافةٍ آنستَها

---

(١) الأعلام الواردة في المقطع أسماء بعض الأولياء الصالحين وهم: الشيخ عبد الرحيم القنائي والشيخ الصباغ، والشيخ العريان، وهو ولي سوف تأتي إشارة في أبيات تالية إلى أنه ألبس الشيخ جلال الدين الطهطائي أو الطهاوي طاقية العرفان، وهذا كناية عن الاعتراف له بالولاية.

(٢) تلمسان: الشاعر يشير هنا إلى أن أصل أسرته من المغرب ولكنهم استقروا في طهطا.

(٣) رفاعة الذي يشير إليه الشاعر هو جده الأعلى من جهة أمه، وهو كما قال عنه في مناهج الألباب (ص ٣٨٤): «وهو الإمام العالم القطب الرباني سيدي رفاعة بن عبد السلام الأنصاري المشهور بالخطيب المكتوب على ضريحه:

اقصد رفاعة كلما كرب يضيق سبيله

وانزل بساحته وقل حاشا يضام نزيله

ويبدو أن الشاعر قد سمي باسمه تبركاً وتفاؤلاً.

(٤) يبدو أن «طه» المذكور هنا هو الرسول صلى الله عليه وسلم.

(٥) أطمس: أعمى — لاح: ظهر.

كم يدٍ بيضاءَ منك غرستها كم صنتَ طهطا من أذى وحرستها
ثمراتها لبنيك أضحتْ مكسبا(١)

والعفوُ من سلطان مصر لمذْنب وكفاك فخراً قصةُ ابن الأحدب
أخبرته بين الورى بمغيب وشهادةُ البلقيني بعدَ تعصب
ببناء مدرسةٍ فهشّ وأعجبا

بذهاب دولتها وعن تبديدها أخبرتَ عن عُرب بأرض صعيدها
وبأن من أدنى القرى وبعيدها وبسبحها بدماء بحر حديدها
هوارةٌ عرباً يَحلون الحبا(٢)

ومن الذى يَنسى الذى أسديتَهُ من بعد جيلٍ كان ما أبديتَهُ
قبل الأوان وسرعةً أديته من ناضر الرمان إذ أهديتَه
لشفا خديجة حيثُ حلّ بها الوبا

وكذاك كشفُ الافتضاح رددته ومنِحتَ فضلاحرف كنْ فزهدتَه
لهلاك جبار بغيٍ فطردته وقبلتَ سيفاً ماضياً أعددتَه
قد جال شرقاً فى البلاد ومغربا

ملأ الجهات الستّ طراً حده(٣) بلغ الأباطحَ والشواطحَ مجدُه
هو ساطعٌ أبداً يروق فرنده هو قاطعٌ لو لم يصنه غِمده
وبه تذودُ عن الحمى أن يُقربا

وأتى اليك عساك تَجبر كَسرَه دينُ الدمشقى حين أثقل ظهرَه
لمبارك لا زال يقفو إثْرَه أرسلته الأهرام تمحو إصره
نادى فقال له مباركُ مرحبا

عنه وبعد الديْن قد نال الغنى أعطاه طبقَ السم ما رفع العنا

(١) هذا المقطع الخماسى هو الذى ورد ذكره فى « مناهج الألباب – ص ٣٨٥ » ، وهو الذى أثبت صحة نسب القصيدة .

(٢) هوارة : قبيلة عربية نزحت إلى صعيد مصر ومنها جد الشاعر أبو القاسم . يحلون الحبا : كرام .

(٣) الأباطح والشواطح : الأماكن المنخفضة والعالية .

لا زال ينفقُ لا حسابَ ولا فنا ... لما توفى الشيخُ عن أجلٍ دنا

وجد الدمشقيُّ ما احتباه كما احتبى

فأبو حُريزٍ(١) فى الشدائد حرزنا ... وعليه فى الدارين حقاً عزّنا

وهو الذخيرةُ فى المعاد وكنزُنا ... وبه سعادتنا تدومُ وفوزنا

وبه تَنال مدى الزمان المطلبا

فاسأل حُريزاً إنْ تشأْ عن حالِه ... واسأل علياً(٢) عن عليّ خصاله

يَحيي به يحيا جزيلُ نوالـه ... كم شريفٍ جاء من أنجـاله

كأصوله عند الإلـه مقربا

ما فكرتى فى نظمها بأديبةٍ ... وإذا اقترحتْ فتلك غيرُ مُجيبةٍ

لكن بمدحك قد وفتْ بنجيبةٍ ... وقصيدةٍ تأتى الملوك غريبةٍ

بسمتْ بثغرٍ بالحياء تنقبا

حسناءُ قد وافتْ بكل براعةٍ ... وتقنعتْ أدباً بكل قناعةٍ

وأتتْ إليك تمدُّ كف ضَراعةٍ ... ما مهرها إلاّ خَلاصُ رفاعةٍ

مما به ، من آيها ختمت سبا(٣)

ثم الصلاةُ على النبي المجتبَى ... والآلِ والأصحاب ما صبٌّ صَبا

أوْ هامَ ذو عشقٍ وأنشدَ مُطربا ... ودعْ أُوَيقاتَ الصبابةِ والصبا

ودع التنسمَ بالنسيم وبالصبا

• • •

---

(١) حريز : بضم الحاء المهملة ، أحد أجداد الشاعر وكان يتولى وظيفة قاضى مصر ، وقد ورد ذكره فى كتاب « ذيل رفع الأصر فى قضاء مصر » للحافظ شمس الدين أبى الخير محمد السخاوى ، أما أبو حريز هنا فالمقصود منه أبو القاسم الذى تدور القصيدة حول مدحه والفخر به .

(٢) على : هو على بن أبى طالب ، والشاعر يريد أن يقول إن أفضال جده أتت إليه من ناحية نسبه الشريف إلى الإمام علي – لاحظ التورية المقصودة بين علىّ – على ، يحيى – يحيا .

(٣) هذا المقطع قد يؤكد أن الشاعر نظمها فى السودان متوسلا بجده الولى ليكشف عنه ما هو فيه .

فى الغزل

أثناء حديث الطهطاوى عن رحلته إلى فرنسا يذكر أن السفينة رست عند مدينة « مسينة » ولكن لم يسمح بنزول من فيها .. ثم يقول :

« وقد صنعت فى ليلة من هذه الليالى فى المحادثة مع بعض الظرفاء مقامة طريفة مضمونها ثلاثة معان :

الأول : المجادلة فى أنه لا مانع من أن الطبيعة السليمة تميل إلى استحسان الذات الجميلة مع العفاف ، وأنشأت فى ذلك جملة شواهد لطيفة ، وأنشأت فيه قولى :

أصبـــو إلى كل ذى جمال ... ولستُ من صبوتى أخافْ
وليس بى فى الهوى ارتيابٌ ... وإنمـــا شيمتى العفـــاف

الثانى : سُكر المحب من معانى خمر عينى محبوبه ، واستغنائه عن الراح براحته ، وأنشأت فى هذا المعنى قولى :

وقلتُ لما بَدا والكأسُ فى يده ... وجوهرُ الخمر فيها شبهُ خديْه
حَسْبى نزاهةُ طرفى فى محاسنه ... ونشوتى من معـــانى سحر عينيه

. . . .

(وردت الأبيات فى تخليص الإبريز ، ص ١٧٩ ، وهى من بحر الطويل) .

الفصل الثانى

الشعر الوطنى

حنين إلى مصر

وردت هذه القصيدة فى كتاب « **تخليص الإبريز فى تلخيص باريز** » (ص ٢٠٣) ، ويبدو أن رفاعة كتبها أثناء البعثة فى باريس (١٨٢٧ – ١٨٣١) . وهو يقدم لها بقوله : « فلو تعهدت مصر وتوفرت فيها أدوات العمران لكانت سلطان المدن ورئيسة بلاد الدنيا ، كما هو شائع على لسان الناس من قولهم : « مصر أم الدنيا » .. وقد مدحتها مدة إقامتى بباريس بقصيدة تتضمن مدح ولى النعمة ، دام عز دولته ، آمين .. وها هى هذه القصيدة .. » .

وهى تبدأ بالغزل ثم تنتقل إلى وصف مصر والتغنى بفضائلها ، وتنتهى بمدح محمد على . **وهى تمثل شعر « مرحلة الشباب » بالنسبة لرفاعة** كما يلاحظ أنها لم تتوقف كثيراً عند زخارف الصناعة الشعرية ، سوى بعض المحسنات البديعية ، والقصيدة فى مجملها تبدو أقرب إلى الصفاء الفنى وعدم التكلف .. وهى من بحر الكامل .

ناحَ الحمامُ على غصونِ البانِ ... فأباحَ شيمةَ مُغرمٍ ولهانِ
ما خلته مُذ صاحَ إلّا أنه ... أضحى فقيدَ أليفه ومعانى
وكأنه يُلقى إلىّ إشارةً ... كيف اصطبارى مُذ نأى خِلانى
مع أننى والله مذ فارقتهم ... ما طابَ لى عيشى وصفوُ زمانى
لكننى صبٌّ أصونُ تلهفى ... حتى كأنى لستُ باللهفانِ
وبباطنِ الأحشاءِ نارٌ لو بَدَتْ ... جمراتُها ما طاقها الثقلانِ (١)
أبكى دماً من مهجتى لفراقهم ... وأودُّ أنْ لا تشعرَ العينانِ

(١) الثقلان : الإنس والجن .

لى مذهبٌ فى عشقهم ورايتُــه ... ومذاهبُ العشاق فى إعــلان
ماذا علىّ إذا كتمت صــبابتى ... حتى لو أن الموتَ فى الكتمــان
ما أحسنَ القتــلى بأغصان النقى ... ما أطيبَ الأحـــزان بالغزلان
قالوا أتهوى والهوى يكسو الفتى ... أبداً ثيابَ مذلةٍ وهـــوان ؟
فأجبتهم : لو صحَّ هذا إننى ... أختارُ ذلى فيه طـول زمـانى
والذلُّ للعشاقِ غيرُ معـرة ... بل عينُ كل معـزّةٍ للعـانى
أصبو إلى من حاز قداً أهيـفا ... يزرى ترنحُـه بغصن البــان
وأحن نحو شقيــق تم خدّه ... قد نمَّ فيه شقايقُ النعمــان
ويروقنى أبداً نزاهــةُ مقلـتى ... فى حُسن طلعةِ فاتكٍ فتّـان
أمسى وأصبحُ بينشعـْرٍ حالكٍ ... ومُنيرِ وجهٍ هكذا الملوان(١)
ولطالما قضّيتُ معــه حِقبــةً ... ونسيمُ مصرَ معطّــرُ الأردان

* * *

زمنٌ علىّ به لمصر — فديتُـها ... حقٌّ وثيــقٌ عــاطلُ النكران
لو شابهتْ عينـاى فائضَ نيلها ... لم توفِ بعض شفائه أحـزانى
أو لو حكى قلبى بحــارَ علومها ... طــرباً لما أخلــو من الخفقان
ولكم بأزهرها شموسٌ أشرقتْ ... وأنارتْ الأكوانَ بالعرفــان
فشذا عبير علومهم عمَّ الورى ... وسرتْ مآثرهـم لكل مــكان
وحوتهمو مصرُ فصارت روضةً ... وهمو جنــاها المبتغى للجـانى
قد شبهوها بالعروس وقد بـدا ... منها «العروسى» بهجةَ الأكوان
قالـوا تعطّر روضُها فأجبتهم ... «عطارُها حسنٌ» شذاه معـانى
حَبرٌ له شهدت أكابــرُ عصره ... بكمال فضلٍ لاحَ بالبرهــان(٢)
لو قلتَ لم يُوجد بمصرَ نظـيرُه ... لأجبتُ بالتصديق والإذعــان
هذا لعمرى اليــومَ فيها سادةٌ ... قد زُينوا بالحسن والإحســان
يا أيها الخــافى عليك فخــارُها ... فإليكَ إن الشاهدَ « الحسنان »(٣)

---

(١) الملوان : الليل والنهار . (٢) حبر : عالم .
(٣) الحسنان : الشيخ حسن العطار والشيخ حسن القويسنى .

ولئن حلفتُ بأن مصرَ لجنـةٌ وقطـوفها للفـائزين دوانى
والنيلُ كوثرها الشهىُّ شرابـه لأبرُّ كل البر فى أيمـانى

• • •

دار يحـق لهـا التفاخـرُ سيما بعزيزها جَدوى بنى عـثمان
حاز المحـامدَ إذ دُعى بمحمدٍ ورقى العـُلا فعلى على الأقران(١)
من كان مثـل أمـيرنا فقرينه اسكندرٌ أو كسرى أنو شروان
فى وجهه النصرُ المبين على العدا لاحتْ بشـائرُه لـكل معانى
فى كفه سيفان : سيفُ عنـاية والشهمُ إبراهيم سيفٌ ثـانى
سلْ عنه يُنبيك الحجاز مشافهاً بدمار أهـلِ الزيـغ والبهتـان
من قبل كانت سُبْلُه مذعورةً والآن صارت فى كمـال أمـان
لاغروَ إن «نجْداً» أدامتْ شكرَه فلقد كساها حـُلةَ الإيمـان
وسعتْ إلى زنجٍ طـلائعُ جيشه فأطاعها العـاتى من السودان
وتقلبُ الأروام عـدلٌ شاهدٌ كم منه قد نَالـُوا شديدَ طعان(٢)
حتى لقد باءوا بوافـرِ خزيهم وتقاسموا حظـاً من الخسران
لم تُخْطِ قامةُ رُمحِه أغراضَها وإصابةُ الأغراضِ نيـلُ أمانى
أحيا بدولته علوماً قد غـدتْ لوضوحها تُجـلى على الأذهان
بطلٌ مكارمه الجليـلةُ قلَّدت هـامَ الزمانِ مكللِ التيجان
يهنيك يا مصرُ لقد حزتِ البهـا بمحمدٍ باشـا عـلىِّ الشـان(٣)
فاحظىْ بفاخر حكمِه وتمتـعى وبذلك افتخرى على البلـدان
مُدّى أكفّ الشكر وابتهلى بأن يُبقيـه مولاه طويلَ زمـانِ

---

(١) لاحظ التكاف الشديد فى استخدام الجناس فى الشطر الثانى من البيت بين الإسم والفعل والحرف .

(٢) رفاعة يشير إلى حروب محمد على فى الحجاز والسودان وبلاد اليونان .

(٣) لاحظ التورية فى كلمة (على)على أساس أنها اسم وصفة .

قصيدة وطنية فى حب مصر ..

وردت القصيدة فى مقدمة « مواقع الأفلاك فى وقائع تلياك » (ص ١٢). ويبدو أن رفاعة كتبها وهو بالسودان ، لذلك يظهر حنينه لمصر – فى هذه المقطوعة التى تقترب من طبيعة النشيدالوطنى مضموناً وشكلا – واضحاً قوياً. وشعر رفاعة الوطنى يعد أول صوت (رائد) فى هذه السبيل بالنسبة للشعر العربى الحديث ، والقصيدة من مجزوء الرمل .

يا صاحِ حبُّ الوطنْ   حليةُ كل فَطِنْ(١)

محبةُ الأوطانِ   من شُعب الإيمانِ

فى أفخرِ الأديانِ   آيةُ كل مؤمنْ

يا صاح حبُّ الوطن   حلية كل فطن

مساقطُ الرءُوسِ   تلَذُّ للنفوسِ

تُذهبُ كل بؤسِ   عنّا وكلَّ حزنَ

ومصرُ أبهى مولدِ   لنا وأزهى محتدِ

ومربعٍ ومعهدِ   للروح أو للبدنْ

شُدتْ لها العزائمُ   نِيطتْ بها التمائمُ

لطبعنا تُلائمُ   فى السر أو فى العَلنْ

مصرُ لها أيادِى   عُليا على البلادِ

وفخرها يُنادى   ما المجدُ إلا ديْدنى(٢)

الكونُ من مصرَ اقتبسْ   نوراً وما عنه احتبسْ

وما فخارها التبس   إلا على وغدٍ دَنِى

فخرٌ قديم يُؤثَرُ   عن سادةٍ ويُنْشَرُ

زهورُ مجد تنثر   منها العقول تَجْتَنِى

---

(١) فطن : ذكى   (٢) ديدن : طبع أو عادة .

دارُ نعـــيم زاهيَـــه ٭ ومعـــدن الرفاهيَه ٭
آمـــرةٌ وناهيـــه ٭ قِدماً لكل المـــدنْ
تحنـــو عـــلى القريبِ ٭ تحـــلو لـــدى الغريبِ
ترنـــو إلى الرقيبِ ٭ شرراً بسهم الأعـينْ
طـُـول المـداوَلودُ ٭ وللهـُــدى ودودُ
ما أمَّهـــا جَحـــودُ ٭ إلا انثـــنى بالوهـــنْ(١)
قـــوةُ مصرَ القاهـــره ٭ على سِواهـــا ظاهره
وبالعـــمارِ زاهِـــره ٭ خُصّتْ بذكـرٍ حَسَنْ
منـــازلٌ رَحيبـــه ٭ (وبالمنى) (٢) خَصِيبه
وللهنـَـــنا مُجيبـــه ٭ وهى أعـــزُّ موطن
علـــومها حقـــائقُ ٭ فهـــومها رقـــائقُ
رمـــوزها دقـــائق ٭ تحلـــو لأهـــل الفِطن
أما تـــرى الأهـــالى ٭ ترقَى ذُرى المعـــالى
هم سادةٌ مـــوالى ٭ جمال وجـــه الزمـــن
أبنـــاؤها رجـــالُ ٭ لم يثـــنهم مجـــالُ
ولا بهم أوجـــال ٭ فى ليل وقـــعٍ دَجن
وذوقهم مطبـــوعُ ٭ وقـــدرهم مرفـــوعُ
وصيتهم مسمـــوع ٭ بشرف التمـــدن
وجنـــدهم صـــنديدُ ٭ وقلبـــه حـــديدُ
وخصـــمه طـــريد ٭ بل مُدرجٌ فى كفـــن
كل فـــتىً جليـــلْ ٭ يعشق وادى النيـــلْ

---

(١) أمها : قصدها .

(٢) فى الأصل : وبالمنه .

كم فيـــه من نريـــــلْ		يقـــول مصر وطـــنى
فإن تـَرُمْ إسعــــادا		يا سعـــدُ دعْ سعـــادا (١)
ولذْ بمـــنْ أعـــادا		لمصرَ فخـــرها السَّنى
صادقُ وعــدٍ محسنُ		وذكـــرُه يُستحسنُ
ولا تـــزال الألســـنُ		تشدو بذكرِ المحسن
ربٌّ عُــلاً وحسبِ		عن جـــده وعن أبِ
فقـــلْ لمـــصر انتسبي		إلى جـــــزيلِ المننْ
أدامـــُـه ربُّ العـــلا		أمـــيرَ عـــزٍ وولا(٢)
بجـــاه طـــه مَن عـــلا		بالعدلِ جـــورَ الفتنْ

* * *

(١) للشاعر انتقل من الفخر بالوطن إلى مدح الخديوى .
(٢) ولا : ولاء ، طاعة (من شعبه) .

منظومة وطنية مصرية

وردت هذه القصيدة فى « **مختارات من كتب رفاعة** » (ص ٢٠٦) وتثير — هى وما يشابهها — مسألتين :

الأولى : تتعلق بالمضمون الوطنى الذى تحتويه ، والذى يبدو رفاعة (رائداً) فيه — رغم أنه يمدح تفيه — أيضا — الخديوى سعيد .

الثانية : تتعلق بالشكل ، حيث تقترب بنية القصيدة من فن (التوشيح) ، حيث نجد (الغصن) الذى يتكون من عدة أشطر متحدة القوافى ، ثم (القفل) الذى يتكون من بيت تتحد قافيتاه الداخلية والخارجية ، وهذا القفل ينهى (متمطعاً) فى بنية تشبه شكل الموشح . والبحر المستخدم فى القصيدة هو المتدارك تاماً ومجزوءاً .

هيا نتحالفْ يا إخوانْ
بأكيدِ العهدِ وبالأيمانْ
أن نبذلَ صِدْقاً للأوطانْ
(وبيمْن « سعيدٍ » نحن نصانْ)(١)

للحربِ هلمُّوا يا شجعان   حبُّ الأوطان من الإيمانْ

هيا اجتهدوا ، هيا اجتهدوا
(والحر) (٢) ينجزُ ما يَعِد
وجميعُ الناسِ لكم شهدُوا
بشجاعتكم عند الميدان

للحرب هلموا يا شجعان   حبُّ الأوطان من الإيمان

هيا اتحدوا ، هيا اتحدوا
للملَّةِ سيفُكم عضدُ(٣)

---

(١) حذفت — عمداً من المصدر المنقول عنه ، لإسقاط ذكر اسم الخديوى سعيد .

(٢) فى الأصل : والفخر .

(٣) الملة : الدين — عضد : ساعد مدافع .

(وبيُمن سَعيدٍ نحنُ نُصان)
والفضل يَجل عن النُكران

للحرب هلموا يا شجعان   حبُّ الأوطان من الإيمان

فلكم قِدمٌ ، ولكم قَدمُ
فى الفضل وضدكم عدمُ
ومعالمكم لا تنهدم
بالتقوى تأسيسُ البنيان

للحرب هلمّوا يا شجعان   حب الأوطان من الإيمان

أنتم أكرما أنتم نبلا
تحمُون الجيرةَ والنُّزُلا
ولكم شرفٌ فى الكونِ علا
قدْراً لا يمحوه الملوان(١)

للحرب هلموا يا شجعان   حبُّ الأوطان من الإيمان

فنزالِ نزالِ على الأعْدا
لا ترعوْا فى الأعْدا عَهدا
فالوقتُ أتاح لكم سعدا
وأذاقهم طعمَ الخسران

للحرب هلموا يا شجعان   حبُّ الأوطان من الإيمان

هيا انتظموا ، وارْقوْا أوْجا
هيا اقتحمُوا فوجاً فوْجا
هيا التحموا عند الهيجا(٢)
هيّا هيا (سُونكِى) دوران(٣)

للحرب هلموا يا شجعان   حبُّ الأوطان من الإيمان

---

(١) الملوان : الليل والنهار . . (الزمان) .

(٢) الهيجا : الحرب .   (٣) سوتكى : خنجر فى مقدمة البندقية .

لا تعطـــوا الأعـــدا مِقْوَدكم

لا ترضـــوْا أن تستبعـــدكم

والله تعـــالى أسعـــدكم

بقتـــالٍ وهـــزم ذوى الطغيـــان

للحـــرب هلمـــوا يا شجعان حبُّ الأوطان من الإيمـــان

بصـــوارمكم وعـــواليكم

ومفـــاخركم ومعـــاليكم

(وبيُمن « سعيد » نحن نصان)(١)

خـــوضوا بدمـــا أهـــل العدوان

للحـــرب هلمـــوا يا شجعان حب الأوطان من الإيمـــان

هـــولُ الأعـــداء طلائعكم

وبنـــادقُـــكم ولـــوامِعُـــكم (٢)

وعـــذابُ الهـــون مدافعـــكم(٣)

وصواعقـــكم رمىُ الأهـــوان

للحـــرب هلمـــوا يا شجعان حب الأوطان من الإيمـــان

قصباتُ السبقِ بهـــا فُـــزتم

وسهـــامُ المغـــنمِ قـــد حُزتم

وحظـــوظُ الشهـــرةِ أحرزتم

وبهـــا امتزتم بـــين الأقـــران

للحرب هلمـــوا يا شجعـــان حب الأوطان من الإيمـــان

قسماً بجميـــــل شروعـــكم

فى حفظِ وصـــــون ربوعـــكم

---

(١) هذا الشطر كان مكانه خالياً فوضعنا الشطر المتكرر لسد النقص .

(٢) لوامعكم : سيوفكم اللامعة . (٣) الهون : الهوان ، الذل .

والنصرَ حليفُ دروعِكم
(وبيمن سعيد نحن نصان)

للحرب هلموا يا شجعان حب الأوطان من الإيمان

هيا اشتبكوا هيا اشتبكوا
وغبارُ المعْترك محتبكُ
والعسجدُ هلاّ ينسبك(١)
إلا بمقاومة النيران

للحرب هلموا يا شجعان حبُّ الأوطان من الإيمان

وطبولُ الحرب لها طربُ
وإليها الناجبُ ينجذب(٢)
والضدُّ لديها مضطربُ
وحشاه يصير بها وهان

للحرب هلموا يا شجعان حب الأوطان من الإيمان

رؤساؤكم هم أُسْد شرى
كل منهم للمجد شرى
بمزاياهم فاقوا البشرا
فهم الأمرا وهم الأعيان

للحرب هلموا يا شجعان حب الأوطان من الإيمان

فبنو مصر طُراً نُجبا(٣)
ونجيب القوم الضيمَ أبى
يُبدون لدى الهيجا العجبا
أتُرى بين الأنجاب جبان ؟

---

(١) العسجد : الفضة . (٢) الناجب : النجيب ، الأصيل .
(٣) طراً : جميعاً .

للحــرب هلمــوا يا شجعان حب الأوطان من الإيمـــان
فى السـوْم لهم ثمــنٌ غـــالِ(١)
فى تاريــخ الزمــن الخـــالى
ونظـام الملك لهم عـــالِ
وله ذكــرٌ بعـــد الطــوفان
للحــرب هلمــوا يا شجعان حبُّ الأوطان من الإيمـــان
وألـوفُ قــرونٍ بعــدُ خلتْ
فى حــكم سواهـــا ما دخــلت
وبأســر الغـــير لهـــا بخلتْ
فمن الأبنـــا كان السلطـــان
للحــرب هلمــوا يا شجعان حب الأوطان من الإيمـــان
فى ماضى الدهـــر قدْ بقيت(٢)
تختـاً للمـــلوكِ قــد وُقيتْ
شرَّة الأغــراب وقــد سُقيت
أكــوابَ طِلا حبٍّ العمــران(٣)
للحــرب هلمــوا يا شجعان حب الأوطان من الإيمـــان
قد حـــازت منزلــةً عُليـــا
وبذا دُعيتْ : أمَّ الدنـــــيا
وبصيتِ المـــوتى والأحــــيا
فـــاقتْ مجـــداً كل البلـــدان
للحــرب هلموا يا شجعـــان حب الأوطان من الإيمـــان
فى ذروتهـــا العليـــا صعدت
مصر وعـــوادى الدهـــر عدت

(١) السوم : المساومة عند البيع .
(٢) التخت : الكرسى . (٣) طلا : خمرة .

فاحتلت قهـــــراً وابتعـــدت

دهـــراً عن مـــيزان الرجحـــان

للحـــرب هلموا يا شجعـــان حب الأوطان من الإيمـــان

وتـــولى إمـــرتهـــا الغـــُـــرَّبا

أعجـــاماً كانـــوا أو عَـــربـــا

والحـــالُ ينـــادى واحـــربـــا

والفـــرصةُ تدرك بالأزمـــان

للحـــرب هلموا يا شجعـــان حب الأوطان من الإيمـــان

ربُّ الخـــيراتِ أراد لهـــا

خـــيراً مـــن ذلك بدّلهـــا

(بأكيـــد العهد وبالإيمـــان) (*)

(وبيمـــن سعيد نحـــن نصان) (*)

للحـــرب هلموا يا شجعـــان حب الأوطان من الإيمـــان

وبنـــوكِ الآن قـــد افتخـــروا(١)

بوقـــائعَ عُـــظمى وانتصروا

ربحـــوا فى الغـــزْوِ وما خسروا

والأعـــدا عـــادوا بالخـــذلان

للحـــرب هلموا يا شجعـــان حبُّ الأوطان من الإيمـــان

— — —

(*) غير موجودين فى الأصل المنقول عنه .

(١) بنوك : أبناؤك .

فى التغنّى بمصر .. ومدح الخديو إسماعيل

هذه القصيدة الأولى من مجموعة القصائد التى وردت فى مقدمة ترجمة الطهطاوى لرواية فينلون « مواقع الأفلاك فى وقائع تليماك » (ص ٧) . وهى تدور حول حب مصر والتغنى بحسنها ، وفيها مدح للخديو إسماعيل، وإشارة إلى بعض ما فعله بمصر .

وهى من حيث البنية الفنية تقوم على نظام « الرباعية » التى تتشكل من بيتين بثلاث قواف ، ثم تأتى القافية الأخيرة فى الرباعية – نهاية البيت الثانى – لتكون (لازمة) فى كل مقاطع القصيدة ، وسمة على وحدة بنيتها . والقصيدة من مجزوء الرجز .

أيا خليلىّ دعـــا ... ذِكْرَ السُّوَى واستمعا
حديثَ فخــرٍ طلعـــا ... فى مصر أبهى مطلعٍ
فخرٌ أجاب من دعـــا ... لكســبه ومـــن دعى
فى وطـــنٍ من ادّعى ... لـــه لحـــاقاً فدعِى(١)
بدرٌ عـــُلاه سطعـــا ... وفى سما المجـــد سعى
على البهــــاء خلعـــا ... فى الكون أبهى الخِلع(٢)
فخر أجـــاب من دعا ... لكســبه ومن دعـــى
فى وطـــنٍ من ادّعى ... لـــه لحـــاقاً فـــدعى
حادى السرور رجـّعَا ... بعـــزّنا مذ رجعـــا(٣)
وقـــد أبـــان لمـُعا ... يا حسنها من لمـــع
وطننـــا تعـــزّزا ... وبالهنـــا تحـــيّزا
هـــل غَيْرُه تميّزا ... بسهـــله الممتنـــع
أصـــيلُ فخـــرٍ أسبقِ ... على مدى الدهـــر بقى

---

(١) الدعى : الذى يفتخر بما ليس فيه ، والاسم مستخدم بالتخفيف لضرورة الشعر .
(٢) الخلع : الملابس .
(٣) رجع : غنى مردداً .

بطيب ذكرٍ عبقٍ ... يضُوع للمستمع
حديثُه عالى النسبْ ... بالعزّ مرفوعُ النسب
وحسبه إنْ يُحتسب ... ففى المحلّ الأرفع
سوقٌ عُلاه نافقُ ... بغيضُه منافق
صديقه الموافق ... يسوقه للأنفع (١)
ليس اللبيبُ ذو الفطن ... إلا المحب الوطن
رموضعٌ به قَطن ... لديه أسمى موضعِ
فمسقط الرأس أحبّ ... من رأس مال يُكتسب
ومن لحبه انتسبْ ... فهو الذكىُّ الألمعى
وذو العقوق يوقظُ ... وبالحقوق يُوعظ
عسى يَعى ويَحفظ ... عهْدا رعاه من يعى
أكرمْ بمصر من حِمَى ... عُلاه قد سامى السما
مربعه لقد سما ... فيا له من مربع
مضتْ عليه أعصرُ ... والمجد لا يُقصَر
فيه المديحُ يَقصُر ... أقصرْ أُخىّ واجمع
نظمُ النسيب والغزلْ ... فى غير مصر يُعتزل
فيها علا وما نزل ... إلا على غزال لعلع
فى حبها تسمو الهممْ ... فى حبها تعلو الشيم
فى حيِّنا تعلو القيم ... بقدرها المرتفع
ونيلها المبارك ... فى الفيض لا يشاركُ
أرجاؤه مسالك ... تُرْجَى بكل مَشْرع (٢)
يَروى بعذبٍ سلسلِ ... أخبار فضل مرسلِ
بالصفا مُسلسل ... عن الوفا بالأذرع

---

(١) الشاعر يشير هنا إلى الممدوح (الخديوى اسماعيل) .

(٢) مشرع : جدول أو قناة الماء

فمصرُ مـا أجلَّهـا ... الكل يهوَى وصلَها
فإنْ رنتْ عينٌ لها ... نفقأها بالأصبع
رفيعةٌ شئونُها ... منيعةٌ حصونُها
بديعة فنونها ... كم شيّدتْ منْ بلقع
عزيزُها موفّقُ ... وبالنفوسِ يرفق
بالنفيس ينفقُ ... من بحرِ جودٍ أوسع
مليكها توطّنا ... حيث اصطفاها وطنا
وللمعالى فطنا ... وللسوى لم يهرع
ومذْ غدا مولاها ... للعزّ قد أولاها
مُؤيّداً ولاها ... ببأسِ ليثٍ أروع
يا أيها الجنودُ ... والقادة الأسود
إن أمّكم حسود ... يعود هامى المدمع
فكم لكم حروبُ ... بنصركم تثُوب
لم تثنكم خطوبُ ... ولا اقتحامُ مَعْمع
وكم شهدتم من وغَى ... وكم هزمتم من بَغى
فمن تعدّى وطغى ... على حماكم يُصرع
وحسبكم آى اهبطوا ... مصراً فمن يُثْبطُ(١)
ومن بذمٍ يُخبط ... فادعوه بالمبتدع

---

(١) الشاعر يشير إلى الآية الكريمة « اهبطوا مصراً فإن لكم ما سألتم » .
سورة البقرة – آية (٦١) .

فلتبسطوا كفَّ الدعا لمن عُلاكم رفعا

وشملكم قد جمعا بالعز أبهى مجمع

محمدٌ علىٌّ بوعده وفىٌّ

وعزمه حَيٌّ لم يجنِ زهرَ مطمعِ

والسعد إسماعيلُ مقصدُه جليلُ

كجدِّه يميل لكسبِ مجدٍ أرفعِ

فخر بمصر .. وإشادة بجيشها

وردت هذه القصيدة فى مقدمة ترجمة كتاب « **مواقع الأفلاك فى وقائع تليماك** » (ص ١٥) ، وهى تعزف على نفس نغمة الشعر الوطنى الذى كتب فيه رفاعة كثيراً ، ولا سيما فى مقدمة « تليماك » . ولكن الجديد — فى هذه القصيدة — أنه يضيف إلى فخره بمصر عنصراً جديداً .. وهو الحديث عن الجيش المصرى الذى يشبهه بالأسد التى « ترعب الخصما » . وكأن رفاعة بهذا يريد أن يفتخر بكل ما يتصل بوطنه . وهنا نلاحظ أنه حاول — فى نفس المرحلة التى بدأ فيها مدحه للأسرة الحاكمة واضحاً — أن يُعلى من صوته ويزيد من فخره بوطنه **دفاعاً عن شك قد يثار** ، ودرءاً لطعنٍ قد يقال حول مدحه .. والقصيدة من مجزوء الوافر .

لقــد عــزتْ منازلُنا ... علينـــا من ينازلُنا

منــارُ عزيزنــا عــال ... له خضعتْ عواذلنـــا

ألا يا مصرُ قــد وافىَ ... عزيزُك والهنـــا صافىَ

حبـانا منـــه إنصـــافا ... وعدلا من يعادلنـــــا

ألا يا مصرُ فابتهجــى ... بحـكم عزيزك البهجِ

به ترقىْ ذُرَى الدرجِ ... وبالحسنى يعـــاملنا

فهــذا مثــلُ والــده ... رشيدٌ فى مقـــاصده

بطـــارفِه وتالــدِه ... تعـود لنـــا فضائلنا

ممالكُ مصر معمـــوره ... وبالخيراتِ مغمـــورهْ

مآثر مصرَ مشهـوره ... بها التـاريخُ واصلنـا

شدتْ بعجائب الزمـنِ ... بدتْ بغـــرائب المدنِ

وفتْ بمنـاقبِ الوطـن ... معالمنـــا تداولنـــا

فمَن للمجــد أن يشهدْ نجــازَ مقاصدٍ تُحمد
بهمــة نجــله الأوحد بهــا راقتْ مناهلنــا
فوادى النيــل بالطبعِ غدا متمكنَ الوضعِ
وقطبُ دوائر النفــعِ ومركــزها أساكلنــا(١)
ولمــا مستْ الحــاجه كسونــا نيلها تــاجه
فهل«صورٌ» و«قرطاجه» عن العليــا تُسائلنــا
لفتــح الترعةِ الكبرى بغرب النيــل فى مصرا
تجــددُ للغنــى عصراً بــه تسمو منــازلنــا
غروسُ صعيدنا تسمو صنوفُ نبــاته تنمو
وحــان لمجــده يــومُ تمنــاه أوائلنــا
مدارسُ مصر قد عادتْ وعدةُ أهلها ازدادتْ
وفى الآفاقِ قد سادتْ بجــدٍ من يهازلنــا
لنــا فى سابقِ المجــد سباقٌ بــاءَ بالرشــدِ
وكم فى حــوزة الحدِّ سعاداتٌ تُقابلنــا

* * *

ننظمُ جنــدَنا نظما عجيبــاً يُعجز الفهما
بأسدٍ ترعب الخصْما فمن يقــوى يناضلنــا
رجــالٌ ما لهــا عَددُ كمالُ نظــامها العَدَدُ
حلاها الدرعُ والــزردُ سنانُ الرمح عاملنــا
وهل لخيــولنا شبــهُ كــرائمُ ما بهــا شُبَهُ
إليهــا الكل منتبــهُ وهل تخــفى أصائلنا
لنــا فى الجيش فرسانُ لهم عنــد اللقا شانُ

(١) أسكال : جمع سكل ، مرفأ ، ميناء .

وفى الهيجاءِ عنوانُ ... تهيمُ به صَواهِلنا
فها الميدانُ والشُّقرا ... سقتْ أُذن العِدا وقْرا(١)
كأنا نرسلُ الصقرا ... فمنْ يبغى يراسلنا
مدافُعنا القضا فيها ... وحكمُ الحتْف فى فِيها
وأهونُها وجافيها ... تجودُ به معاملنا
لنا الرؤساءُ أبطالُ ... رجالٌ أينما جالوا
بصولة عيلمٍ صالوا ... يفوقُ الحدَّ صائلنا(٢)
لنا فى المدنِ تحصينُ ... وتنظيمٌ وتحسينُ
وتأييدٌ وتمكينُ ... منيعاتٌ معاقلنا
زمانٌ بالهنا أقبلْ ... وماضى العزمِ مستقبلْ
عزيزٌ نال ما أمّلْ ... به نطقتْ دلائِلنا
ويرقى صَهوةَ المجدِ ... ويصعد مدرجَ السعْد
بإقبالٍ بلا حدٍّ ... به تشدو بلابلنا
يُداوى الحربَ بالسلم ... ويُعطى الطبَّ للكلم
ويشفى الصدرَ بالحِلْمِ ... بهذا عمّ طائِلنا

---

(١) الشقرا : ح شقراء = بيضاء ، وهى صفة لموصوف محذوف يجوز أن يكون الخيل أو السيوف .

(٢) العيلم : الضبع الذكر — الصولة : السطوة والشدة فى الحرب .

إشادة بجند مصر

وردت هذه المقطوعة فى « مختارات من كتب رفاعة » (ص ٢١٤) بعنوان « منظومة وطنية مصرية » .. وهى من مجزوء الكامل .

يا جندَ مصر لكم فخارْ بين الورى عالى المنارْ

كالشمس فى وسط النهار صيتٌ لكم فى الكون سار

حادى السعودِ به حدا والطيرُ صاح وغرّدا

بُشرى لمصر لقد بدا فيها الفخارُ مُؤيَّدا(*)

بأميرها بحرِ النّدى أعنى السعيدَ محمدا(١)

اللهُ أيّد نصركم والذِّكْرُ شرَّف مصركم(٢)

والعدلُ أذهبَ إصركم والفضلُ حالفَ عصركم(٣)

والوقتُ طابَ وأسْعدا والعزٌّ عاد كما ابتدا

ما مجدُكم إلا قديمْ والعزٌّ فيكم مستديم

وعدوكم أبداً عديم أما الحبيب أو النديم

فبعَهْدِكم قهرَ العدا وسقاهمُ كأس الردّى

أسلافكم حازوا الشرفْ سلفٌ مضى نعم السلفْ

كونوا لهم أسمى خلَف كلٌّ بفضلهم اعترفْ

من فى مكارمه اقتدى بأبيه لا شك اهتدى

من حين عهد « سزستريسْ » كان الحرب لها مسيسْ

ألقى المهابة والرَّسيس فى كل جيش أو خميس

صيدا وصور انحدا ولمصر قد مدّا يدا

---

(١) هذه إشارة إلى أن الشاعر يمدح الخديو سعيد .

(٢) الذكر : القرآن الكريم . (٣) إصر : ظلم .

(*) هذا البيت وما يليه (٤ ، ٥) يجب أن يكررا كل ثلاث أبيات لأنهما لازمة فى النشيد .

ضُبَّاطُكم غُرٌّ كِرامْ ... ولهم لدى الهيجا غَرام(١)
الجُبْنُ عندهم حرام ... وهم إذا سلوا الحسام
تَجِدُ الرءوس من العدا ... خَرَّتْ رُكوعاً سُجَّدا
حركاتهم طِبقَ الأصولْ ... قرأوا البنودَ مع الفصول
حازوا الإطاعة بالوصول ... وشجاعةٌ عظمى تصول
تَدَع العدوَّ منكّدا ... فَزِعاً إذا سمع الندا
فلتحفظوا عِلم النزالْ ... وتثبتوا بين الرجالْ(٢)
وتجلَّدوا فى كل حال ... فمجالكم أعلى مجال
والعمرُ مقدور المدى ... أجلٌ له قد حُدِّدا
فالعزُّ فى فنِ السلاحْ ... يحلو السلاحُ مع الصَّلاحْ
للدين والدنيا نجاح ... وختامُ مِسْكِ القول فاح
خبرٌ يصحُّ بالابتدا ... فتبصَّروا فى المبتدا

---

(١) هكذا فى الأصل ، ولكن الصحيح « عرام » بالعين المهملة المضمومة .
وعرام : الجيش بمعنى كثرته وشدته .
(٢) النزال : الحرب والقتال .

حب الوطن

وردت هذه المقطوعة فى نهاية كتيب بعنوان « مقدمة وطنية مصرية » (لحضرة رفاعة بك ، ويقع فى ست عشرة صفحة من القطع المتوسّط ط. بولاق ١٢٨٣ هـ) . وهو يبدأ بحمد الله والصلاة على رسوله ومدح عزيز مصر إسماعيل باشا ، ثم يستطرد إلى بيان أهمية حب الوطن « فإن حب الوطن من الإيمان ، ومن طبع الأحرار إحرازُ الحنين إلى الأوطان ، ومولد الإنسان على الدوام محبوب ، ومنشوه مألوف له ومرغوب ، ولأرضك حرمة وطنها ، كما لوالدتك حق لبنها ، والكريم لا يجفو أرضًا بها قوابِلهُ ، ولا ينسى داراً بها قبائله » .

وينتقل بعد الحديث عن حب الوطن العام إلى حب الوطن الخاص ، ويبين تعلقه ببلدته طهطا ، ثم يذكر .. « فأخذتُ فى أثناء رمضان المعظم (١٢٨٣) كتابى باليمين ، لأربض فى ديارى ربض الليث فى العرين ، وأجمع الحواس مشتغلا بما فى يدى من الترجمة والتأليف ، مع آداب الدعاء لولى النعم فى هذا الشهر الشريف ، ومن عادتى أنى فى أثناء السياحة كالإقامة ، أجيد النظر وأجيل الفكر فى كل رحلة ومقامة ، لأروِّح الخاطر بما تجددَ من المحاسن والمآثر .. » .

وبعد أن يذكر ما حل بطهطا من إنشاءات حديثة « لا سيما وابورات الروضة البهية ، وما حولها من المزارع النضرة الزهية » ، يعبّر عن قوة إيمانه بحب مصر قائلا :

دیارُ مصر هی الدنیا وساكنها ... هم الأنــامُ فقابلْها بتفضيلِ

يا من يُباهي ببغــداد ودِجلتها   مصرُ مقدمةٌ والشرحُ للنيل(١)

وبعد هذه المقدمة عن مصر وإسماعيل .. وعن طهطا وحاكمها الأغا عبد العال يختم الكتيب بقوله :

« وقد وجب علينا أن نصيغ هنا – وطنية بهية من بحر « **المتدارك** » ، على أسلوب حركة السرعة ، إحدى الحركات العسكرية .

نعمَ ما قالَ السادةُ الأولْ   أوّلُ الفكرِ آخرُ العمل »

(وقد اختصر جامعو كتاب « مختارات من كتب رفاعة » جزءاً من المقطوعة رغم قصرها ، دون سبب واضح يبرر ذلك) .

ومن خلال هذه المقطوعة – وغيرها مما سبق أن أثبتناه من شعرٍ لرفاعة – تتضح مجموعة من الحقائق النقدية :

الأولى : أنه يستخدم فى هذه المقطوعة الوطنية – التى تصلح لأن تكون نشيداً حماسياً – بحر « المتدارك » إدراكاً منه بأن موسيقى ذلك الوزن أقرب إلى السرعة والخفة وأنسب للإنشاد الحماسى ، مما يدل على وعيه بما بين الموسيقى والمعنى فى الشعر من علاقة .

ولكى يثرى الطابع الغنائى فى المقطوعة نجده يكتبها فى شكل « الرباعية » ، كما يكرر المقطع الأول الذى يسميه « مذهب » بين مقاطعها المختلفة التى يسمى كلاً منها « دور » . إن الشاعر العربى « حين اتجه إلى تنويع القافية فى الموشحات والأزجال متأثراً بالعامل المضاد وهو « التنويع » كان أقرب إلى الثّراء الفنى ؛ ذلك أن تأثير اللحن يرجع إلى الشعور « بالشوق » لعودة المفتاح . وإن استخدام مفتاحيْن للّحن الواحد يُضاعف هذا الشوق »(٢).

---

(١) هذان البيتان للشيخ الأديب زين الدين أبو حفص عمر بن مظفر بن عمر الوردى الشافعى المصرى . وهو من رجال القرن الثامن الهجرى ، وله مجموعة من المقامات والأشعار ، ضمن مجموعة من الكتب بعنوان « لامية العرب » يتبعها شرح ابن دريد ، ثم أدب الوردى وديوان اسماعيل الخشاب ، ط الجوائب ، القسطنطينية ، الطبعة الأولى ، ١٣٠٠ هـ ، ص ١٧٦ .

(٢) شكرى عياد : موسيقى الشعر العربى ط . دار المعرفة – ١٩٦٨ ص ١١٤ .

الثانية : إن العبارة الشعرية عند رفاعة (تقليدية) المعنى والمبنى ؛ فدلالة الكلمة عنده لا تخرج عما هو مألوف ومتداول ولا يبتعدُ كثيراً عن معناها المعجمى ، لذلك تبدو أحياناً أقرب إلى الإشارية والتقريرية . كما أن تقليدية المبنى عنده تتضح فى حرصة على النسق الطبيعى لبناء [الجملة دون تقديم أو تأخير أو حذف ، لحرصه على سلامة التركيب بأكثر من حرصه على فنيّته .

الثالثة : إن رفاعة كان يكتب شعره فى إطار المناسبات العامة ، أو فى فلك همومه الفكرية الخاصة ، لذلك فقد كان الشعر عنده (تابعاً) لمجمل نشاطه الاجتماعى والفكرى . وهذا ما جعل شعره يأتى فى مرحلة تالية .. ودرجة أدنى بالنسبة لمجمل تراثه .

(مذهب)

من أصل الفطـرةِ للفطِنْ — بعد المـولى حبُّ الوطـنْ

هبةٌ منَّ الوهـّابُ بهـا — فالحمـدُ لوهـّاب المنن

(دور)

للموطـن كـلٌّ ينتسـبُ — ومعـاهدُه أمٌّ وأبُ

فصحيـحُ العـزِّ له سبب — يستملكُ صـباً ذا شَجنْ

(مذهب)

من أصل الفطـرة للفَطن — بعد المـولى حب الوطـن

هبةٌ منَّ الوهـّابُ بهـا — فالحمـدُ الوَهـاب المنن

(دور)

لمـا وجـدوه دارَ حمىً — وصلوه وما قطعوا رَحِما

تخـذوه لمأمنهم حـَـرَما — يُفـدى بالـروح وبالبدن

(مذهب)

من أصل الفطـرة للفَطن — بعـد المـولى حب الوطن

هبة منَّ الوهـاب بهـا — فالحمـد لوهـاب المـنن

(دور)

فى الدنيـا مصر أجلّ وطنْ يدُهـا عليـا فى كل زمنْ
فلكم قهـرتْ شاماً ويمـنْ فانقـادَ الشامى واليمـنى

(مذهب)

من أصلِ الفطـرة للفطن بعـد المـولى حب الوطن
هبة منّ الوهـابُ بهـا فالحمـد لوهـاب المنن

(دور)

والآن تسـامتْ دولتهـا وبإسماعيـلٍ صولتُهـا
لو جالت عَظُمَتْ جولتها من أرضِ الروم إلى عدنْ

(مذهب)

من أصلِ الفطـرة للفطن بعـد المـولى حب الوطن
هبة منّ الوهـاب بهـا فالحمـد لوهـاب المنن

(دور)

للمصريين الوقتُ صفـا إذا موطنهم نال الشرفـا
كلٌّ بالمجـد قد اعـترفـا لعزيزِ العـصر المؤتمـن

(مذهب)

من أصلِ الفطـرة للفطن بعـد المـولى حب الوطن
هبة منّ الوهـاب بهـا فالحمـد لوهـاب المنن

(دور)

وعـزيزُ الموطـن نخدمهُ برضاً فى النفس نحكّمه
مـالُ المصرىّ كذا دمـهُ مبذولٌ فى شرفِ الوطـن

(مذهب)

من أصلِ الفطـرة للفطن بعـد المولى حب الوطـن
هبة منّ الوهـاب بهـا فالحمـد لوهـاب المـنن

(دور)

تَفَـديه العينُ بناظرِهـا — والنفسُ بخـير ذخائرهـا
تُهدى فى نيـلِ مظاهرهـا — لشِرا العليـا أغلَى ثمن

(مذهب)

من أصل الفطـرة للفطن — بعـد المولى حب الوطـن
هبة منَّ الوهـاب بهـا — فالحمـد لوهـاب المنن

(دور)

فرعيته الغـُـرّا(١) سعِدتْ — إذ عنها الآصارُ(٢) ابتعدت
ومفاصِل من عادى(٣) ارتعدت — للصادقِ صفوُ العيشِ هنى

(مذهب)

من أصل الفطـرةِ للفَطن — بعدَ المـولى حبُّ الوطـن
هبة منَّ الوهـاب بهـا — فالحمـد لوهـاب المـنن

(دور)

قرِّى عينـاً ثم ابتهـجى — يا مصرُ بمـولاكِ البهِـج
ملكٌ فى عشقِ المجد شجى — والمجـدُ طـراز للحَسن(٤)

(مذهب)

من أصل الفطـرة للفطن — بعـد المولى حب الوطـن
هبة منَّ الوهـاب بهـا — فالحمـد لوهـاب المنن

(دور)

فالمجـد له قد مدَّ يدا ... — وتخـير توفيقاً عضُـدا
من جدَّ ورامَ عُـلاً وجدا — والحمدُ لوهاب المـنن

---

(١) الغرا : الشريفة أو العزيزة .

(٢) آصار : جمع آصر وآصرة بمعنى الشدة ، والإصار : هو القيد الذى يضم عضدى الرجل

(٣) من عادى : عدوه .

(٤) شجى — بتشديد الياء .. ولكنها خففت لضرورة الشعر : شجاه العشق : شغله وشوقه وهيج حزنه . وهناك قول مأثور « ويل للشجى من الخلى » أى ويل للمشغول بالحب من الخالى .

حب مصر فرض عين

هذه قصيدة فى التغنى بحب مصر ، وتحميس أبنائها ليصلوا إلى ما وصل إليه أجدادهم منذ أيام الفراعنة . وهى فيما يبدو كتبت مدحاً لسعيد باشا .. غير أن المدح يبدو ظلاً هامشياً بجوار المضمون الأساسى .. وهو حب الوطن .

وقد وردت فى كتاب « وطنية شوقى » لأحمد الحوفى (ص ٣٩) ولم يشر إلى مصدرها . وهى تأخذ شكل النشيد الذى أكثر منه رفاعة فى شعره وطنى .. لأنه كان يؤلف — فيما يبدو — حتى ينشده التلاميذ أو الجنود ، والقصيدة من بحر الكامل .

يَا سَعْدُ أَتْحِفْ مَسْمعى بصَبَا الصَّباحْ

وتغَنَّ لى بمحاسـنِ البيضِ الصِّباحْ

وقْتِى صَفا فى مصرَ لا واشٍ ولاَحْ

فى دَولةِ الإِقْبالِ عَرفُ المجدِ لاَحْ

بُشرى لمصر سعدُها بالعـزّ لاحْ و (سعيدُها) بالفوز ساعدَه الفلاحْ

أبناءَ مصر نحن موطننـا أصيلْ

حسبٌ عـريقٌ زانه مجدٌ أثيـل(١)

وفخارنا فى الكون جلّ عن المثيل(٢)

لرحابنا تُطـوى المهامه بالطلاح(٣)

بشرى لمصر سعدُها بالعـزّ لاحْ (وسعيدها) بالفوز ساعده الفلاح(٤)

نحن السراةُ وشأننـا حب الوطن(٥)

ولشأننا السامى تزاحم من قطـن

---

(١) أثيل : عريق .
(٢) المثيل : الشبيه .
(٣) المهامة : الصحارى ؛ الطلاح : النوق المؤهلة .
(٤) سعيد : الخديو سعيد .
(٥) السراة : جمع سرى : الشريف ، صاحب المجد .

شانى حِمانا ليس من أهل الفطن(١)
فهو الدعىُّ وعِرضُه شرعاً مُبـــاح

بشرى لمصر سعدُها بالعـــزّ لاحْ و(سعيدها) بالفوز ساعده الفلاح

وطنٌ عزيزٌ لا يُهـــان ولا يضامْ
وحمىً تعزُّ من على علياه حـــام
مجدٌ له ، لازال يخـــترق الغمام
عينَ السُّهـــا لفخـــاره ذات التماح(٢)

بشرى لمصر سعدُها بالعـــز لاح و(سعيدها) بالفوز ساعده الفلاح

يا أهل مصر برُّ مصر فرضُ عين(٣)
وفى البر نبذلُ عن رضاً نفساً وعينْ
وإذا الرقيبُ رنا لها بلحاظِ عين
ما عندنا فى فقئهـــا إلا الرمـــاح

بشرى لمصر سعدُها بالعـــزّ لاح و(سعيدها) بالفوز ساعده الفلاح

فى كل قطـــرٍ فى الممالك أو بقيعْ
أضواءُ مصر سرتْ لتنوير الجميع
تدبيرُها فى بدئهـــا سامٍ رفيـــع
فمليكها كافى العيـــالِ به الصلاح

بشرى لمصر سعدُها بالعـــزّ لاح و(سعيدها) بالفوز ساعده الفلاح

---

(١) شانيه : كارهه ؛ الفطن : الذكاء .
(٢) السها : النجوم ؛ التماح : نظر .
(٣) فرض عين : أمر أو فرض واجب مثل الصلاة والصوم .

سيزوستريس لقد أقـــام شئونها(١)

وهو الذى أعطى لهـــا قانونهـــا

قـــوّى معارفها وصاغ فنونهـــا

ورموزه للعـــارفين بها صحـــاح

بشرى لمصر سعدُها بالعـــز لاحْ و(سعيدها) بالفوز ساعده الفلاح

فتـــحَ الممالكَ مشرقاً أو مغـــربا

وأبان عن حبٍّ الفخـــار وأعـــربا

دفعوا الخـــراجَ مقـــرراً ومرتبا

لمليك مصر على وفاقِ الاقـــتراح

بشرى لمصر سعدُها بالعـــزّ لاحْ و(سعيدها) بالفوز ساعده الفلاح

لما نزلنـــا كالسحائب والمطـــر

الجندُ هـــامَ وما تعاطى بل عقر

وبفتْكهِ بالضدّ قد بلـــغ الوتر(٢)

حزنَ العـــدوُّ على خسارته وناح

بشرى لمصر سعدُها بالعـــزّ لاحْ و(سعيدها) بالفوز ساعده الفلاح

فصفوفُنـــا كل الشجاعة جامعهْ

وسيوفنا عند العجـــاجة لامعـــه(٣)

آذاننـــا لندا الإغـــارةِ سامعـــه

بعزيمةٍ عُظمى تنـــادى : لا براح

(١) رفاعه يشبه الخديو سعيد بفرعون مصر القديم سيزوستريس الذى كان أول حاكم شق قناة تربط البحر الأحمر بالنيل، وفى عهد سعيد أيضاً بدأ التفكير فى حفر قناة السويس !؟

(٢) الضد : العدو ؛ بلغ الوتر : نال ما أراد ، انتصر .

(٣) العجاجة : الحروب .

بشرى لمصر سعدها بالعـــزّ لاحْ و (سعيدها) بالفوز ساعده الفلاح

وشيوخُنا كم مارسوا يوماً عَصيب
وسلاحُهم لاشك فى الأعدا مُصيب
ومن الغنائم أحرزوا أوفى نصيب
خيرُ الليـــالى عندهم ليل الكفاح

بشرى لمصر سعدُها بالعـــزّ لاحْ و (سعيدها) بالفوز ساعده الفلاح

شبابنـا فى فضلهم مثـــلُ الشيوخ
أقدامهم وقتَ النزال لها رسوخ
شم الأنوف على السُّرى لهم الشموخ(١)
كم بددوا شملَ الجموع بلا جنـاح

---

(١) شم الأنوف : كناية عن العزة – السراة : ج السرى ، الأشراف .
الشموخ : الا رتفاع و العلى .

فخر بأمجاد مصر

وردت هذه المقطوعة فى « مختارات من كتب رفاعة » (ص ٢١٢) بعنوان « مقدمة مصرية وطنية » .. وهى من وزن مخلع البسيط .

يا حزْبنَا قمْ بنا نسودُ فنحن فى حزْبنا أُسودُ
عند اللقا بأسنا شديدُ هامُ عدانا لها حصيدُ

نحن البهاليلُ فى المعاركْ نحن الصناديدُ فى المهالكْ
سهامنا أنجمُ الحوالك بنورها يهتدى الوجودُ

نحن ليوثُ الشرى كماةُ نحن لأوطاننا حُماةُ
ونحن بين الورى سراةُ (يبنى ذُرى مجدنا «سعيد»)(١)

جميعُنا يعشق الحروبا وجمْعُنا يألفُ الخطوبا
هل نأنف الهولَ والكروبا وعيشنا عندها رغيد

تحت ظلالِ السيوفِ نُرزقُ ورمحنا الموتُ وهو أزرقُ
بياضُ فجر الفخار أشرقُ به ليالى العدوّ سودُ

فى كل ماضٍ من الزمانِ ماضى سيوفِ الوغى يمانى
ما ثم من بات فى أمان إلاّ له عندنا عهود

لمصرنا سالفُ المزيّهْ قد مدّنتْ سائرَ البريهْ
منها « أثينا » غدت مليه بحكمةٍ قصرُها مشيدُ(٢)

---

(١) ليست موجودة فى الأصل ، وكتبت عوضاً عنه .

(٢) ملية : مليئة .

كالشمس فضلٌ « لعين شمس» وأُنسُ « منفٍ » أجلُّ أنسِ
ووشْى « تنِّيسَ » غيرُ منسى من حسنه الدهر يستفيد(١)

وفخر « طيوى » قديمُ عهد أبوابها محكماتُ عُمْد
وحصرُها عن صحيح عدٍّ فى مائةٍ كلها شهودُ

لفضل مصر أجلُّ مَظْهر وخيرُها للبلاد يُنثرْ
ونيلها العذب فهو كَوثرْ منهلُه زانه الورود

حصوننا سامتْ الشواهقُ أفواهُها تقذف الصواعقُ
إن سامها ماكرٌ منافقُ فى حتمه يَصدقُ الوعيدُ

أهواننا تورثُ الهوانا لكل منْ مالَ عن هوانا(٢)
سعيرُها للذى توانى فهو لنيرانها وَقودُ

فخارُنا فى اقتحام خَطْبِ فنونُ ضربٍ ضروبُ حرْبِ
لحوْزِ سلمٍ وحرْزِ سَلْب وأسرِ أسدٍ لها نَصيد

كرامٌ ضباطنا أكارمُ آدابهم تَبْتغِى المَكارمُ
وهم إذا أقبلَ المصادمُ ليوثُ كرٍ وذا طريد

فى موقف الحرب والمنونِ تطرُ بنا نَغمةُ اللحُونِ
بكل ضربٍ من الفنونِ وبحرُ أهزاجها مديدُ

أيامُنا كلها مواسمُ ثُغورها بالهنا بَواسمُ(٣)
ومن أتى حيّنا يُزاحمُ فنحرُه للنسورِ عيدُ

---

(١) عين شمس : منف ، تنيس ، طيوى « طيبة » : مدن مصرية قديمة .
(٢) أهوان : مدافع .
(٣) بواسم : ج باسمة .

فخر بمصر

وردت هذه المقطوعة فى كتاب « المرشد الأمين للبنات والبنين » ص ٩٢ فى معرض الحديث عن وصف مصر والتغنى بمميزاتها ، ورغم قلة عدد أبياتها فإنها تعكس إحساساً قوياً بحب مصر .. والقصيدة من بحر الكامل .

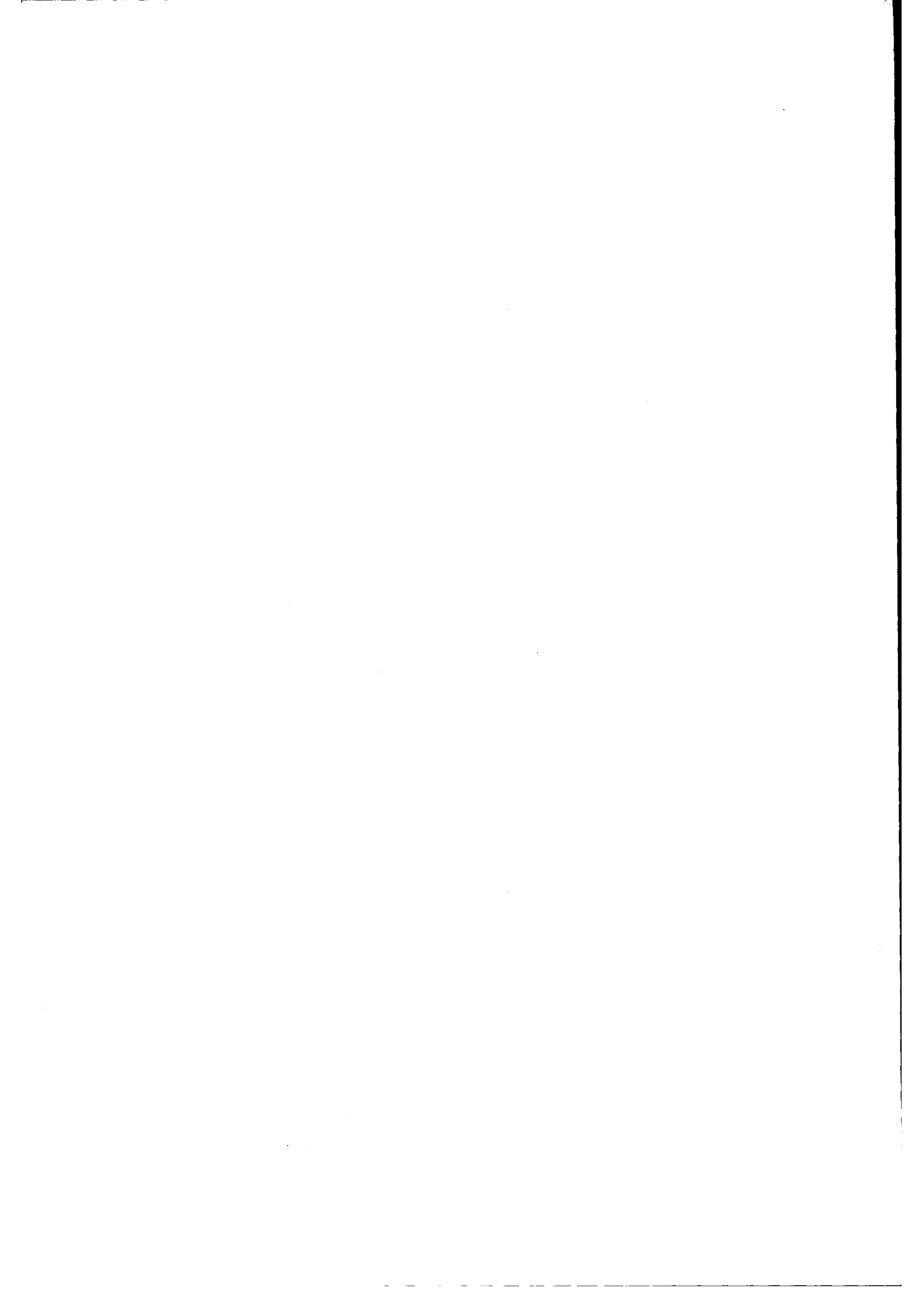
وكنانةُ الله الـتى كم فوّقتْ ... منها – وإن بَعُد العدو – سِهامُ (١)
وقديمة شابَ الزمـانُ وحسنُها ... باقٍ ولم تَهرمْ لهـا أهرامُ
وإذا سَطا حَرُّ الهجير فماؤها ... وهواؤهـا بردٌ به وسلامُ
وغنيةٌ بالنيـل عن نيْل الحيا ... وله أيادٍ فى الوفود جِسـامُ
وعن المطىِّ المثقـلات وحملها ... بالمنشآتِ كأنهـا أعـلامُ
من كل باسطةِ الجنـاحِ كأنها ... لما تَسَيَّرُ بالرياح غَمـامُ
تسرى بمن فيها وهمْ فى غفلةٍ ... وكذا ليـالى الدهـرِ والأيامُ
وعزيزُ مصر على السريرِ تهابةُ الـ ... ـدُنيا ولم يَبعدْ عليـه مَرامُ (٢)

* * *

---

(١) فوّقتْ منها سهام : خرجت عالية مصيبة للأعداء .

(٢) السرير : كرسى الحكم .



الفصل الثالث

شـــعر الوصف

وصف الوابور :

يصف رفاعة فى هذه القصيدة « الوابور » — أو المراكب البخارية التى بدأت تسير فى قناة السويس بعد فتحها للملاحة ، على أساس أنها إحدى معالم الحضارة الجديدة — وفى نهاية القصيدة إشارة إلى أنه أثرٌ من آثار الخديوى إسماعيل الذى له « طول باع فى العمار » .

وأهم ما يلفت النظر فى الأبيات من الناحية الشكلية هو التزامه طوال القصيدة (بقافيتين) داخلية وخارجية فى كل بيـــت .. وهى من مجزوء الكامل . (وردت القصيدة فى « مناهج الألباب المصرية » ص ١٢٦) .

العقلُ فى الوابـور حَـارْ ... نبغى الجـوابَ فلا يُجيرْ(١)
فإذا أردتَ الاختبـــار ... علمـاً به فاسألْ خـبيرْ
فُلْكٌ بأوْج اللـــجِّ دار ... ومن الحضيض لـه مدير(٢)
يَجـرى على عَجل كبار ... فى رسم شكلٍ مستديـر
هو من عطـارد لا يغـار ... فكأنـه الفـلك الأسير(٣)
قد أورث الشمسَ اصفرار ... لمـا عَـلا منه الصفير
قمـرٌ منـازلُه البحـار ... نجمُ السِّماك لـه سمـير
فى كفـهٌ الجوْزا سِوار ... بهـرَ الثريـا إذْ تُشير
والمشترى حَـاز اليَسار ... فغـدا بزهـزته أسـير
ملكٌ له الوحْىُ ائتمـار ... أبداً بأجنـحةٍ تَطـير
وبُراقٌ أسْرى فى القِفار ... يطوى الفيـافىَ إذ يسير
ملكٌ عـلى الأنهـار سار ... وعلى البحـار لـه سَرير

---

(١) حار : تحير — يجير : يرد — لاحظ الجناس .

(٢) فلك : سفينة .   (٣) الفلك : النجم .

بالعــز أكسبهــا الصغار — مع أنـــه جـــرمٌ صغير (١)
قد نال من كسرى اعتبار — لبخـــار عـــنبره عبـــير (٢)
خاقانُ هندٍ خوفِ عـــار — ما هـــاله لهبُ السعـــير (٣)
برْكانُ نارٍ حيث ثـــار — فـــوراً وصار لـــه هدير
أو سائحٌ يهـوى السفـــار — لمصالـــح الدنيـــا سفير
أو عاشقٌ سُلب القـــرار — أو يحسدُ الطرف القرير
فى الحبِّ قد خلع العِذار — ودموع مُقلتـــه غـــدير (٤)
صبٌّ وفى الأحشاء نـــار — شوقاً إلى القمـــر المنـــير
أو شاطرٌ طلب الفـــرار — للأمن من أمـــرٍ خطير (٥)
أو بازُ صيدٍ قد أغـــار — مُغـــرىً على الظبى الغرير (٦)
أو ظبيُ قـــاعٍ ذو نِفـــار — يعدو إذا عمّ النفـــير
البرقُ سرعتَهُ استعـــار — والوُرق منـــه تستعير (٧)
ويرى الرياح بالاحتقـــار — فهبوبُهـــا معـــه حقـــير
طـــرفٌ تسايره الـــدرار — ليـــلاً فتخجل فى المسير
لليـــل يطوى والنهـــار — وبه ازدهى الزمنُ الأخير
ما الفعـــل ينسبُ للنجـــار — بل صُنع خـــلّاق قديـــر
بقنـــال مصرَ لـــه منـــار — يسمو بأنفـــاسِ الأمـــير
وبصيتِ إسماعيـــل طـــار — فى الكون بالجـــود المطير
وبعـــدله لمّـــا أنـــار — فى الأفـــق كالعلم الشهير
هذا عزيزٌ ذو وقـــار — وللمظهـــر العليـــا ظهـــير
وطويلُ باعٍ فى العمـــار — يمتـــاز بالعمـــل الكثير
للعـــدل قـــد شـــدّ الإزار — (توفيقُـه) نعمَ الوزيـــر
عشْ يا عزيزُ أخـــا انتصار — ولمصر دُمْ أقـــوى نصير
بالمجـــد كم شدتَ الجدار — ولأنتَ بالعليـــا جدير
كاثرْ ـــ فكأسُ الأنسِ دارــ — ربَّ الخـــورْنقِ والسّديرْ

---

(١) جرم : حجم . (٢) كسرى : ملك الفرس . (٣) خاقان : ملك .
(٤) العذراء : الحجاب . (٥) شاطر : لص . (٦) باز : صقر . (٧) الورق : الحمام .

تهنئة بمظاهر الحضارة الجديدة

مدح الطهطاوى الخديو اسماعيل بهذه القصيدة وأشاد بما أدخله من مظاهر الحضارة الجديدة فى مصر « مركز الدنيا جميعاً » .. لذلك آثرنا أن نضعها فى إطار شعر الوصف ، على أساس أنه يمثل المحور العام لبنية القصيدة ، وفيها نرى رفاعة محتفياً بالتغيرات الحضارية الكثيرة التى دخلت مصر أكثر من احتفائه بمدح الحاكم .. أى أن هذا النص يعكس سعادة ذلك المصلح بتحقق ما كان ينشده من تقدم وتطوير لكافة نواحى الحياة فى مجتمعه .. والقصيدة من مجزوء الرمل .

وقد نشرت فى العدد الأول من السنة الثالثة فى مجلة « روضة المدارس » – (١٥ محرم ١٢٨٩ هـ – ١٨٧٢) مسبوقة بهذا التقديم :

« قال مهنئاً الخديو بالعام الجديد ، مع ذكر ما جدده فى مصر الجليلة على وجه عام » .

خلِّ برلينَ ولندنْ ... يَصعدا أوْجَ التمدُنْ

واعتصمْ بالنيل تَسعدْ ... واسلُ جَيحونَ والأردنْ

واطَّرح أنسَ دمشق ... وانسَ بغداد والأرزن

مدْحُ مصر اليوم يَحسُن ... أفصحتْ بالمدح ألْسُنْ

روضُ واديها خصيبٌ ... فيه للنيلِ التَّسلطن

إن نقلْ جنةَ عدن ... منك لا تُطلبُ أيمن

تحتها الأنهارُ تجرى ... وبها التنعيم يقطن

مركزُ الدنيا جميعاً ... منذُ أدوارٍ وأزمن

وأريبٌ حلَّ فيها ... يصطفيها للتوطن (١)

منزهٌ زاهٍ بهىَ ... بالتزيِّى والتزيُّن (٢)

لا تزنْها بسواها ... فهى عند الوزن ترْزُن (٣)

ذِكْرُها فى الذِّكْرِ يَقضى ... لعُلاها بالتمكّن (٤)

كيف لا تنمو وفيها ... روحُ جثمانِ التَّيَمُّن

(١) أريب : عاقل .

(٢) منزه زاه : بستان جميل .

(٣) ترزن : تثقل .

(٤) الذكر : القرآن .

إن إسمـاعيـل أصـلٌ حولَه الأنجـالُ أغصُن
قد حـذوْا حـذوَ أبيهم صوبَ عطفٍ وتحـنُّـن
سرُّ توفيـقِ إلـهٍ أمـرُه فى قـول كُـن
أسكـنَ المُلْكَ ببيتٍ لم يكنْ لـولاه يُسكـن
وارتقتْ مصـر مقاماً عنـده الأقيـالُ تجبن(١)
أشرقتْ فيهـا شموسٌ نورتْ أفـقُ التفطُّـن (٢)
كم فنـونٍ مبدعـات زانهـا حسنُ التَّفتُنْ
وتعاديلك أصـولٌ طبـقَ منهـاج التديُّن
وقوانـينُ تجـار قصدُ ترويـح التدهقـن
جنـدُهـا بـراً وبحـراً لا يُبـارَى فى التمـرُّن
فهُمو أسـدُ عـرينٍ سيفُهم للفتـكِ برثن
كم جَـوارٍ منشآتٍ بلغـاتِ البحـر ترطن
سفنُ إسمـاعيل قـالت افترضْ ما شئتَ واستَنْن
حوّلَ الـبرزخَ بحـراً ونسيمُ السعـدِ يَسفـن(٣)
ومنيعـاتُ بـروجٍ محكمـاتٍ فى التحصّن
كم طـريقٍ من حـديدٍ تسبقُ الطَّـير فيمكن
وبريـدٌ كهـربائى وحنيـه لمحـةُ أعـين(٤)
ووبـوراتُ ميـاه كجبـالِ النـار تُدْخِن
ومبـانيهـا العـوالى كمعـالى الملكِ ترصُـن
كم بهـا من سلسبيـل كوثرىٍّ ليس يتأسـن
عينـه العـذبةُ منهـا عينُ أهـل الحقدِ تَسْخن

---

(١) الأقيال : الملوك العظام .
(٢) التفطن : الذكاء .
(٣) البرزخ : الخليج ، وهو يشير إلى فتح قناة السويس .
(٤) البريد الكهربائى : التلغراف .

وشموسُ الغازِ بجلو نورَها ما كان يَدجن(١)
منظرُ الألعاب يسمو بأعاجيبِ التلوُّن
وجيادُ الخيل قالت قدر بَحنا السبقَ فامنن
مصرُ إسماعيل نالت صفوَ عيشٍ ليس يأجن
سل قُراها كي تراها ألفتْ وصفَ التحسن
وبَوادى كل وادى أنفتْ طبعَ التَّخشُّنْ(٢)
فلنهنئْهُ بعامٍ ذى سُعودٍ عن تيقُّنْ
كسنينٍ تتوالى بدلالاتِ التضمن
فاحفظَ بالبُشرى وأرِّخْ دَوْرَ تقديمِ التمدُّن

٥٢٥ ٥٥٤ ٢١٠

١٢٨٩ هـ

---

(١) شموس الغاز : مصابيح الغاز .

(٢) بوادى : جمع بادية ، والشاعر يشير إلى أن اسماعيل أدخل الحضارة إلى المدن والبوادى فصارت تأنف من الطبع الخشن (البدوى) .

وصف مهرجان فرح الأميرة زينب

كتَبَ الطهطاوى هذه المقطوعة ليصف فرح الأميرة زينب ابنة اسماعيل، وقد وردت فى « الكواكب النيرة » (ص ٢٢)، كما نشرت فى « الوقائع المصرية » فى ٢٠ مايو ١٨٧٣ — العدد (٥٠٨) .. وهى من بحر الطويل.

رعى اللهُ مصراً فهى أبهى كنانةٍ ... حُلاها مدى الأيام واسطةُ السِّلكِ
نراهـا باسمعيل أعذبَ مـوردٍ ... به أبحـرُ العـرفان جاريةُ الفلكِ
بها المشتهى الأشهى فلو قـال قائلٌ ... بها جنةُ الفردوسِ ما جاء بالإفكِ
وما هى إلا غـادةٌ تسلبُ النهى ... بها جمعتْ بين الخـلاعة والنسك
كواكبُ أفـراح العـزيز بأفقها ... كصبح يقينٍ قد جلا ظُلمة الشك
ورناتُ أنغامِ المعـازفِ أطربَت ... كأن قيان الجن تعبثُ بالجنك(١)
وملعبُ بـالٍ بالحسانِ منـعمٌ ... عيـونُ غوانيه تغازلُ بالفتك(٢)
رياضةُ رقصٍ فى كمَالِ منـزهٍ ... عن الريبِ موزونٍ على التمّ والتك(٣)
وكم من فتاةٍ فيه سكرى بلا طِلا ... يُراقصها السنيور لطفاً مع السبك(٤)
وفيه صَفىٌّ البـالِ بالرقصِ مغرمٌ ... يقول لذات الخـالِ لابد لى منك
تميسُ كغصنِ البانِ عطفاً وتنثنى ... وتفترُّ عن برقٍ تألـق بالضحك
ولولا الحيا والدينُ والعلمُ والتقى ... لقال حليفُ الزهد قد طابَ لك تنسكى
ومجلسُ أنسٍ قد تعطـرَ روضُه ... وأرجاؤه فاحتْ بها نفحةُ المسك
وفى الجو تقليـدُ النجـوم منيرةٌ ... صواريخُ أنوارٍ لشهبِ السما تحكى

---

(١) الجنك : ربما كانت كلمة تركية تدل على آلة موسيقية.

(٢) البال : كلمة تركية تعنى الحفل الراقص.

(٣) التم والتك : اسما صوت يدلان على حركة الموسيقى.

(٤) طلا : خمر — السنيور : كلمة إيطالية بمعنى السيد.

تَلَوَّنُ كالحـــرباء بل ربما حكتْ يواقيتَ قد مرتْ على حجر الحك
وحلبةُ سبـــقٍ بالجيـــاد يزينهـــا رماحٌ أُعدتْ للطعان بلا شك
بتنظيم أوربـــا تسامى ابتهـــاجُه وما فاته فى الحسن طَنطنةُ التُّرك
ومذ زَهتْ الأفراحُ قلت مؤرخاً بهيجُ العلا تأهيلُ فاميلة الملك(١)

٢٠ ١٤١ ٤٤٦ ٥٦١ ١٢١

سنة ١٢٨٩

ثم يردف بقوله : (ص ٢٣) :

وقلت مؤرخاً أيضاً على طريقة الفرس باحتساب المعجم من الحروف فقط :

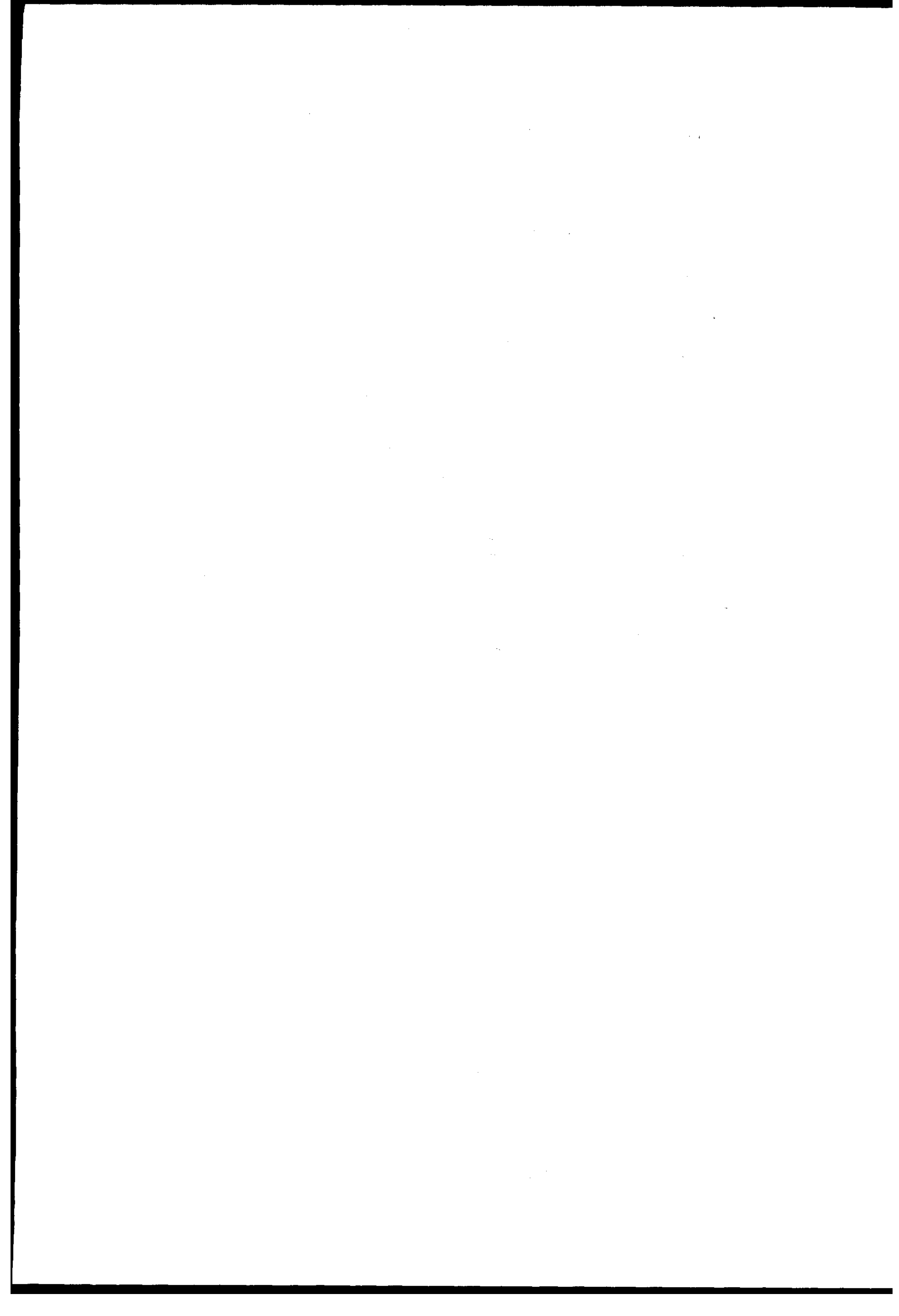
ولما جلَا أفـــراحَ مصر عـــزيزُها رشَفْنا على حبِّ العزيز لمى الراحِ
وطابَ زمانُ الأنس عيشاً فأرخوا زهتْ بكمال السعد أضواءُ أفراحِ

٢٤٠٧ ٨٠٠ ٨٠

سنة ١٢٨٩

---

(٥) فاميلية : كلمة فرنسية بمعنى اسرة — لاحظ كثرة الأسماء الأجنبية فى النص .



الفصل الرابع

فى مدح الرسول

تخميس لقصيدة البُرعى :

تعد هذه القصيدة – من أنضج شعر رفاعة وأطوله ، وهو (يعارض) فيها الشاعر الصوفى عبد الرحيم البرعي(١) ، ويقدم «تخميساً» لإحدى قصائده التى مطلعها : خلّ الغرامَ لصبٍّ دمعه دمُه

وقد كتب رفاعة هذه القصيدة وهو بالخرطوم (١٨٥٠ – ١٨٥٤) ، ونجده بعد الانتهاء من مدح الرسول ، يتشفع به ليكشف عنه ما هو فيه من آلام الغربة ، كما يشير إلى وشاية عصبة حاسدة ، كانت مكائدها سر إبعاد الخديوى عباس له .. والقصيدة من بحر البسيط .

و هى تعد مثالا لشعر « المعارضة » عنده ، وتعكس بعض سمات تجربته الشعرية ، وتقاليده الفنية ، فى فترة متأخرة من حياته. كما أنها تعكس أيضاً وعيه بتقاليد التراث الذى يعارضه ، حيث يجارى شعراء المدائح النبوية مثل البوصيرى والبرعي وغيرهما فى بدء المديح النبوى بالغزل الصوفى ، كذلك فإنها من القصائد القليلة عنده التى تعبر عن قدر من النجوى الذاتية والخواطر النفسية أثناء مرارة الغربة وقسوة المنفى ، على الرغم من أنه احتفظ فى كل مقطع ببيتٍ للبرعى جعله يُمثل الشطريْن الرابع والخامس .

وقد وردتْ فى « مناهج الألباب »صفحة ٢٦٩ .

---

(١) عبد الرحيم بن أحمد البرعى اليمنى ، شاعر صوفى من رجال القرن الخامس الهجرى ، وله ديوان مشهور بدأه بالقصائد الربانية ، ثم النبويات ثم الصوفيات ثم الوعظيات . وله أيضاً ديوان آخر باسم (مولد النبى) وكلاهما طبع فى القاهرة طبعات كثيرة .

تُبْدِى الغرامَ وأهلُ العشق تكتمُه ... وتدّعيه جِدالا منْ يُسلّمهُ
ما هكذا الحبُّ يا من ليس يفهمه ... خلِّ الغرامَ لصبٍ دمعُه دمُه
حيران توجدُه الذكرى وتعدمُه

دعْ قلبَه فى اشتغالٍ مِن تقلُّبه ... ولبَّه فى اشتعالٍ من تلهُّبه
واصنعْ جميلَ فعالٍ فى تجنبه ... واقنعْ له بعلاقاتٍ عَلِقنَ به
لو اطَّلعت عليه كنتَ ترحمُه

فؤاده فى الحمى مسعى جآذرِه ... وفى نجوم السما مرعَى نواظرِه(١)
فيا عذولاً سعى فى لوم عاذره ... عذلتَه حين لم تنظر بناظره
ولا علِمتَ الذى فى الحب يعلمه

أما ترى نفسه مَرعَى الهوَى انتجعتْ ... وساقها الحبُ فانساقتْ ولا رجعتْ
فاعذرْ أو اعذلْه ماورْقُ الحِمى سجعتْ ... لو ذقتَ كأس الهوى العذرىّ ما هجعتْ
عيناك فى جُنح ليلٍ جُنّ مظلمه

ولا صبوتَ لسلوانٍ ولا مللٍ ... ولا جنحتَ إلى لومٍ ولا عَذلٍ
ولا انثنيت لخطبٍ فى الهوى جللٍ ... ولا ثنَيت عنانَ الشوق عن طلل
بالٍ عفتْ بيدالأنواء أرسمُه

فكيف ناقشته فى أصل مذهبهَ ... وما تحرَّيتَ تحقيقاً لمطلبه
فوالذى صانه عن وَصمةِ الشبه ... ما الحبُّ إلا لقومٍ يُعرفون به
قد مارسوا الحبَّ حتى هان معظمه

تجيبه إنْ دعا للوعدِ أُمتُه ... وعزمه بينهم سامٍ وهمتُه
قومٌ لديهم بيانُ الحب عجمته ... عذابه عندهم عذبٌ وظلمته
نورٌ ، ومغرَمه بالراء مغنمَه(٢)

---

(١) جآذر : ج جؤزر ، وهى كلمة فارسية بمعنى ولد البقرة الوحشية ، والمقصود هنا الفتيات الجميلات .

(٢) أى أن المغرم هو المغنم .

يا منْ دعاهُ هــواه أن يعاشرَهم اسلكْ مشاعرهم والزمْ شعائرَهم
وإن تكلّفتَ أن تـدرى أشايرَهم كلّفتَ نفسك أن تقفــو مآثرهم
والشىءُ صعبٌ عــلى من لس يُحكمُه

فى حب ليلى خلىُّ البـال يعذلُنى إن لم أغالط فما ينفكُّ يخـذلنى
فوالذى منزلَ العشاق ينزلـــنى إنى أورِّى عذولى حين يسألنى (١)
بزينبٍ عن هـوى ليـــلى فأوهمه

كم فى الهوى والنوى قاسيتُ من ألم وكم ملأتُ طروسَ العشق من كلم
وكم سهرتُ سميرَ النجم فى الظلم وطالمـا سجعتْ وهْناً بذى سلَم
ورْقــاءُ تعـجم شكــواها فأفهمــه(٢)

ما السحبُ إلا دموعُ العــين باكيةً ولا لظىَ غــير أحشائى محـاكيةَ
لا شك أنى أناغى الــوُرق شاكيةً وتثنى عذباتِ البـــان حاكيةَ
عِلمَ الفــريقِ فأدرى ما ترجمُـــه

* * *

إمامُ عشقٍ تَوَلّى نصرَ ملّتــه على الوشاةِ وفاداهــا بمهجتــه
نادى وقد ذابَ وجداً مع ثنيتــه يا من أذاب فــؤادى فى محبته
لو شئتَ داويتَ قلبــاً أنت مُسقمــه(٣)

متى بربْــع صحابى أبلغُ الأملا فكم سقى ماءُ دمعى السهلَ والجبلا
وما شفى معهداً من ساكنيه خــلا سقى الجبال فرعنَ الطودَ منه إلى
شِعب المريحـاتِ هامى المـزنِ مرهمه

ملثُ غيثٍ يسحُّ الوابلَ الهطـــلا وصيبُ طيبٍ يستخصبُ الطللا(٤)
أضحى بمنهـمر الأنــواء منهملاً وبات يرفض من وادى الخزام على
وادى أرامٍ ، ومــا والى يلملمــه

حيّا منازلُها فيضُ الحيــا وملا أرجاءها من بروقٍ يبتسمْنَ جلا
ولا عدا عن رُباها الجودُ إذْ نزلا يسوقه الرعدُ من خير البطاحِ إلى
أمِّ القُرى ورياحُ البشر تقــدمُه

---

(١) أورى : أرى . (٢) ورقاء تعجم شكواها : حمامة تشتكى بلغة غير مفهومة .
(٣) الشاعر بدأ فى مدح الرسول بعد الانتهاء من الغزل الصوفى .
(٤) ملث : مطر غزير .

سمى جُـــودٍ سريعـــاتٌ نجائبه   ولىٌّ عهد مُريعـــاتٌ رَغائبـــُه
وواكفٌ بالنـــدى تكفى سَواكـبه   وكلما كفٌّ أو كَلّتْ ركائبـُــه

باداه بالرحبِ مَسعـــاهُ وزمـــزمُـــه

ما درَّ من قبـــله غيثٌ يُعـــارضُه   ولا أضرتْ بمسراهُ عـــــوارضُه
تخـــاله وهو لا ريـــحٌ يُنـــاقضه   لما ألثَّ عـــلى البطحاء عـــارضه

عـــلا« المدينـــةَ » برقٌ راقَ مَبْسمـــه

برقٌ بواسمه فى الجو قد سطعتْ   فقهقهَ الرعدُ بالغبْرَا وقد خشعتْ
والرجع سحَّ من الخضرا وما جمعت   سقىَ الرياض التى من روضها طلعت

طلائـــعُ الدين حـــتى قـــام قَيِّمـُـهُ

مغاربُ الأرض طُراً أو مشارقها   تسعى إلى طيبـــةٍ منهـــا خلائقُها
مدينةُ العلمِ هل تخـــفى حقائقها   حيث النبـــوةُ مضروبٌ سرادقها

والنـــورُ لا يستطيعُ الليـــــلُ يكتمه

يلـــوح فى روضةٍ مأثورةِ الشرفِ   درىٌّ كوكبهـــا يجلو دُجى السُّدفِ
والبدر يطلعُ فى أفـــقٍ بلا كلفِ   والشمس تسطع فى خلف الحجاب وفى

ذاك الحجـــابِ أعزُّ الكونِ أكـــرمُه

يا زائراً قـــبرَ خـــيرِ البدو والحضرِ   الثمْ ثرى تربه المعشوشِبِ النضرِ
يلقاك حياً بأهنى عَيْشه(١) الخضرِ   محمدٌ سيد الساداتِ من مُضر

خـــيرُ النبيِّين محيِى الدينِ مكرمـُـــه

عرِّجْ بساحته يمنحْكَ تكرمةً   فلا تخفْ بعدها بغياً ومظلمـــةً
هذا المشفَّع يومَ العـــرض مرحمةً   فردُ الجـــلالة فردُ الجود مكرمةً

فردُ الوجود أبرُّ الكونِ أرحمـُـــه

من فى صَباحته يحكيـــه مبتسما   من فى ملاحته حـــازَ البهـــا وسما
كم أقسمَ الحقُّ باسم المصطفى قسما   نورُ الهدى جوهرُ التوحيد بدرُ سما

ءِ المجـــدِ ، واصفُه بالبدر يَظلمـــُه

---

(١) فى الأصل : عيشة ، بتاء التأنيث فى آخر الاسم .

بطيب عُنْصره طابتْ سريرتُـــه شمائلُ المجـد دونَ الحدِّ سيرتهُ
وسورةُ «الفتح» مثل «الحمدِ» سورته من نور ذى العرش منشاه وصورته
ومنشأُ النــورِ من نــورٍ يُجسِّمــه

من لاذَ من فَزعٍ بالهاشميِّ أَمِنْ أوحادَ عنه فعن سُبلِ الرشاد عَمٍ (١)
بالفضل قد خصّه مولاه وهو قَمِنْ ومُودعُ السر فى ذاتِ النبوة مِن
علمٍ وحلمٍ وإحسانٍ يُقسِّمه

ما حكمةُ الله ألا تُعجز الحُكما قدأبرزتْ للورى أسمى الورى عِظَما
لبُّ اللبــاب تَسامى أصلهُ ونما فذاك من ثمراتِ الكون أطيبَ ما
جاد الوجــودُ به أعـــلاه وأعلمه

سيوُفه بالردى نحـو العـدا لمعتْ وكفهُ بالنـَّدى قبلَ النَّدا همعتْ
صفوفه فى المدا رُوم الهدى اجتمعتْ فما رأتْ مثلَه عينٌ ولا سمعت
أذنٌ كأحمــدَ أين الأيــن نعلمــه ؟

لا تُعزَ روماً وتُركاً أو جراكسةً لحسنه إن فى هـــذا مواكسةً
تقـول آمنــةٌ فيــه منـافسةً أضحتْ لمولــدهِ الأصنامُ ناكسةً
على الرؤوس وذاقَ الخـزىَ مُجـرمه

فلا ترى الفــرسَ للنيران جـانحةً بعد الخمود ولا الأنـوارُ لائحــةً
والمـانويةُ لا تنفـكُّ نائحـــةً وأصبحتْ سُبلُ التوحيدِ واضحة
والكفـرُ ينشــد بهُ بالويــل مَأتمه

كم ظلمةٍ عند أهل الزَّيغ كامنــةٍ قد انجلتْ بيدٍ للنفــع ضــامنةٍ
وعصبةٍ من هجــوم الــروع آمنةٍ والأرضُ تبهجُ من نور ابن آمنةٍ
والعدلُ ترمى ثغــورَ الجور أسهُمُه

فلا ترى كاهنــاً للغيب يسـترقُ كلاً ولا ماردا إلا ويحـترقُ (٢)

(١) عَمٍ : أعمى ، وكان يجب أن تكتب حسب النطق (عَمِنْ) لتناسب القافية .
(٢) فى الأصل «ويخترق» بالخاء .

والجنُّ خابوا الرجا بل مسَّهم فرقُ | وإن يقُم لاستراقِ السمع مسترِقُ
رصدْنه ، أنجمُ الأرجـــاء ترجمُـــه

فكم تحـدَّى وأبدى فى دلالتـهِ | من معجزاتٍ توالتْ فى رسالتـهِ
فقل لطـاغٍ تمـادى فى ضلالتهِ | إن ابنَ عبدِ منـافٍ من جلالتـه
شمسٌ لأفـق الهدى والرسلُ أنجمُـه

ما جاء مَن سلبَ الأعـدا غنيمتُه | به قتـادةُ قد ردتْ كريمتُـه
فى كل آونةٍ تزدادُ قيمتُـه | العـدل سيرتُه والفضلُ شيمتُه
والرعبُ يقـدمه والنصـرُ يخدمـه

فى حَوْمَةِ الدين أصْمَى الغيَّ والجدلا | وجَنْدلَ الكفرَ حتى صار مُبتذلا
يمٌ(١) طويلُ نجادٍ حكمُه عـدلا | أقام بالسيف نهجَ الحـق معتدلا
سهلُ المقاصدِ يَهـدى من يُممـه

يا صاح كنْ برسول الله مُقتـديا | فى فعله وبنورِ الحـق مُهتـدياً
فكم أبادَ من البـاغين مُعتـديا | وكلما طال ركنُ الشِّركِ مُنْتهِيا
فى الزَّيغ ، قامَ رسولُ الله يَهـدمه

بسعدِ طـالعه تسمُو كـواكبُه | وطالمـا ابتهجتْ زهـواً مواكبُه
سَلْ البراقَ ممـاذا فاز راكبـه | سارتْ إلى المسجد الأقصى ركائبه
يزفُّـه مُسرجُ الإسرا وملجمـه

سَرى به وهـو فى أقصى تعجبه | وفـاز طـه بأعلى المجـد أعجبه
له انجـلى ما توارى فى تحجبـه | والشوقُ يهتف يا جبريلُ زُجَّ به
فى النور ، والنورُ مرقـاه وسُلَّمُـه

فى رؤيةِ الرسل ليلاً كمْ قضى أرَبا | وكم دنا وتدلىَّ ثمَّ واقـتربنا

---

(١) يم : بحر ، والمقصود وصفه بالكرم ، وهى مكتوبة فى الأصل يمم وهى صيغة غير مستعملة .

لقد رأى الآيةَ الكُبرى وما اضطربا والعرشُ يهتزُّ من تعظيمه طربا

إذ شرَّفَ العرشَ والكرسىَّ مَقدمُه

اعتزَّ بالله حبًّا فى معززته وحلَّ فى الملأ الأعلى بحوزته

فكيف فاز نبىٌّ شطرَ فوزته والحقُ سبحانه فى عزِّ عزته

من قاب قوسيْن أو أدنى يُكلمه

فى السبع فازَ بخمسٍ (١) فوزَ منصرفٍ بأجر خمسين يُسدى شكر معترفٍ

ونال ما نال من مجدٍ ومن ترف فكم هنالك من عزٍ ومن شرف

لمن شديدُ القُوى وحْياً يعلمه

كفَّارُ مكةَ ما كانتْ مُجوزةً لا زال يمنحُ آياتٍ معززةً

حتى إذا جاء بالتنزيل مُعجزةً بل أصبحت بالأحاجى فيه مُلغزة

يمحو الشرائعَ والإحكامُ محكمه

أجابَ كلٌ مصيخٍ (٢) بالسجود كما آياتُه أخرستهم مَنطقاً وفما

وحيثُ كلٌ لديها ألقَوْا السلما هانتْ صفاتُ عظيم القريتين ، وما

يأتيه جهلاً أبو جهلٍ ويزعمه

فطالما بالغُوا فى السبِّ أو ثَلموا عِرْضاً ، وأنفسَهم والله قد ظلموا

لو ميَّزوا قدرَهم من قدره سلموا حال السُّهَى غيرُ حالِ الشمس لو علموا

بل أهلُ مكة فى طغيانهم عمهُوا

عمْىُ البصائر عن قَدْرٍ وعن قَدَرٍ صمٌّ المسامع عن تقديرٍ مُقتدر

فمن تخلف فى وِرْدٍ وفى صدرٍ فاصدعْ بأمرك يابنَ الشمّ من مضر

فقد بُعِثْتَ لأنفِ الشِّرْك ترغمه

من يَسبغٍ شأوَك فى قاب الكمال يمُنْ بحظِ منهزمٍ يكْبُوا وعجزِ زَمِنْ

---

(١) خمس : خمس صلوات .

(٢) فى الأصل « مصيح » بالحاء ، والكلمة على هذا لا تناسب السياق ؛ و« مصيخ » بالخاء بمعنى مستمع و مستجيب .

لك الشفاعةُ مولاك الكريمُ ضَمن لك الجميلُ من الذكر الجميل ومن
كل اسم جودٍ عظيم الجودِ أعظمه

ففي البداية كنتَ السيدَ الحكَما وفى النهاية حزتَ الحُكم والحِكَما
فرِّجه ودعْ الكهانَ والحِكما يا أيها الآملُ الراجى ليهناك ما
ترجوه ذا كعبة الراجى وموسمه

يممْ ضريحاً إذا ما قام يحصُره عادٍ ، ملائكةُ الرحمن تنصره
روضاً تباهتْ به فى الدهر أعصره قبراً أشاهد نوراً حين تبصره
عيني ، وأنشقُ مسكاً حين ألثُمه

خِضَمّ جودٍ تناهى فى عزازتِه فيه الأميرُ برىءٌ من إمارته
من لى ولو بنصيبٍ من خفارته كم استنبتْتُ رفاقى فى زيارته
عنى ، وما كلُّ صبِّ القلبِ مُغرمه

* * *

قلبى طليقُ اللّقا جسمى مُقيدُّه فليتَ شعرى متى يَفْديه سيدُه(١)
كم أمّهُ زائرٌ مثلى يؤيده وكم تصافحه من لا يدى يده
ولا فمى عند تقبيل الثرى فمُه

أراه كالبدر فى العلياء أرصدُه قرينَ بُعدٍ وبالآمال أقصدُه
من للمُريد وقد أقصاه مُرشده متَى أناديه من قرب وأنشده
قصيدةً فيه أملاها خُرَيْدمه

حديثةٌ السنِّ ما نيطتْ تمائمُها نضيرةُ الغصن قد غنتْ حمائمها
راجتْ حواسدُها جارتْ لوائمُها مهاجريةٌ أفتّرتْ كمائمها
عن ثغرِ درٍ لسانُ الحالِ ينظمه

عذراءُ منذورةٌ فى خدمة الحرمِ عسى يكونُ بها صفحٌ لمحترمِ
ويبلغ القصدَ قبل الفوتِ بالهرمِ كم يأمل الروضةَ الغراءَ ذو كرمِ
يرجو الزيارةَ والأقدارُ تحرمه

(١) بدأ الشاعر يتوسل بالرسول ويرجو خلاصه مما فيه .

لما تجنّى زمـانى الذنبَ وافتعـلا ... وابيضّ مسودُّ شعر الرأس واشتعلا
قصدتُ من جلّ فى سلطانه وعلا ... مستعدياً بحبيب الزائرين عـلى
دهرٍ تنكّر بالإهمـالِ معجمـُه(١)

هل سامَ فخرك إنسانٌ ولا مَلَكُ ... أو رام قدرَك سلطـانٌ ولا مَلِكُ
فانْ ألمَّ زمـانٌ خـطبه حلك ... فقمْ بعبدك يا شمسَ الوجود، وكِ(٢)
حِماهُ من كل خـطبٍ مـرٍّ مطعمُه

فكم سقاه الردى أقـذَى مشاربه ... من حيث ساقَ له أدهى نوائبه
فاجعلْ زيارتـه أبهى منـاقبه ... وادعُ الإله إذا ضاق الخِناقُ به
ما خابَ من أنت فى الدارينْ مُكْرِمُه

أرجوكَ نَصرةَ إعـزازٍ مؤزَّرةً ... على هوى النفس إذ كانتْ معذَّرةً
وقد توالت جيوشُ الهمِّ منـذرةً ... يا سيِّدَ العـربِ العرْباءِ معذرةً
لنـادم القلبِ لا يُغـنى تندمه

إلى حماكَ ضعيفاً أمـرُه وكَلا ... وكم مليكٍ حمىً بالجاه رعى كَلاً
أصبحتُ كلاًّ على نُعماك بل ثكلا ... أثقلتُ ظهرى بأوزارى وجئتُك لا
قلبٌ سليم، ولا شىءٌ أقـدمه

سلكتُ فى هذه الدنيا سلوك غـبى ... وما غدوتُ من الأخرى على رَهبِ
لكن تعلّقتُ فى أذيال خير نـبى ... يا صاحبَ الوحى والتنزيل لطفك بى
لا زلتَ تعفو عن الجانى وتكرمه

رفاعةُ يشتكى من عصبةٍ سخرتْ ... لما رأت أبحرَ العرفان قد زخرتْ(٣)

---

(١) الحروف المهملة التى ليس فيها نقط، والمعجمة: المنقوطة، وهو يعنى أن الدهر أهمله كما تهمل النقط من الحروف.

(٢) كِ: فعل امر أصله كن، وحذفت النون لضرورة الشعر. وقد كتبت خطا فى الأصل: كن. وهذه الصورة لفعل الأمر مستخدمة كثيرا، وقد وردت أيضاً فى القرآن «ولم أكُ بغيا» مريم: ٢٠.

(٣) هذه إشارة أخرى من رفاعة – فى شعره – إلى أن السفر إلى السودان كان نتيجة وشاية بعض الخصوم (راجع القصيدة الأولى من الديوان بعنوان: خواطر الغربة فى السودان).

فارفعْ ظلامةَ نفسٍ عدلك ادخرتْ وهاك جوهرَ أبياتٍ بك افتخرت
جاءتْ إليك بخط الذنبِ ترقمه

قبولُ تخميسها فضلٌ عليه ومَنْ لأنه زَمِنٌ(١) قاسَى ظروفَ زَمن
تلا مؤلفها يرجو الخلاصَ ثمنْ فانهضْ بقائلها عبد الرحيم ومَنْ
يليه ، إنْ همٌّ صرفُ الدهرِ يهزمه

فاكشفْ بحقك عند اليوم مَظلمةً من الهموم غدتْ كالليلُ مظلمةً
وانظر إليه بعين الفضل مكرمة واجعله منك بمرأى العين مَرحمةً
إذا ألمَّ به منْ ليس يرحمه

وارحمْ غريباً بعيدَ الدار غائبه حبلُ النوى حملُ الأثقالِ غاربُهُ
فصِلْ رَغائبه وافصلْ غرائبه وإن دعا فأجبه واحمِ جانبه
يا خيرَ من دُفنتْ فى الترْب أعظمه

أسيرُ بينٍ قليلُ الصبر قاصِرُه وعصرُه بفراقِ الأهل عاصره
وأنت ذو كرمٍ لا شئٌ حاصره فكلْ من أنت فى الدارين ناصره
لم تستطع محنُ الدارين تهضمه

وهذه حاجةُ الملهوفِ مُجملُها وأنتَ أعلمُ والمولى يُجمِلُها
وتنهى وقريبُ العفو يشملها عليك منى صَلاتُ الله أكملُها
يا ماجداً عمَّتْ الدارينِ أنعمُه

يَسقى البرايا جميعاً رىٌّ عارضها إنساً وجناً ووحشاً فى مرابضها
تُشفى الخلائق طُراً من تمارضها يُبدى عبيراً ومسكاً مسكُ عارضها
ويبدأ الذكرُ ذكراها ويختمه

وها تحيةُ ربى أكرم الكُرَما تحُو ضريحك يا خيرَ الورى كرَما
سواطعُ النور منها تملأ الحرما ما رنح الريحُ أغصانَ الأراكِ وما
حامتْ على أبرق الحنان حُوَّمه(٢)

---

(١) زمن : مريض .

(٢) حوم : ج حائم ، ويحوم على : يصير حول .

تحيةٌ بصلات البر عائدةٌ بالخير موصلةٌ للرشد قائدةٌ
تُثنى عليك وليست عنك حائدةٌ وتنثنى فتعمُ الآلَ جائدةٌ
بكل عارض فضلٍ جاد مُسجمه

* * *

رفاعةُ خمّسَ المنظومَ مُرتجلا قريضَه وهو بالخرطوم قد وَجلا(١)
قالت هواتفُه : بالله كنْ رجلا فإن جدّكَ طه للخطوبِ جلا
فأمرُ جدك هذا الجِدُّ يحسمه(٢)
ماذا العناءُ وأهلُ البيت قد كفلوا عوْداً جميلا وما عن وعدهم غفلوا
لاتعنَ بالغير جَدّوا السيرَ أو قفلوا هم أجمعوا أمرهم للكيْدِ واحتفلوا
والأمرُ لله ما يرضاه يحكمه

(١) هذا المقطع وما يليه ليس لهما أصل فى قصيدة البرعى . وقد جاء بهما رفاعة ليبين هدفه من تأليف القصيدة .

(٢) الجد بالكسر الأمر العظيم ، الجد : بالفتح ، أبو الوالد ، والشاعر يشير إلى أن الرسول جده .

قصيدة البرعي في مدح الرسول

هذه هي القصيدة التي « خمسها » الطهطاوي الشاعر الصوفي عبد الرحيم البرعي ، وقد آثرنا إثباتها لكي نوضح مدى التأثر القوي الطهطاوي بها . وهي من بحر البسيط (ديوان البرعي : ط. العلوم الأدبية ، القاهرة ١٣٤٣ هـ)

خلٌّ الغرام لصبٍّ دمعه دمه ... حيران تُوجده الذكرى وتُعدمه(١)

فاقنعْ له بعلاقات علقن به ... لو اطلعتَ عليها كنت ترحمه

عذلته حين لم تنظر بناظره ... ولا علمت الذي في الحب يعلمه

لو ذقتَ كأس العذريّ ماهجعت ... عيناك في جنح ليل جن مظلمه

ولا ثنيت عنان الشوق عن طلل ... بال عفت بيد الأنواء أرسمه

ما الحبُّ إلا لقوم يعرفون به ... قد مارسُوا الحب حتى هان معظمه

عذابه عندهم عذب وظلمته ... نور ومغرمه بالراء مغنمه

كلفت نفسك أن تقفوا مآثرهم ... والشيء صعب (على) من ليس يحكمُهُ

إني أورّي عذولي حين يسألني ... بذكر زينب عن ليلى فأوهمه

وطالما سجعت وهنا بذي سلم ... ورقاء تعجم شكواها فأفهمه

وتنثني نسماتُ الغور حاكية ... علم الفريق فأدري ما تترجمه

يا من أذاب فؤادي في محبته ... لو شئت داويت قلبا أنت مسقمه

سقى الحيا ربع صب سار منه إلى ... شُعب المريحات هامي المزن يوهمه

وبات يرفض من سفح الخزام إلى ... وادي أرام وما والى يلملمه

يسوقه الرعد في تلك البطاح إلى ... أم القرى ورياحُ البشر تقدمه

وكلما كف أو كلت ركائبه ... باداه بالرحب مسعاه وزمزمه

لما ألب على البطحاء عارضه ... على المدينة برق راق مبسمه

سقى الرياض التي من روضها طلعت ... طلائع الدين حتى قام قيِّمه

حيث النبوة مضروب سرادقها ... والنور لا يستطيع الليل يكتمه

والشمس تُسطع من خلف الحجاز وفي ... ذاك الحجاز أعز الكون أكرمه

محمدٌ سيد السادات من مضر ... سر النبيين محيي الدين مكرمه

---

(١) لاحظ أن كل بيت هنا يشكل الشطرين الرابع والخامس عند رفاعة ، الذي شكل قصيدته بدرجة يتساوى فيها أسلوبه مع أسلوب البرعي .

فرد الجلالة فرد الجود مكرُمةً   فرد الوجود أبر القلب أرحمه

نور الهدى جوهر التوحيد بدر سما   ءِ المجد ، واصفه بالبدر يظلمه

من نور ذى العرش معناه وصورته   ومنشئ النور من نور بجسمه

ومودع السر فى ذات النبوة من   علم وحسن وإحسان يقسمه

فذاك من ثمرات الكون أطيب ما   جاد الوجود به أعلاه وأعلمه

فما رأتْ مثله عين ولا سمعت   أذن كأحمد أين الأين تعلمه

أمست لمولده الأصنام ناكسة   على الرءوس وذاق الخزى محرمه

وأصبحت سبل التوحيد واضحة   والكفر يندبه بالويل مأتمه

والأرض تبهج من نور ابن آمنة   والحق تصمى ثغور الجور أسهمه

وإن يقم لاستراق السمع مسترق   فعنده صادر الأرجاء يرجمه

إن ابن عبد مناف من جلالته   شمس لأفق الهدى والرسل أنجمه

العدل سيرته والفضل شيمته   والرعب يقدمه والنصر يخدمه

أقام بالسيف نهج الحق معتدلا   سهل المقاصد يهدى من تيممه

وكلما طال ركن الشرك منتهيا   فى الزيغ قام رسول الله يهدمه

سارت إلى المسجد الأقصى ركائبه   يزفه مسرج الإسرا وملجمه

والشوق يهتف يا جبريل زجٌّ به   فى النور ذلك مرقاه وسلمه

والعرش يهتز من تعظيمه طربا   إذ شرّف العرش والكرسىَّ مقدمه

والحق سبحانه فى عز عزته   من قاب قوسين أو أدنى يكلمه

فكم هنالك من فخر ومن شرف   لمن شديد القوى وحيا يعلمه

حتى إذا جاء بالتنزيل معجزة   يمحو الشرائع والأحكام تحكمه

هانت صفات عظيم القريتين وما   يأتيه جهلاً أبو جهل ويزعمه

حال السها غير حال الشمس لو علموا   بل أهل مكة فى طغيانهم عمهوا

فاصدع بأمرك يا ابن الشم من مضر   فقد بعثت لأنفِ الشرك ترغمه

لك الجميل من الذكر الجميل ومن   كل اسم جود عظيم الجود أعظمه

يا أيها الآمل الراجى ليهنك ما   ترجوه ذا كعبة الراجى وموسمه

قبرا تشاهد نوراً حين تبصره   عينى وأنشق مسكا حين ألثمه

كم استنبت رفـــاق فى زيارتـــه ... منى وما كل صب القلب مغرمه
كم يصــافحه من لا يلتى يـــده ... ولا فمى عند تقبيل الثرى فمه
متى أناديــه من قـــرب وأنشده ... قصيدة فيــه أمــلاها خويدمــه
مهاجــريه افــترت كـــأنمهـــا ... عن نور در ، لسان الحال ينظــمه
كم يأمل الروضة الغــراء ذو شغف ... يرجو الزيارة والأقــدار تحــرمه
مستعدياً بحبيب الزائرين عـــلى ... دهــر تنكــرّ بالإهمــال معجمه
فقم بعبــدك يا شمس الكمال وكن ... حماه من كل خطب مــر مطعمه
وادع الكريم إذا ضاق الخناق به ... ا خاب من أنت فى الدارين ملزمه
يا سيد العــرب العــرباء معذرة ... نــادم القلب لا يغــنى تنــدمه
أنطت ظهــرى بأوزار وجئتك لا ... قلب سليم ولا شىء أقـــدمه
يا صاحب الوحى والتنزيل لطفك بى ... لازلت تعفو عن الجانى وتكرمه
وهاك جوهر أبيات بك افتخرت ... جاءت بخط سير الذنــب يرقمه
فانهض بقائلهـــا عبد الرحيم ومن ... يليه إن هم صرف الدهــر يدهمه
واجعله منك برأى العــين مرحمة ... إذا ألم بــه من ليس يرحمـــه
وإن دعا فأجبــه واحم جانبــه ... يا خيّرٌ من دفنت فى القاع أعظمه
فكلٌ من أنت فى الدارين ناصره ... لم تستطع محــن الأيام تهضمــه
عليك من صـــلوات الله أكملهـــا ... يا ماجدا عمــت الدارين أنعمـــه
يندى عبيرا ومسكا صوب عارضها ... ويبدأ الذكر ذكــراها ويختمــه
ما رنّح الريح أغصان الأراك وما ... جابت على أبرك الجنــان حومه
وتنثــنى فيعــم الآل جائـــدةٌ ... بكل عارض فضل فاض مسجمــه

فى مدح أهل البيت

وردت هذه المقطوعة فى كتاب « نهاية الإيجاز فى سيرة ساكن الحجاز » (١٨٧٣) صفحة ٥٤ فى معرض حديث الطهطاوى عن كرامات أهل بيت النبى وشفاعاتهم لمن ينتسب لهم أو ينتمى إليهم ، حيث ينقل عن الحسين بن على قوله : « من يودنا دخل الجنة بشفاعتنا » . ومن المعروف أن نسب رفاعة ينتهى إلى فاطمة الزهراء ، ولكن الشاعر هنا — فى القصيدة — يؤكد انتماءه لأهل البيت « بصفو صفاتى ».. وهو فى هذه الأبيات التى قالها فى أخريات حياته — يمدح أهل البيت راجياً خلاصه من « حادثات زمانه » . والقصيدة من بحر الخفيف . وقد وردت القصيدة أيضاً فى « روضة المدارس » العدد الثامن عشر ، السنة الأولى (٣٠ رمضان ١٢٨٧) :

إنتمائى لكم بصفوِ صفاتى ... يالَ بيتِ الزهراء أزْهَى صِفاتى

جدُّكم فى الوجودِ شمسٌ وأنتم ... أنجمٌ زهرٌ غير منكسفاتِ

أنتم بضعةُ النبى نشأتم ... عن صفىٍّ من بضعةٍ مُصطفاة

سيد (الكون شب) (١) أصلاو فرعاً ... فى شعابٍ على العُلى مشرفات

أبطحىٌّ لولاه ما فاحَ من مكـ ... ـة عرفُ التعريف فى عرفات

لا ولا كان أهلُ بدرٍ بدوراً ... يتبوأن فى عُلا الغرفات

لسواكم ما رمتُ قط التفاتاً ... وإليكم صرفتُ كل التفاتى

حاش لله أن أُضام وأنتم ... ملجأ اللائذين كهفُ العفاةِ (٢)

ويقينى أرجو به أن يَقينى ... من عِظَم الأهوالِ والآفاتِ

كم مجيرٍ منكم حمى مُستجيرا ... وأغاث الملهوفَ بالمرهفات

---

(١) فى الأصل : سيد الكونين ، وقد غيرناها إلى « سيد الكون شب » لتناسب الوزن والمعنى.

(٢) العفاة : جمع عاف وهو طالب الفضل والمعروف .

كم لكم بالنـــوال دُنيـــا وأخرى　　من أيادٍ عــلى الــورى عاطفات

بخلوص المديح أرجـــو خـَلاصى　　من مَساوى أيـــامى السالفــات

إن نظـــمتم رفـــاعةً فى ولاكم　　حـــاز أمْنا من سطوة المرجفات(١)

فأمانى من حادثـــاتِ زمـــانى　　إنتمائى لـــكم بصفوِ صفـــاتى(٢)

(١) سطوة المرجفات : شدة المصائب المفزعة .

(٢) انتمائى : انتسابى – صفو صفاتى : صفاتى الصافية .

الفصل الخامس

فى مدح الأسرة الحاكمة

مدحةٌ .. فى محمد على :

وردت هذه المدحة – وهى من بحر الطويل – فى مقدمة كتاب : « بداية القدماء ونهاية الحكماء » (ط . بولاق سنة ١٢٥١ هـ – ١٨٣١ م) صفحة ٤ . وهو كتاب تاريخ وضع من أجل التعليم ، ورفاعة يقدم للقصيدة بأنها فى مدح « أفندينا ولى الممالك محمد على باشا ، الذى سارت الركبان بذكره فى كل ناد ، وهامت الشعراء بمدحه فى كل واد ، وملأ قلوب الأعادى فزعاً ورعبا ، وتلقب بأعظم الألقاب لا سيما عند ملوك أوربا ، أو ليس أنه لُقب عندهم معيد تمدن الإسلام ، ومبيد تمكن الأوهام ؟ .. وقد طرزتُ اسمه مع ذلك اللقب فى هذه القصيدة ، حيث قلت :

ملأ الكونَ بشراً عدلُه واعتدالُه ... وأغنى البرايا برُّه ونوالُهُ

حوى عزمَ كسرى فى مهابةِ قيصرٍ ... وما اسكندر فى هزم دارا مثاله(١)

متى قسْتَه بِفَرْدٍ منهم ظلمته ... فقد زينت كلَّ الملوك خلالُه

دلائلُ أخبار الخواقين(٢) أجمعتْ ... على أنه عنهم منيعٌ منالُه

عظيمُ مقالٍ ما كبا زندُ رأيه ... سنىٌّ فعالٍ لا تُسامى فِعالُه

له هيبةٌ عندَ العدى أصفيةٌ ... يَسير بها نحو القلوب جلاله

يقول أناسٌ طالعَ السعدُ حظه ... وما السعدُ إلا عقلُه وعِقالُه

محا غيْهبَ الأوهام قسراً بمصره ... أما تبصرُ العِرفانَ يسمو هلاله(٣)

---

(١) دارا : اسم ملك فارسى قديم .

(٢) الخواقين : جمع خاقان ، وهو الملك العظيم .

(٣) غيْهب : ظلام – العرفان : العلم والمعرفة .

على الدهـر نذْرٌ قدوفى فيه وعده ببحرِ خضمٍ قد روتْنا سِجالُه
يغيضُ على العافى الجنوح فراتُه ويطفو على الجافى الجموحِ زلاله(١)
دفاترُ تاريخ السلاطين سُطرتْ مناقبُهم فاستجمعتها خِصاله
تلقبُه ألقابُ فخرٍ وسؤدد وتروى لنا ما صحَّ عنه اتصاله
مآثره بين الأنام مفاخرٌ وآثارهُ لا تنتهى وكماله
دَهتْ كلَّ ذى فهم عزائمُ حزمه وما فوقَتْ إلا أصابت نِباله(٢)
نراه دواماً ظافراً بغريمه ويحنو على من كبلته حِباله
أما أنه مولىً شمائلُه بها حنانٌ لمن تجنى عليه شِماله
لمصرَ به شأنٌ طريف زهتْ به وعزٌّ منيف قد أظلت ظِلاله
ألا أيها المرتابُ فى أن دارنا تفوق على كل الرجال رجاله
سلْ المجدَ عن تلك الميادين هل عدا بهم تها قرن يبارى نضاله
لها الآن فى كل النواحى أدلةٌ بها زال عن ربٍّ الجدال جداله
أتاح لها المولى مليكاً قد انتمى إليها ومن أقصى البلاد ارتحاله
« محمدُ » أفعالٍ ، « علىٌّ » مكارم بديعُ صفاتٍ لا تعدُّ فضاله
وما مثلها مقدونيا إذ أتتْ به وقد كان فيها حِمله وفصاله
منازلُ منها اسكندر فاتحُ الورى إذا لم يكن (عمٌّ)(٣) الأمير فخاله
بسيف الخديوى صولةُ البغي قد عفتْ فلا صائلٌ إلا تداعى صياله
يضاهيه فى أوصافه الغُرِّ نجلُه إذا ما تصدى نحوَ شأوٍ ينـاله
دماثةُ أخلاق الجميع خليقةٌ وقد زانهم خلقٌ تجلى جماله
ترى فيهم « عباسَهم » ذا طلاقة لدى السلم لكن لا يُطاق نزاله
مساعى « سَعيدٍ » فى البحار سعيدةٌ دواعٍ إلى الخيرات والاسم فاله
كفى « الداورى » فخراً بأن زمانه غدا عنده عبداً عليه امتثاله(٤)

---

(١) يغيض ، يمتنع – الفرات والزلال : الماء الصافى (العطاء) .

(٢) فوقت : صوّبت .

(٣) غير موجودة فى الأصل . . والمعنى إذا لم يكن اسكندر عم محمد على فهو خاله .

(٤) الداورى : محمد على ، والكلمة لقب يطلقه رفاعة على الحاكم .

نواصى الأعــادى تحتَ قبضة كفه ... إذا جــال فى قــوم تناءى مجاله
أليس منبعُ الشام قد زال شُؤْمُه ... وصار سواءً سهــلُه وجبــــاله
لئن قــام أحياءُ الدروز لحتفهم ... فيا ويحَ من أخنَى عليــه ضلاله
أينتظرون الحاكم اليــوم بعــدما ... تبين فيما يزعمــون محـــــاله
وما يمنٌ عند العــزيز عســيرةٌ ... ويسرُ عسيرٍ عنــده ما تخــاله
هنيئــاً لمن ألقى السلاحَ بســاحة ... يُصان بها نفسُ النزيــل ومــاله
أَلمَّ حمىً لا ضيمَ فيه لوافــدٍ ... ولاذ بطــود لا تسامى خِلالُه (١)
مناهجُه فى حكمــــه مستقيــمةٌ ... ملأ الكونَ بِشراً عدله واعتداله(٢)

(١) ألم حمى : نزل رطناً - ضيم : ذل - وافد : قادم - طود : جبل .

(٢) ورت قبل ذلك قصيدة أخرى فى مدح محمد على بعنوان « حنين إلى مصر » ص ٨٣ .

فى مدح الخديو عباس
بمناسبة توليه الحكم وعودته من الحج

ألحق رفاعة هذه القصيدة ضمن مجموعة من القصائد له ولغيره من شعراء عصره فى نهاية الطبعة الثانية من كتابه « تخليص الإبريز » (طبعة بولاق سنة ١٢٦٥ هـ ـ ١٨٤٩ م) صفحة ٢٢٣ . وهذه القصائد فى مدح الخديو عباس بمناسبة توليه الحكم (١٨٤٩ ـ ١٨٥٤) بعد جده محمد علىّ ، وهو يمهد للقصيدة ـ وهى من بحر الكامل ـ بقوله :

« وحيث وافق من الطبعة الثانية تمامُها ، وصادف بالعناية ختامها ، مبدأ تولية ولى النعم ، وفىّ الكرم ، الذى سُرَّ بولايته الحاضر والبادى والرائح والغادى ، وحَسُنَ عند الخاصة والعامة منه المبادى ، وله فى الرعايا فى القديم والحديث جزيل النعم وجميل الأيادى ، من سلك جادة العدل والإنصاف ، وتحاشى عن مفازة الجور والاعتساف ، سعادة أفندينا الأكرم الحاج عباس باشا . وكانت قد تَشرفت مدرسة الألسن بتهنئته بالقدوم من حجه المبرور ، وتقلده بمنصب الولاية الذى أدخل على الجميع السرور ، فى ضمن قصائد لا تفى من مدحه بالمعشار ، ولو نشرت (فى) بساط الإسهاب والإكثار ، كما قلت :

ماذا قصائدُ شاعـــرٍ   لو أنه فيهـا مجيـد
فى مدح من يَروِى العلا   والمجد عن عبـد الحميد

أحببت أن أحلى طرس هذه الرحلة من تلك القصائد بفرائد ، ليسوغ بذلك مشربها للصادر والوارد ، فابتدأت منها بقصيدتى السينية المتضمنة لبعض أوصافه السنية ، فقلت :

ما بالُ مصرَ وقد جلتْ عن بأسِها   وافترَّ ثغـرُ البشر عن عبّاسِها
وروتْ حديثَ الجـود عنه مثلما   روتْ ارتفاعَ النيـل عن مقياسها

ما بالها حيث الأمانى قد وفتْ بابَ الرجا من بعد شدة يأْسِها
ما بالها حيث الحفيدُ يَسُوسُها ويزيد تشييداً لرفع أساسِها
شبلٌ تأسَّدَ حيث ساد كأصله هل تترك الآرامُ حِفظ كِناسِها
إن سار نَحوَ الحج خلّف وحشةً أو عاد عادتْ مصر فى إينـاسها
فلسانها بالشكر يلهجُ والثنا والشكر للنعما أجل لباسها
لا غروَ أن دانت له مصر فقد أسدى له (طُسُنٌ) محبةَ ناسها
ربحتْ تجارةُ من خزائن ماله قلبُ الرعية وهو من حُرَّاسها
صدرٌ وبالإخلاص مفردُ عصره يشفى صدورَ الناس من وسواسها
لما رقى العلياءَ رقّ لحالها وصفتْ وراقتْ منه خمرة كأسها
بُشرى الأهالى إذْ وفاها سَعدُها فى فرطِ يقظتها وفقدِ نعاسها
قد كان يوم فدائه شبابها تاريخ طرد مرائها ومراسها
جادت به مصر وحازتْ سؤْددا تبدو به إذ كان نتجُ غراسها
هو من بنيها حيث والى برها فلدى الولاية لا تقل له : واسها
فبجِده يحيى مآثرَ جَدّه ويمدُّ بالتأييد قوةَ باسها
بالألمعية لا يُسام ذكاؤه إن شئتَ قِسه « بقسّها » و« إياسها »
وسلالةٌ علويةٌ هو دوحها وبيانُ معناها بديعُ جناسها
وفصاحةٌ عربيةٌ هو ربها وبراعةٌ هو منتهى نبراسها
وعقيدةٌ مما يشينُ سليمةَ تأبى طموحَ النفس فى أرجاسها
هو جسمُ مصر وفردُ جوهر رُوحها فاعجبْ لفردٍ وهو جمعُ حواسها
تزهو (به) مصرُ كيانع جنةٍ تزهو بروض شقيقها أو آسها
يرمى العفاةَ بطارفٍ وبتالدٍ رمى الكماة السهمَ عن أقواسها
إن أحبستْ وقفاً عليه حبَّها فالخيرُ كل الخير فى إحباسها
يوم الولاية كان يومَ مسرةٍ فرحتْ به أمٌّ على أجناسها
فشريعةُ الإسلام زاد فخارها وتشيدت بالعز بعدَ دراسها
أولو العهودِ به تقوّى جأشها أمناً، وقد شدّتْ عُرى استئناسها

ماذا مديحى وهو بدرٌ طالعٌ يرقى من الجوزاء ذروةَ راسها (١)
وإذا المروءةُ قابلتْهُ بأصلها وفتْ النتيجةُ طبق شكل قياسِها (٢)
وسيرتقى فى الفخر أقصى شأوه إن تُضرب الأخماسُ فى أسداسها
ما جل قصدى فى قصيدى كثرة بل زينةُ الأبيات سبكُ جناسها
حسبى القبولَ إجازةً لقصيدة أرجُ القبول يفوحُ من أنفاسها (٣)
هى بنتُ هذا الفكر (عباسيّةٌ) نورُ الخلافةِ لاحَ فى قرطاسها (٤)

---

(١) الجوزاء : برج من بروج السماء .

(٢) لاحظ التداعى فى استخدام مصطلحات المنطق فى : أصل – نتيجة – طبق – قياس .

(٣) أرج الطيب : فاحت رائحته – أنفاسها : رائحتها .

(٤) قرطاس : ورق .

تهنئة ومدح للخديو عباس

بمناسبة عودته من الآستانة (١٨٤٩)

هذه مدحة أخرى للطهطاوى من المجموعة التى أضافها خاتمةً للطبعة الثانية من «تخليص الإبريز» (ص ٢٣٣). وقصائد المدح هذه لرفاعة وغيره من شعراء عصره ألحقها الطهطاوى بالكتاب – فيما نعتقد – درءاً لخوف منتظر، ودفعاً لخطر متوقَّع، كان يستشعرهما منذ بداية تولى عباس – الذى سوف ينفيه إلى السودان فيما بعد – أى أن رفاعة أراد أن يبدأ بالإشادة قبل الإتهام.. ولكن يبدو أنه لا يغنى حذر من قدر. والقصيدة من بحر الكامل.

لازلتَ تسمو فى الفخـار وتعْظمُ ... فلأنت صدرٌ فى الـوزارة أعظمُ
نهضتْ بك العليـاءُ من مصر إلى ... استانة بفم المـوالى تلثـــم
يا حبـذا دارُ السعادة مقصـداً ... هى كعبـةُ كلٌّ إليهـا يُحرِم
حـرمٌ به ملكُ الملـوك أجلُّهم ... خاقانُ أهـل الخافقيْن الأكرم(١)
حـرمٌ به ظل الإلـه على الورى ... حامى حماةَ الـدين ليثٌ ضَيغم
فدخلتَ فى ذاك الحمى مُتيـامناً ... وبحفك الإقبـالُ أين تُيَمِّـم
ودنوتَ من عـالى الجنـاب مؤدياً ... من واجب التشريف ما يتحـتّم
بصدارةٍ عُظمى حظيتَ عنـايةً ... والصدرُ مشروحٌ وسعدُك يُخـدم
يومُ الضيافة مهـرجانٌ حـافلٌ ... هل ثم عيـدٌ مثـله أو مـوسم
حسنُ التـوجه منه صار كرامةً ... صدرٌ سواك بمثـلِه لا يُكْـرم
سطعتْ بك الأنـوارُ يا قمرَ العلا ... حتى ازدهتْ بالنـور حولك أنجمُ
إلهامُ باشا ناجبٌ مـن نـاجب ... من طيب غرسِ أصوله هو مُلْهَمُ
ما أنجزَ الإقبـالُ نحوك وعدَه ... إلا وأعجزَ وهمَ من يتـوهَّم
هى منةُ المنّـان فاشكر فضـله ... هى نعمةُ الرحمن جلَّ المنعـم
ما كل ساعٍ يُدرك العليـا ولا ... داعٍ يُجاب لما دعـاه ويَغـنم
يا أيها المولى المـولىّ مصـرَه ... كلٌّ يظن الخيرَ فيك ويَعْشَمُ(٢)

(١) خاقان: ملك – الخافقين: الشرق والغرب.

(٢) يعشم: يتعشم ويأمل.

كلٌّ تفاءل بالنجــاح وبالهنــا — حَسْبانُ جدِّك صائبٌ لا يُثلم(١)
جدٌّ رأى فيــك الشهامةَ فى الصبا — إذ أنت مُغْــرىً بالمعــالى مغرم
جدٌّ توسم فيــك تبلــغُ شــأوَه — فبلغته لا خــابَ فيك تــوسُّم
جدٌ تفرسَ فيــك تقفــو إثرَه — ولطــالما أمسى بـــه يترنـــم
إذا أحسنتْ فيــك الفــراسةُ رأيها — فدليــل حسنُ الظنِ فيك مُسلَّم
رَحِيمٌ خطيرُ القدرِ منــك وصلته — وبمثــلهِ أنت الأبــرُّ الأرحــم
طرَّقت أجيــاد الأماجِد بالنــدى — كلٌّ بجــودِك واثــقٌ مستعصم
رأىٌ سديدٌ للسداد مــوفــَّــقٌ — باعٌ مــديــدٌ بالسخــا يتكرم
وسما بك الدينُ الحنيفُ جــلالةً — فالدينُ إذ ترعــاه دينٌ قيِّـــم
لك همةُ هــامُ الكواكب دونهــا — لك عــزمةٌ هى غاربٌ لا منسم
إن أضمرتْ ودَّ العــزيز نفوسُنا — سرُّ الضمير يكــادُ يُظهره الفم
وإن اشتكت مصر نــواهُ برهةً — وغدتْ لبشرى عَــــوده تتنسم
فــع السيادة والسعــادة سائــرٌ — ومــع الكــرامة بالسلامة يقــدم
هو خاطبُ العلياء وهى تسومــه — هو طالبُ الجــوزاء وهى السلم
شهمٌ جلا فى قــاب مضمار العلا — سهمَ السباق فحــاز ما لا يُسْهم
لا ينكر الركنُ اليمــانى يُمنَــه — ونداه يعــرفه العذيْبُ وزمــزم
شُدْ بيتَ مجــدك بالهناء مؤثلاً — هذا بنــاءٌ مثــل عدلك مُحكَم
إن شدتُ فيــكِ قصائدى أنشدتها — درراً لغــيرك لا تكاد تنــظم
إن صادفت منك القبولَ فسعدُها — فى ظل أفنــانِ القبــول مخــيِّم
دمْ فى جليل الملكِ واحكمْ واحتكمْ — لازلتَ تسمو فى الفخارِ وتعظم(٢)

---

(١) حسبان : تقدير ورأى – يثلم : ينقص (يتغير) .
(٢) لاحظ « رد الصدر على العجز » لأن القصيدة تنتهى بالشطر الذى بدأت به »

أرجوزةٌ في مدح الخديوي محمد سعيد

وردت هذه القصيدة في مقدمة ترجمة « مواقع الأفلاك في وقائع تليماك » صفحة ١٩ ، وهي تدور حول التغني بمجد مصر ومدح الخديوي سعيد ، وهي من بحر الرجز .

بحمدِ مولانا البديع يُفتتحْ　　بديعُ نظمٍ زانه نَظْمُ المُلَحْ(١)
من الأراجيز ولكن قد رجَحْ　　ميزانُ بحرِه بلقطِ الدر
وفاق بالممدوح كلَّ بحرِ

ممدوحُنا محمدٌ السعيدُ　　عزيزُ مصر بالعلا معيدُ
وهل مجال في الولا بعيدُ　　إلا ويَرقاهُ بأدنى يُسرِ
بسرِّ عزمٍ في المعالي يَسْري

تحسينُ مصرصارجُلَّ مقصده　　وجالَ في مصدره ومورده
وفي جليلِ فكره وخَلَده　　قد انجلى تخليدُ عالي الفخر
لما تجلَّى شمسُ فكرٍ بِكْرِ

أنعشَ روحَ الفتية المصريه　　براح حب الوطن القسريه
حتى غدت نفوسهم سَريَّةْ　　فصحَّ فوزُ صحوِهم بالسُّكرِ
وقابلوا إحسانه بالشكرِ

هاموا بحب الوطن العزيزِ　　فصار ميلُهم له غريزي
ومذ كسوْه حليةَ التعزيزِ　　وأنفقوا فيه نَفيسَ العمرِ
لم يخش من زيدٍ ولا من عمرو

حميٌّ حوى نهايةَ الأصانه　　وغايةَ التمكّن والحصانه
روضٌ إذا هزَّ الصبا أغصانه　　ترى عواملَ القنا والسمرِ
تفعلُ بالألباب فعلَ الخمْرِ

---

(١) الملح : الطرائف .

حمىً منيعُ الجـــاه من له التجا أشارتْ البشرى إليـــه بالرجا
ما حله عافٍ لجـــا إلا نجـــا من ضيقِ أمرٍ أو حلولِ أسر
ومن خطوبٍ واحتمالِ إصْر

فياله من حـــــرمٍ وركنِ صرَّح بذكـــر أمـــرِه وكنّى
عليه منطقُ الملـــوك يُثْـــنَّى عزيزه درةُ تـــاجِ العـــصر
ومصرُه أبهجُ كل مـــصرِ

إن رمتَ وصْفه على التحقيقِ فمنظـــرُ العـــدل به حقيـــقى
وفىٌّ لـــه بأكمل الحقـــوقِ ولم يزلْ مآلنـــا فى الـــبر
يا حُسن بحرٍ فى الوفا وبَرّ

أميرُ عصر هل يُرى نظـــيره حبُّ الفخـــار والعلا سميره
نصيرُه مولاه بلى (١) ظهـــيره بعون مولاه قـــوىُّ الظهـــر
ذُو مظهرٍ يبلغُ حد الزُّهـــر (٢)

أعلا عمادَ الملك نحـــو الأوجِ بعد اضطرابٍ وهياجِ موْجِ (٣)
بنظم فوْجٍ أو بنـــثر فـــوج والنظمُ ما أحـــلاه بعد النـــثر
دراً لثغرٍ أو حُلىّ لنحـــر

يا حبذا نظمُ الصنوف الأربعِ من الصفوف فى مقامٍ أرفعٍ
نوعُ السوارى وضروبُ المدفع ومعشرُ المشاة أُسْدُ الكـــرّ
والفلكُ من فوق البحار تجرى

رجالُها قد أحـــرزوا فنونَهَا أبطالها قد أبرزوا مكنونَهَـــا
وطالما سام السُّوَى مرصونَهَا وجادَ بالروح لهـــا فى المهـــر
وعن حجاه احتجبتْ فى خدر

هل بَلَغ اسكندرٌ أن مـــصرًا ترجفُ مُلكَ قيصرٍ وكسرى

---

(١) فى الأصل : بل ظهيره : مساعده . (٢) الزهر : النجوم .
(٣) الأوج : العلو (أعلى نقطة فى مدار القمر على الأرض) .

كم قلبِ جيشٍ أورثته كسْراً وقلّ أن يُجبرَ بعد الكسر
قلبٌ يقابلُ الوفا بالجبر

هل بلغ الماضين أن النيلا يخصُّ بالثناءِ إسماعيلا
عمّ نفعه غدا جزيلا كل لياليه ليالى القدرِ
وليلةٌ خيرٌ من ألف شهر

من قبله صعيدنا الخصيبُ هل خصّهُ من الهنا نصيبُ
عزيزنا اجتهاده يصيبُ يروى حديث مجده عن بشر
يسنده لنافعٍ والزهرى

أيامُه لعزنا مظاهرُ جدٌ وإقبالٌ ومجدٌ باهرُ
يمنٌ وإسعادٌ جلىٌ ظاهرُ أوضحُ من ضوء الدرارى الغرّ(١)
ومن سنا الشمس ونور البدر

بوارقُ المجد إليه تُنسبُ سرادقُ الحمد عليه تُنصبُ
وصادقُ الوعد لسانٌ يُعرب عن ما به يبسم ثغرُ الدهر
مما به تقرُّ عين الحرّ

أنجاله قرتْ بهم عيونُ فلاحهم محققٌ مضمونُ
وجوهرُ المجد لهم مكنون على المدا يشرحُ كل صدر
مع ازديادِ إمرةٍ وأمر

كل كريم يجلبُ الإسعادا وينجبُ الأبناءَ والأحفادا
شاد العلا بين الملا وسادا لا غروَ أن نعيذهم « بالفجر »
من حاسدٍ وبالليالى العشر

ونسأل المولى بلوغَ القصدِ للداورى(٢) واكتمالِ السعد
إدراكُ آمالٍ بغير عدّ طلابها (٣) متوجٌ بالنصر
والحمد للمولى ختامُ الشعر

---

(١) الدرارى الغر : النجوم البيض »

(٢) الداورى : الخديوى .

(٣) فى الأصل طلابها .

مدحة سنية

ابتداء من هذه القصيدة سوف نلمس اطراد شعر المدح عند رفاعة ونموه بدرجة لافتة للنظر ، وسر ذلك يرجع إلى ما قد تحدثه تجربة النفى من آلام وهزات نفسية ، من أجل هذا يلاحظ أن شعر المدح عنده قد زاد – بشكل واضح – بعد عودته من السودان (١٨٥٤ م) .

ورفاعة يقدم هذه القصيدة المنشورة فى « روضة المدارس » العدد الأول من السنة الثانية – ١٥ محرم ١٢٨٨ هـ ، بقوله :

« تهنئة سنية ومدحة منوهة لجناب العزيز إسماعيل بكل تنويه ، عما يقصده لسنة ختان نجله إبراهيم باشا وينويه ، لا زالت جميع القلوب معه ، والنفوس على محبته مجتمعه ، حتى يحيط علمه يقينا ، أن أبناء وطنه يقولون سراً وجهراً ، نحن قومك ما بقينا ، ولا برح لحمانا حصناً حصيناً ، من جميع الأسواء يحمينا » .

والقصيدة من مجزوء الكامل .

لله منـــكَ بشائــرُ	لعُـــلاك هُنَّ أشائــرُ
يا جـوهراً فــرداً به	جُمعتْ بمصر جَواهــرُ
الملكُ يحسـده عليــ	ـكَ أكاسِرٌ وقياصِر
ما يعجز الأقْيالُ(١) عنـ	ـه عليه عزمُكَ قــادر
بعـــزازة أنـوارُهــا	فى المشرقــين بواهــرُ
الحِلمُ طـوْدٌ راسخٌ	والجــودُ بحــرٌ زاخر(٢)
فلأنت بــدرٌ والبنــو	نَ كما النجومُ زواهر
ذريــــةٌ دريــــةٌ	بسنا حجــاك سَوافر
السعـدُ برجُ جميعهم	والملكُ منهم عامِــر
إن الحمـــا بجمـالهم	لمعضــد متضــافــرُ

---

(١) الأقيال : الملوك الشجعان .

(٢) طود : جبل .

عن مـدح إبراهيم ألـ ـسنةُ الورى تتقـاصرُ
عن مهرجانِ ختـانهِ زهواً تلـوح مفاخـر
إن قيل غصنٌ زاهـراً أو قيل عـودٌ ناضر
تنمو الغصونِ إذا جنى منهـا المزيدُ الشاطـر
والزهرُ يربو فى الربّـا وبقطـفهِ يتزاهـر
قلمُ اليراع إذا انـبرى هرعتْ إليـه محـابر
والطرف إن زال القذا عنه استضاءَ النـاظِر
بالقـط شمـعةُ مجلسٍ تزهى ويزهو السامر
ولعض كلبتىْ الأسا (١) أنسُ الغـزال النافـر
جعل الختـانَ طهارةً طـه النـبىُّ الطـاهر
أكـرمْ بها من سُنةٍ وبها الجميـعُ يبـادر
وختـانُ أبنـاء الملو كِ يلوحُ فيه مفـاخر
المطـرباتُ جميعهـا ومجـامع ومحـاضِرُ
لكن خـديو مصرنـا بالشرع نـاهٍ آمـر
بالسنة الغـرّاء قـد زانَ الختـانَ شعائر
آياتُ بـرٍ ما لهـا بـين الـبريةِ حاصر
عتقٌ وحسنُ تصـدُّقٍ وندىً وجـودٌ وافـر
إطلاقُ مسجونٍ جنى ولكل كسرٍ جـابر
إيصالُ عيشٍ ذوى العفا لاحتْ بذاك أمـائر
قتـل الأثـيمَ بصفحهِ فأنابَ وهـو يحـاذر
من يشترى بالجـاه ذخـ ـراً (فهو) نعم التاجر

---

(١) الأساة : الأطباء ، و « كلبتى الأسا » المقصود بها هنا آلة تستخدم فى عملية الختان .

للفــرع كلٌّ حــامدٌ   للأصل كلٌّ شاكــــر
يا كوْكباً في مــصرِه   كل إليـــه ناظـرُ
حاشاَ يوفّى حــقَّ مد   حك ناظمٌ أو ناثـــر
لـكـنني أرّختُــــه   باهِ ختــانُك باهــرُ

٨ ١٠٧١ ٢٠٨

سنة ١٢٨٧ هـ

تهنئة بتأسيس مجلس شورى النواب

هذه القصيدة يعبر بها رفاعة عن فرحته بإنشاء أول مجلس نيابي فى عصر الخديوى إسماعيل بعد أن أصدر « لائحة رجب » الإصلاحية (١٨٦٦) . وكان عنوانها « تهنئة خديويّة بالمولد السامى ، وفتح المجلس الأهلى النامى » وقد طبعت فى رسالة بعنوان « الذكرى السعيدة لخديوى مصر المعظم وأهاليها » بالأسكندرية سنة ١٨٦٩ . وقد جمعها الكافالبرى فرانسسكو أنتوانيو ده ماركى الإيطالى .. وهذه الرسالة كانت محفوظة بمكتبة الديوان الملكى بقصر عابدين .

ولا ندرى متى نشرت القصيدة أول مرة على وجه التحديد — وقد نقلناها عن صحيفة « المقطم » الصادرة فى ١٥ — ٣ — ١٩٢٤ ، من مكتبة السيد : محمود رافع أحد أحفاد رفاعة ، وهو يقدّمُ للقصيدة بقوله :

« ليس من ملوك مصر من تفتخر به الأهالى مثل افتخارهم بالخديو الأكرم ، حيث إنه تأسس فى أيامه قواعد عدلية لا تحصى ، ومآثر منافعها جلية لا تستقصى . ولو لم يكن له من المآثر إلا كونه حمل الأهالى على أن يستنيبوا عنهم نواباً ذوى فكرٍ ألمعية ، ليتذاكروا فى شأن مصالحهم المرعية ، لكفاه ذلك شرفاً ومجداً ، وعزاً وسعداً .. كما أن له الفخار فى أنه لا يضيع حقوقهم ، حيث جعله الله أميناً عليها .. فبهذه الوسيلة القوية يتمكن من أداء ما وجب عليه فى حق الرعايا ، وأن يدرك بمساعدتهم إياه فى إسعاده لوطنهم تمام النجاح » . والقصيدة من مجزوء الكامل .

شادى المسرّةِ قد شــدا   وأجادَ حُسنَ الابتدا
والبِشرُ أعلن مُنشــدا   شورى تُصادف مولدا

(مذهب)

بأبى الفدا شمسِ الهدى   كنزِ العطا بحرِ النـدا(١)
الدهرُ جاد وأسعــدا   وأعــزّ مصرَ وأيّــدا

---

(١) أبو الفدا : الخديوى اسماعيل (كنية) .

(دور) (١)

يا حسنَ عيدٍ وافتتاحْ ... شُورى بها الأصلاحُ لاحْ
عنوانُ أنواعِ الفلاحْ . في مِصرَ صار مُخلَّدا

(مذهب)

بأبي الفدا شمس الهدى ... كنز العطا بحر الندا
الدهرُ جاد وأسعدا ... وأعزَّ مصر وأيّدا

(دور)

فالسعد يهتفُ لاعجَبْ ... تنظيمُ شورى في رَجَبْ
عن مصرَ ماكان احتجبْ ... في شهرهِ السامي بَدا

(دور)

قمرٌ أنار بمصره ... وسمتْ طلائعُ نصره
وزهتْ مطالعُ عصره ... ببديعِ ما قد جددا

(دور)

من مثله أحيا الوطن ... وأجادَ أعلى ما يظن
وبه ارتقى أهلُ الفِطن ... وسَما الجهادِ تعضّدا

(دور)

من مِثلنا بين الدولْ ... وهلالُ نظمِ الملكِ هلّْ
في المجلسِ الأعلى الأجلْ ... إذْ بالنظامِ تقلدا

(دور)

الدهرُ صافٍ والزمانْ ... ووفى بما وعدَ الأوانْ
والسعدُ عنا ترجمانْ ... هنّا العزيزَ الأمجدا

(دور)

لا زالَ يبلغُ في المرامْ ... مجداً أثيلاً لا يُسام
عيداً جليلا كلَّ عام ... أبداً يعودُ كما بدا

---

(١) توحى كلمة دور و مذهب بأن القصيدة كتبت من أجل الغناء .

(دور)

بلّغــْـهُ يا ربُّ العبادْ   وبنيهِ أربابَ الرشــادْ
أوجَ السعادةِ والمــراد   فى ظــله طول المــدا

(دور)

واجعلْهُ للدين القــويمْ   ركناً مشيــداً يَستديمْ
وأدمْ به النــفعَ العميمْ   واحفظْ بقاهُ سَرْمَدَاً(١)

---

(١) السرمد : الدائم الذى لاينقطع .

تهنئة للخديوى إسماعيل

بمناسبة تشريفه ديوان المدارس

وردت هذه المقطوعة ضمن خطبة للطهطاوى يرحب فيها بالخديوى ، وقد نشرت فى « روضة المدارس » العدد الثانى والعشرين المنشور فى ٣٠ ذى القعدة سنة ١٢٨٩ .. والقصيدة من بحر الخفيف .

نحنُ أبناء مصر لولا ظفرُنا ... بمعالى مجْدِه ما ظهرنا
إن سرّ العزيز سرٌّ عجيبٌ ... قد هدانا سُبلِ الرشادِ فسرْنا
سهرَ الليالى لاكتساب المعالى ... فاقتفينا طريقَه وسهرنا
صادقُ الوعد سابقُ السعد مولى ... صحّ إسعادُنا به فافتخرنا
وإذا قيل من به أهلُ مصر ... سابقوا للعلا ، إليه أشرنا
وجرْينا فى حومةِ السبق ركضاً ... وسبقنا إلى مدىً وانتصرنا(١)
كم بسطنا بساطَ عزٍ ومجد ... كان قبلاً قد انطوى فنشرنا
عمرك الله إنْ أردتَ اختبارا ... فى ميادين سبْقِنا فاختَبرْنا
قد حبانا الخديو تشويقَ مجد ... بجميل الثنا عليه ابتدرنا
خصَّنا ودُّه بأبهى امتياز ... فنظمنا لآلئاً ونثرنا
وطلبنا لدولةِ العز حفظاً ... وبقاءً وبالدعاء جهرنا
كلنا شاكرٌ فيا سعدُ أرّخْ ... بجميلٍ كافأتنا فشكرنا

٨٥ ٥٥٣ ٦٥١

١٢٨٩ هـ

---

(١) حومة : ميدان .

مدح غزل

يصور الطهطاوى فى كتابه « الكواكب النيرة فى ليالى أفراح العزيز المقمرة » (ط. بولاق سنة ١٢٨٩ — صفحة ٦) أفراح أبناء الخديو اسماعيل مادحاً لهم ويتوقف فى البداية مشيراً إلى زواجهم من بنات العم « ليكون نظام المنزل كالمملكة على وجه أتم » . ويرى أن هذه كانت إحدى عادات العرب : « فليس الحظ الأوفر فى استحسان حسان بنى الأصفر ، ولا فى أن يقصر المميز امتيازه على خرائد الكرج والجركس والإبازة . فاجتبى حضرة ولى النعم ، جليل الشيم ، لكل شبهم من بنات عمه الفائقت الرائعات ، شمساً تخجل شمس السناء ، ولا تشاركها الشمس إلا فى الأسماء » .

وقد مضى الشاعر يمدح بنات الأسرة ويصف محاسنهن ، حيثُ إن كل واحدة منهن غادةٌ لا مثيل لها . القصيدة من بحر الخفيف :

غادةٌ تسلبُ العقـولَ ولابد ... ع وأعمالُ طرفهـا سِحريّه

جُبلتْ ذاتُها من المندلِ الرط ... ب ففاقتْ على الرياض الذكيه

ما لها فى الغصون نِدٌ وليس النـ ... ـدُّ إلا أنفاسهـا المندليّه(١)

ذاتُ لحظٍ وسنانٍ يفعلُ ما لمْ ... يفعل السيفُ فى قلوبِ الرعيه

ومُحيَّامن دونه يخسفُ البدْ ... رُ إذا لاحَ فى الليـالى البهيه

حوت الحسنَ كله فهى مما ... أبدعَ الله صُنعَه فى البريّـه

شبهوها عند التلفتِ بالظبـ ... ـى وهيهاتَ ما هُما بالسويّهْ

كل شىءٍ يَختفى إذا ماتبدتْ ... وهى كالشمسِ لاتزالُ مُضيّهْ(٢)

---

(١) ند : مثيل ، شبيه — المندلية : الذكية .

(١) مضية : مضيئة .

تهنئة دولتو محمد توفيق باشا

وردت هذه المقطوعة فى معرض تهنئة توفيق و لى عهد الخديو اسماعيل – إذ ذاك – فى كتيب « الكواكب النيرة » صفحة ٩ ، و هى من بحر الطويل ٥

نعم إنْ سخَا دهرى وجاد أجدتُ فى — مديحى إسماعيـل نخبة أمجادِ (١)
أبا العربِ عمَّ المسعداتِ آخا الحيا — حليفَ الندى مرلى الجدى شرفَ النادى (٢)
سليلُ الموالى حـائزٌ كل مفخـر — جليلُ المعـالى منتهى كل مرتاد
عزيزٌ له التقدمُ فى شِرعةِ العـلا — به يقتدى طُلاب هدىً ورشادِ (٣)
سما رتباً فى العدل من دونها السها — فمن رامها ضلَّ الطريقَ ولا هادى (٤)
وإنَّا لنرجو فـوق ذلك مظهراً — لعليائه ، دام السعودُ له حـادى
وتوفيقُه ربُّ المعـالى رفيقُـه — له صوب عهدِ الملك أكمل إسعاد

---

(١) نخبة : خلاصة منتقاة و مختارة .

(٢) أبا العرب : كناية عن اسماعيل (النبى – لا الخديوى) – الجدى : النفع و العطاء .

(٣) شرعة : مجرى (سبيل) .

(٤) السها : كوكب صغير : (وقد يطلق على النجم بصفة عامة) .

فى مدح حسين كامل باشا

وردت هذه المقطوعة فى «الكواكب النيرة» صفحة ١١ — وهى من بحـــر البسيط .

هو الرئيسُ ومنَّاحُ الجليس من الـ ـقوْلِ الأنيسِ مقالاً طيبَ الأثرِ
الحائزُ المجدَ عن قومٍ أماجدٍ قـد نالوا المعالى بجدٍّ الحـازم الحذرِ
حوى من النُّبْلِ ما لوْ ناله أحـدٌ سواه قيل له : يا أوحدَ البَشَرِ
وقلدْتـهُ المعـالى من جوَاهرِهـا لآلئاً تزدرى بالشمسِ والقمـر
وأودعَ اللهُ فيــه كلَّ مكـرمةٍ شاعتْ مآثرها فى البـدو والحضرِ

تهنئة دولتلو حسين كامل باشا

وردت هذه المقطوعة فى « الكواكب النيرة » صفحة ١٢ ، تهنئة له بالزواج .. وهى من بحر الكامل .

أوَ ميضُ برقٍ لاحَ أم مصباحُ ... أم ضاءَ من وجهه الصباح صباحُ ؟
أم ثغرُ زهرٍ بالمسرة باسمٌ ... أم بالتهانى دارتْ الأقداحُ
أم أسعدتنا بالبشائر والمنى ... أخبارُ عرسٍ للرواةِ صِحاح ؟
وبلابلُ الأفراح قد غنتْ صباً ... فصبا إليها الصبُّ وهى فِصاحُ(١)
رَصدَ النهى عشاقها فحُسينها ... رصدَ المعالى هل عليه جُناح ؟
مألوفةٌ « عينُ الحياة » فعيشه ... خضر ونورُ جبينه وضّاح(٢)
هو كاملُ الأوصافِ عزَّ نظيرُه ... كَسبُ العلا طرزٌ له ووشاح
أفراحُه ابتهجتْ فقلت مؤرخا ... بحسين باشا تسعدُ الأفراح

١٢٨٩ هـ

---

(١) الصب : المحب — فصاح : فصيحة .

(٢) عين الحياة : اسم العروس .

تهنئة بالزواج

٢ ــ هذه تهنئة أخرى لحسين باشا فى نفس مناسبة الزواج ، وردت فى « الكواكب النيرة » صفحة ١٢ . وهى من بحر الكامل .

لحسين باشا من صَفا الأوقاتِ — حظٌ بهىٌّ جوهــرىُّ الذاتِ
ومواهبٌ حُسِنتْ ومنها ناهب — أوفى نصيب الأنس واللــذاتِ
خَطَبتْ له العليا كريمةُ عمِّه — وهى الفريدةُ فى كمال صفاتِ
حيِّتْ فأحيتْ أنسَه مذ أرخوا — وصلٌ فيا بُشراىَ عينُ حَيَاةِ

سنة ١٢٨٩ هـ

ثم يردف ذلك بقوله :

وهاهو تاريخ لحضرة عين الحياة أيضاً فاض به مدادُ اليراع فيضاً :(١)

عينُ الحيــاة بهجــــةٌ — جاءتْ على وِفــق المرادْ
مُذ طابَ أنسُ عــرسها — أرختُهُ بالمرغــوب جــاد

سنة ١٢٨٩ هـ

(١) مداد اليراع : حبر القلم .

تهنئة طوسون باشا

١ — وردت هذه المقطوعة فى « الكواكب النيرة » صفحة ١٥ — تهنئة للأمير طوسون بمناسبة زواجه من الأميرة فاطمة بنت اسماعيل (صاحبة الفضل فى إنشاء كلية الآداب — جامعة القاهرة) . وهى من بحر الكامل .

وافى الهناءُ وطابَ وصْلُ الغيدِ ... وصَفا وُرود الأُنْسِ بالتجديدِ
سطعَ السنا وزهتْ أساريرُ المنى ... وشدتْ طيورُ الروض بالتغريدِ
قد قابلتْ وجناتُ ساقينا الطلا ... فاحمرَّ خدُّ الكأسِ بالتغريدِ
لاحتْ بسر كواكبٍ مصريةٍ ... لمخدراتٍ فى القصور وخُودِ(١)
فيهن أكفاءٌ لكل ممجّدٍ ... هو فى نظام الملك حِليةُ جيد
«طسن» رقى الأفلاكَ كوكبُ سعده ... وسما بآباءٍ كرام صيدِ(٢)
تُجلى له الزهراءُ فاطمةُ التى ... فى بيتِ إسماعيلَ بيت قصيد
لا غروَ أن تلكُ فى الكمال فريدةً ... فبمنٍّ مولاها انتمتْ لفريد
«طسن» علا (فى) المجد أسنى رتبةً ... وعلى المدى سينالُ فضلَ مزيد
وبعرسه الزاهى يزيدُ سروره ... بمواسم فيها بواسمُ عيد
سعد التهانى فيه قال مؤرخاً ... حظٌّ بهىٌّ بسَعادٍ لابن سعيدِ

سنة ١٢٨٩ هـ

---

(١) مخدارات : محجبات — الخود : الشابة الناعمة حسنة الخلق .

(٢) الصيد : ج أصيد ، وهو المزهو بنفسه .

٢ - تهنئة أخرى لطوسون باشا فى نفس المناسبة ، وردت فى « الكواكب النيرة » (ص ١٦) وهى من بحر الكامل .

« طسن » له فى المجد فضلُ إمارهْ	وعليه من علم الوقار أمارهْ (١)
شهمٌ تهذبَ فى العلا من مهده	وقضى بميدان العلا أوطاره
يحوى الفصاحةَ والبلاغةَ والبراعـ	ـةَ والبراعةَ عزةً ومهاره
أمضى الدجى سهراً ليظفر بالرجا	صقل الحجى إذ جاز خير تجاره
نفسٌ لها ينقادُ وهى زكيةٌ	من حيث يعصى فى الهوى الأمّاره (٢)
فى دولةِ الآداب صار مؤيداً	وأدام فيه ليلَه ونهاره
وقد اكتسى بالرشد أبهى حلة	من حيث يصرفُ فى العلا ديناره
وقد اصطفاه خديو مصرَ محبةً	وحباه صفوَ صهارةٍ واختاره
لكريمة زهراء تاج محاسنٍ	قد أخجلتْ زهرَ الرياض نضاره
وازداد إقبالاً ونال معزة	فى ضمن زُهرِ كواكبٍ سياره
بسعادةٍ وسيادةٍ أبديةٍ	قدماً وقد أعلى العزيزُ مناره
لله من أحيا مآثرَ بيته	وأدام فى طول المدى آثاره
ورثَ المفاخر كابراً عن كابر	حتى غدتْ بين الأنام شعاره
شهمٌ فخيمٌ قدرُه ومقامه	كفءٌ لدست سياسةٍ وإداره (٣)
سَلْ مشرقاتِ الأُنس عن تاريخه	« طسن » على عزِّ الصهارةِ والوزاره

١٢٨٩ هـ

ثم يردف ذلك ثانيةً بقوله : « وها هو تاريخ طلعة أنسه وبهجة عرسه » :

فاطمةٌ ضياؤُها	فى أفقِ مصر ساطعْ
عن سعدِها قد أرختُ	بالسعد بَخَتى طالع

١٢٨٩ هـ

(١) أمارة : علامة

(٢) الأمارة : النفس الأمارة بالسوء »

(٣) الدست : كرسى الحكم .

تهنئة دولتلو حسن باشا

١ — وردت هذه المقطوعة فى « الكواكب النيرة » صفحة ١٨ ، بمناسبة تهنئة الأمير حسن ، حيث يذكر رفاعة : « وفى فرحه المنيف نقول مقال من يبهر أرباب العقول » .. وهى من بحر الوافر .

فأثمارُ التهانى دانياتٌ	لجانيها وليس لها خفيرُ
وأقمارُ الأمانى طالعاتٌ	لرائيها فدونك يا بصيرُ
وآرامُ الغوانى راتعاتٌ	بوادى الأنس ليس بها نفورُ
وأنهارٌ من الجنات تجرى	يحيط بها من الأشجارِ سورُ
ومن غيم البحور لنا سماءٌ	وأنجمنا مصابيحٌ تنير
فدونك دُرٌّ ورَدٌّ دٌ منك لحظاً	بمرأىً ماله أبداً نظير
بمرأىً جلَّ إحساناً وحُسنا	وكملَ حُسنَه حُسنُ الأمير
أميرُ قد غدا فى حُسن قول	وفعلٍ نحوَه كلٌّ يُشير
له فى دولةِ الإقبال عرسٌ	به أيامنا عيدٌ كبير
به الأفراحُ قد عمتْ وخصت	بما يهوى كبيرٌ أو صغير
فكم من لذةٍ فيه أقيمتْ	بها حاز المنى الجمٌّ الغفير
وكم من ليلةٍ بالأمس مرت	وما مرتْ وكوكبها منير
بها تُهدَى الكريمةُ من ذراها	لكفءٍ وهوَ للعَليا وزير

٢ — وله قصيدة أخرى فى نفس المناسبة (صفحة ١٩) حيث يذكر : « قد جاء تاريخ فرحه الأبهج على أحسن منوال وأبهج » وهى من بحر الرجز .

قد أنعمَ اللهُ على مصرَ ومنّ بنعمةٍ تعدُّ من أسنى المِنَنْ

وفق إسماعيل وهو المؤتمنْ فمن يُسامى صادقَ الوعدِ فمنْ

كم ظهرتْ فى عهده مفاخرْ فاقتْ به الأوائلُ الأواخرْ

برُّ الندى كالنيل وهو زاخرْ يجودُ فيضُه بإسعاد الوطن

فى مصره كل المزايا حازها والعدلُ فى أيامه الغرّ زها

وقد أجادَ للعلا إعزازها وخاطِبُ الحَسْنا يغالى فى الثمنْ

أيامه جميعُها مواسمُ نواسمُ الأنس بها بواسمُ(١)

وكم له حول الحمى مراسمُ تجرى بعدله إلى أهدى سنن

فى دولة الأمانِ والأمانى عزُّ الحمى لديه فى ضمانِ

فالذهبُ الأكسيرُ كالجمانِ عن جابرٍ يروى غِنى هذا الزمنْ

لا غروَ أن توالت الأفراحُ وقد زها الأنسُ والانشراحُ

ودار فى روح التهانى راحُ وغردَ القمرىُّ على أعلى فَنَنْ

عرسُ المشير ثالثِ الأنجالِ فى غاية التبجيلِ والجمالِ

وصف سَناه واسعُ المجالِ يَكِلُّ عن بيانه أولو اللُّسنْ

فراحُه فى أفقنا كواكبُ أنوارُها تزهو بها مواكبُ

وأنعمٌ من جوده سواكبُ فى السر درُّها وفى العلنْ

يتيه عجباً « حَسَنٌ » بعُرسه كعجبهِ قدماً بعالى دَرْسه

فليقتطفْ دانى الجنى من غرسه كما اجتنى من العلوم كلَّ فنْ

---

(١) نواسم : ج نسمة ، وهو جمع غير مألوف ، والنسمة هى الريح الهادئة الطيبة .

نسيمُ أنس عرسِه هبَّتْ رخا   ومن غَوالى طيبه شمَمْنا الرخا(١)
من حاسدٍ عوَّذَه من أرخـــا   بالحسنين عوذوا صفواً حسن
سنة ١٢٨٩ هـ

ثم يردف هذه القصيدة بقوله (ص ٢٠) : وقد توفق تاريخ لحضرة الهانم ذات المحاسن والمكارم وهو :

لله أفـــــراحٌ زهتْ   حوتْ المعالى والنَّضاره
فلها كما قـــدْ أرخوا   بخديجةٍ أزهى إمـــاره
سنة ١٢٨٩ هـ

---

(١) هبت رخاء : هبت غزيرة — الرخا : الرخاء ، كثرة العيش ووفرته .

تهنئة دولتلو إبراهيم باشا

فى معرض مدح رفاعة لأبناء إسماعيل ينتقل أيضاً إلى مدح بناته .. ثم إلى مدح إبراهيم باشا ابن المرحوم أحمد باشا، وهو ابن أخ للخديوى إسماعيل وزوج ابنته زينب .. والمديح بمناسبة زواجهما حيث يذكر فى الليالى المقمرة » صفحة ٢١ :

« وقد أرخت عقد التأهيل بتاريخين يلتقيان بكلٍ من الطرفين أولهما (ص ٢١) وهو من بحر الكامل :

لله عـَقـْدٌ ساميـاتٌ سروره ... هى فى سماءِ النيرات زَواهرُ
عجباً لها وهى البدورُ وأشرقتْ ... معهاالشموس دُجى وهن سوافرُ
فكأنما افتخرتْ بحليـة زينب ... فعقودُها فى جيدهن جواهرُ
ولطيب إبراهيم باشا أرخـوا ... تأهيلُ إبراهيم باشا عـاطرُ

سنة ١٢٨٩هـ

وثانيهما (ص ٢١) ، وهو من مجزوء الكامل :

روضةٌ بالحسن غِـنـَا ... فى رباها الطـيرُ غـَنـَّى
تخطبُ الظـبى الأغنا ... وسواه لم يَحـــــزه
وبهـا أبهـجُ قـصرِ ... شيد للعليـا بمصر
حُسنه مفـردٌ عصرى ... قلْ لإبراهيم جُــزْه
يا فـتى من نسلِ أحمد ... كم خصالٍ فيكَ تُحمدْ
لك درُّ العقـد مفـرد ... كـنزُ درٍ فاكتـنزه
لك بالأفـراح عـرسُ ... كلـه حـظٌ وأنسُ
كم به صنفٌ وجنسُ ... بالتهـانى فاعـتزه
فنديمُ الأنس صَـافى ... لك بالـراح سُلافـا
زمنُ الاسعـاد وافى ... فانتهـبه وانتهـزه
قـَدمٌ فى المجد أرْسَخ ... علمٌ فى السعد أشْمخ
ومقـامُ العــزّ أرخ ... بختُ إبراهـيمَ يزهو

سنة ١٢٨٩ هـ

ثم يردف ذلك بقوله (ص ٢١) : « وأما تاريخ البضعة الخديوية ذات الطلعة البهية فهو :

وكريمةُ المجد الخديوى زينب قاضى الملاحةِ بالبهــاء لها أمرْ
فلسعدِ إبراهيم باشا أرخــوا حاكى محياها بها ضوءُ القمر
(بحر الكامل) سنة ١٢٨٩ هـ

ويصف بعد ذلك المهرجان الذى أقامـه الخديوى بمناسبة هذا الفرح الذى ضم « أمراء الحكومة المصرية وأعيان أهل الدول والملل » .. (١)

ثم يذكر « وقد أرخت ذلك بقولى » (ص ٢٢) :

لقد شادَ الخديوى مهرجانــاً أضاء الكونَ من سامى مناره
له صيتٌ بـه الركبان سارتْ لهـذا أرخــوه بافتخاره
(بحر الوافر) سنة ١٢٨٩ هـ

---

(١) سبق ذكر القصيدة التى تصف المهرجان فى الفصل الخاص بالوصف من هذا الكتاب ص ١٢٢

متفرقات فى المدح

قال يمدح الخديوى إسماعيل .. والمقطوعة من بحر الخفيف :

سيدٌ عزمُهُ أحدُّ من السيـ ـف وأمضى من عامل المُرّانِ
أشرقتْ مصرنا بشمس علاه وتباهتْ مجداً على البلدان
ورث المجدَ عن أبيه وقد زا د على سابقيه بالإحسان
واستنارت بفكره مدلهمـا تُ أمورٍ أعيتْ لكلِّ معانى

« روضة المدارس » ص ١٩ (١٥ شوال ١٢٨٧)

* * *

قال يمدح حسين باشا نجل الخديوى اسماعيل ويهنئه بتقلد نظارة ديوان المدارس ، والمقطوعة من بحر مخلّع البسيط .

وفى العلى حقّها زمانٌ رضا حسينٍ عليه دَينُ
روضُ الأمانى به نضيرٌ وصفوُ سلساله لُجين
منافع القطر منه ضاعت لها بنور النجاح عين
تزهو دواوينه ابتهاجا إذْ أرّختْ ناظرى حسين

« روضة المدارس » ١٢ (غاية جمادى الثانية ١٢٨٩)

* * *

وردت الأبيات خلال مقدمة كتابه « المرشد الأمين » ، وهى من بحر الوافر .. حيث يقول بعد حديثه عن مسيرة النهضة المصرية فى ميدان المعارف :

سعادتنا بإحراز المعالى بها عصر الهنا أضحى ضمينا
نحوز المجد بالهمم العوالى وصاحب مصر إسماعيل فينا

* * *

ويقول فى مدح الخديوى إسماعيل راعى النهضة :

سألنا معـــالى مصر هل لكِ عودةٌ وهل سابقاتُ الدهر يدنو بعيدُها
فقالت باسماعيلَ أوحــدِ عصرِه وجدْتُ لأيامِ الصِّبا مَنْ يُعيدُها

كما يمدح أبوة إسماعيل فيقول :

أبوةُ خيرٍ أحرزتْ كلَّ ماجدٍ حوى قصباتِ السبق فى كل مفخرِ
رجالُ تجاريبَ وأبطــال دولــةٍ وسادةُ أحكام وفرسان منـــبر
إذا أبدت الأيــام يوماً جهامــةً يقابلها من حسنهم كلَّ مُسفــر

الأبيات من بحر الطويل وقد نشرت فى روضة المدارس — ١٦ ، (غاية شعبان ١٢٩١ هـ) (١)

(١) هذه الأبيات المتفرقة استدركها على الديوان فى طبعته الأولى تلميذى أحمد الخطيب فى رسالته : الشعر فى الدوريات المصرية ، ج ٢ ، ص ١٢٨ .

الفصل الخامس

الشعر المترجم

المحاولة الأولى

هذه أبيات متفرقة فى الغزل ، يبدو أنها تمثل أول محاولات رفاعة فى الترجمة ، وقد وردت فى « تخليص الإبريز » (صفحة ٢٢٤) أثناء حديثه عن سمات الأدب الفرنسى حيث يقول : « ثم إن العلوم الأدبية الفرنساوية لا بأس بها ، لكن لغتها وأشعارها مبنيةٌ على عادة جاهلية اليونان ، وتأليههم ما يستحسنونه ، فيقولون مثلا : إله الجمال ، وإله العشق ، وإله كذا .. فألفاظهم فى بعض الأحيان كفريةٌ صريحة ، وإن كانوا لا يعتقدونَ ما يقولون ، وإنما هذا من باب التمثيل ونحوه(١) ، وبالجملة فكثير من الأشعار الفرنساوية لا بأس به . ولنذكر لك شيئاً من بعض أشعارهم مترجمة من كلام بعضهم للعبد الفقير :

وإذا القلـوبُ تعلقتْ ... رأتِ الجميـعَ جميلا
كسفينـةٍ تسـعى إلى ... شعب يكـون مَهولا
لهفى على زمنِ الهنـا ... إنْ صَحَّ كان بخيـلا

(مجزوء الكامل)

وقوله مترجماً لى :

ودعِ القلـب فيك ياقاتلى ... يا خيالَ المُسعـدِ الزائر
إن روحى بالعذابِ اصطلتْ ... وعلى البُرْءِ لست بالقادر
وسرورى بالهـوى لمحـةٌ ... مثل زهر الورق الزاهـر

(بحر المديد)

---

(١) بهذه الإشارة يعد رفاعة (أول) من تحدث عن الأساطير والميثولوجيا فى العصر الحديث. راجع فى هذا الصدد أيضاً تقديمه لترجمة « وقائع تليماك » ، طبعة بيروت ، ص ٦ .

نظم العقود فى كسر العود

فى الفصل الثانى من المقالة الثالثة فى كتاب « تخليص الإبريز » عند الكلام عن أهل باريس **يتحدث رفاعة عن اللغة والأدب** ، ثم ينتقل إلى الحديث عن الشعر الفرنسى وسماته . وبعد أن يذكر محاولته الأولى فى ترجمة الشعر يردف ذلك بقوله :

« ومن القصيدة المسماة « نظم العقود فى كسر العود » للخواجة يعقوب المصرى منشأ ، الفرنساوى استيطاناً ، وقد اعتنيتُ بترجمتها سنة ألف ومائتين واثنتين وأربعين وأخرجتها من ظلمات الكفر إلى نور الإسلام » (١) .

وعن يعقوب المصرى — مؤلف القصيدة — يذكر محمود فهمى حجازى فى هوامشه « أنه ولد بالقاهرة سنة ١٧٦٥ وهاجر مع الفرنسيين ، وتعلم فى مرسيليا واشتغل مترجماً ، ثم مدرساً للغة العربية فى ليسيه لويس الأكبر فى باريس . ودرّس اللغة الفرنسية لأعضاء البعثة المصرية التى كان بها الطهطاوى . وقد توفى سنة ١٨٣٢ » (٢) .

وأما قصيدته « La Lyre Brisée » أى العود المكسور ، فقد نشرت بالفرنسية سنة ١٨٢٧ . وفى « مختارات من كتب رفاعة الطهطاوى » قدم جامعوه لها بقولهم : « نقل رفاعة إلى العربية قصيدة فرنسية لأستاذه الذى كان يعلمه الفرنسية يوسف أكوب (يعقوب) ، وهى تتضمن غزلا ، وحنيناً وتفاخراً ومدحاً لمصر . وكان ناظم القصيدة قد أهداها إلى شاعرة فرنسية تدعى « Du Frenay » كانت شهيرة بالمراثى ، وهن تتضمن ثورة على الحب ، والتجاء إلى عود الغناء يبثه الشاعر آلامه وآماله ، ولكن الثائر لم يلبث أن رأى دموع الحبيبة تنهمل على خديها ، فحطّم عوده وعاد

---

(١) تخليص الأبريز ، ص ٢٢٤ .

(٢) المصدر السابق ، ص ٤٤٢ .

إلى حبيبته ، ولذلك سميت القصيدة « العود المكسور » ولغرام رفاعة بالسجع في تدوين كتبه ترجمها بنظم العقود في كسر العود » (١) .

وأثناء جمعنا لشعر الطهطاوى لم نصل إلى نص كامل لها ، نظراً لطبع القصيدة ونشرها معربة في باريس (١٨٢٧) تحت عنوان : « نظم العقود في كسر العود — ترجمة من اللغة الفرنساوية إلى العربية للشيخ رفاعة المصرى الأزهرى بمدينة باريز ، بدار طباعة دونده دوبرى — سنة ١٢٤٢ محمدية » .

وقد نشر محمد زكريا عنانى القصيدة كاملة في مجلة « الكاتب » القاهرية عدد مارس ١٩٧٧ .

والذى لا جدال فيه أن الطهطاوى بهذا العمل الجديد الذى بدأه في الشعر العربي **يعد رائداً في مجال الشعر المترجم** ، وفاتحاً لباب سوف يطرد النشاط الأدبي خلاله فيما بعد على يد شعراء كبار مثل : محمد عثمان جلال ، سليمان البستانى ، أحمد شوقى ، عبد الرحمن شكرى ، إبراهيم عبد القادر المازنى ، إبراهيم ناجى ، أحمد رامى .. وغيرهم .

---

(١) مختارات من كتب رفاعة ، ص ١٥٣ .

نظم العقود فى كسر العود

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة (بقلم رفاعة الطهطاوى)

« حمداً لمن خص الإنسان بفصيح اللسان ، وأتحفه بالعرفان فى سائر الأنام، وفضّله عما سواه ، واصطفى له من الأزل ذكاء القريحة ، فوافى فيما لم يزل بفطنة رجيحة ، تتصرف فى بليغ الكلام وتبلغ منتهاه .. أحمده على ما أهداه من النعم ، وأسداه من الفضل والكرم ، وأشكره وفاءً له بالإنعام ، ولا أعبد إلا إياه .. وأحمل ركائب الصلاة والتسليم ، وأُجمل مواكب التبجيل والتكريم ، إلى حضرة كريم الكرام ، خير أنبيائه سيدنا محمد سيد الأمم ، أشرف العرب والعجم ، المظلل بالغمام ، عظيم الجاه الناطق بفصيح الخطاب ، ورجيح الصواب ، والهازم بحسام الإسلام جيوش أعدائه ، وعلى آله وأصحابه ، وعترته وأحبابه ، السادة الأعلام وجميع أصفيائه ، أما بعد ..

فأقول وأنا العبد الفقير ، المقر بالعجز والتقصير ، رفاعة بن الشريف السيد بدوى رافع الطهطاوى الحسينى القاسمى :

قد منّ الله علىّ بخدمة حضرة ولى النعمة وزير مصر حينئذ وخدمته فى الحقيقة سيادة ، وانتظمت فى عقد أتباعه وهو عقد السعادة ، وكنت من جملة من أمر بتعلم اللغة الفرنساوية بمدينة باريز ، وقد وصلنا إليها وشرعنا فى تعلم هذه اللغة فحصّلت منها بعض شىء ، وكنت مارست سابقاً تعلُّم جملة من العلوم العربية من العقلية والنقلية ، واستفدت منها ما يسر به رب البرية ، من معرفة تحقيق المعانى ، وترقيق المبانى ، وقد كلفت منها بالآداب ، كلف العاشق بزينب والرباب ، فكان هذا مما أعانى على تمييز القواعد من اللغة الفرنساوية ، لما أن لإدراك المعانى مزية ، وقد سرحت ناظرى ونزهت خاطرى فى منظومة فرنساوية ، منسوبة لرئيس من يعلمنا من هذه اللغة القواعد ،

ويفيدنا من فصاحتها بفرائد الفوائد ، العارف بأسلوب لغتي العربي والفرنساوى ، والبارع فى فهم المعانى فهو لفخرها حاوى ، الخواجا يوسف أجوب المصرى منشأ ، تتضمن تشبباً وغزلا وحنينا وتفاخرا ومدحا لمصر ووزيرها حضرة أفندينا ، وكان جل ما فيها يهجس فى فؤادى ، وينطق به لسان مرادى ، فأردت أن أبذل جهدى ، وأمعن نظرى وخلدى ، وأنقلها إلى العربية ، ولو كان فى ذلك مشقة قوية ، فقدمت على ذلك ، فإذا هى بالنسبة إلى مثلى دونها خرط القتاد ، تحتاج — زيادة على الترجمة — إلى التوفيق على المعنى المراد ، ولا أقرب حينئذ من مراجعة مؤلفها ، وسماع الكلام من فيه ، كما أن صاحب البيت أدرى — بالذى فيه ، فالتزمت مراجعته فى سائر أبيات القصيدة وترجمتها ، فجاءت على حسب ما يسره الله كالأصل فريدة ، مع إبدال بعض المعانى بآخر ، لأن مبنى معانيها كان على أسلوب غير العرب ، فحاولتها على أسلوبهم ، ومن حقق النظر ودقق الفكر ، وكان قد رضع ثديىّ اللغتين ، وتربى فى حجر اللسانين ، أدرك ما بين الأصل والفرع من الاتحاد ، إلا ما بدلته موافق لما هو عندنا من السداد . وهى أول تحفة أرسمها باسم من ظهرت من إمداد أنفاسه ، حضرة ولى النعمة حفظه الله ، ثم أننى أعتذر لمن يطلع على هذه القصيدة فى تهافت بعض الكلمات ، بأن لى أعذاراً شتى ، كالمحافظة على إبقاء روح المعنى الأصلى الذى لا يجىء إلا بذلك ، وكضيق القوافى ، وكتكدر البال بمفارقة الأحباب والأوطان ، والبعد عن الأصحاب والخلان ، والذنب فى مثل هذا لا يثار ، حيث كان ديته الاعتذار ».

ترجمة مقدمة « أجوب » :

ثم إن الناظم قد ابتدأ قصيدته بمقدمة ، فبعد سردها وسرد القصيدة بتمامها أتعرض لبعض شىء منها ، وها هى المقدمة التى هى قوله(١) :

« هذه القصيدة اللطيفة المتممة من حين ، التى ما كنت أود إبرازها

---

(١) الكلام التالى على لسان يعقوب .

إلا فى مجموع ديوانى كانت تحفة مقدمة لسيدتى دفرينوا ، فاختطفتها المنية ، وأيتمت الأشعار والأحباب من هذه المحبوبة الحرية بالسمو ، التى مراثيها ألحقتها بدرجة « برنى » ، فكان حقاً علىّ أن أصدر لذكرها جلى التكريم الذى كنت أخصها به حال حياتها ، وحذراً من أن تصانيف أهم معنى تعوقنى عن النظم ، أسرع فى رفع القناع عن محيا هذه القصيدة مفردة .

نبذة : نشأتُ على شاطىء النيل وجئت إلى فرنسا تبع الغزوة الشهيرة ، وصار لى السعد ، بسبب اطلاعى وأنا شاب على قواعد آدابهم ، فما قصَّرت فى إهداء ابتهاجى للمؤلفين الذين شيدوها ، وصيروها أفخر آداب الإفرنج . وقد وصلت باريز سنة ألف ومائتين وخمس وثلاثين من الهجرة المحمدية ، وأشهرت قصيدة غريبة فى البداية التى نشأت بها ، وحالتى الشخصية أوجبت ميل التمارب إلىّ ، ومنبع القبول الذى حزته من مؤلفى باريز فاق أملى ، وقد كان لى حتماً عليهم أن يشدوا عُرى همتى ، فنلت ثناءهم علىّ ،ولولا تيقنى أن عند طائفة كرام رؤساء يوجد القرى حتى فى الرأى ، لتعجبت من نجاحى هذا ، ثم إن بعض الناس أرباب ذوى الذوق السليم الذين سمعوا إنشاد قصيدتى الثانية ظهر منهم ترجيحها على الأولى ، وما على أن أبحث عن مرجبات هذا التفضيل ، ولا أقول سوى أن (ليس) لى أدنى استحقاق فى رضاء الراقفين عليها عنى . وقد لزم لى أن أطيع بالترتيب ذهاب هُيــام الأشعار الغنائية ، وأتخلص من أسلوب إلى آخر ، فأعقب الافتخارات الشعرية بالحركات الحنينية ، مهيجات المحبة العشقية .

ثم إن مزايا هذا التأليف إنما هى فى بلاغة النظم ، إذ هى أوقع من دواعى الغرض ، وبالجملة فأنه ماكان فى هذه القصيدة نصب عينى — كما فى الأولى — شكل آثار مصر ، ولكنىّ أعلن أن قلبى ما استحسن أبداً رجحان تأليفى كما فى هذه ، وفى تقديم هذه الهدية لذكر تلك المحبوبة الشهيرة .. ليت لى غصن نضرة فأضعه على قبرها » (١) والقصيدة من **بحر الخفيف** .

---

(١) يراجع نص التقديم كاملا فى مجلة « الكاتب » ، القاهرة ، عدد مارس ١٩٧٧ .

نظمِ العقود فى كسر العود

بينما قد خرجتُ من عنـــد سُعدَى حيثُ منها بالوصل قد نلتُ قَصْدَا(١)
وقطفتُ زهــراً وقبّلتُ خــَـدا إذ بنظم القريضِ قد زدتُ وجدَا
وجعلتُ كالدرِّ أنظمُ عِقــْـدا

زاد بى الحــالُ إذ صفا لى حَانِيِ فى غنـائِى بالعودِ والألحــانِ
باسم ربىِّ والســادةِ الأعيـــانِ وترنمتُ شجـــوةً بالحســانِ
وبسُعدَى ذاتِ الجبــين المفدَّى

فصــغَى سمعُهـــا إلى إنشــادِى ورمى النـــارَ لحظُها فى فؤادِى
فلهذا شعرى بـــدا ذا اتّقـــادِ وغدا من حــماسِهِ فى انفــراد
لذوى الفهم والمعـــارف يُهدَى

أحــرقَ العشقُ قلبهـــا كاحتراقِ فأتتْ تُطــفى الظى بعِنـــاقِ
فتضاممْنـــا ضمةَ المشتـــاقِ وتلاثمنـــا عـــادةَ العشّـاق
وتثنتْ ، لتخجلَ الغصنَ قَدّا

شنِّفْ السمعَ من رفيــقِ التغـانى واستمعْ يا أُخىَّ صوتَ المثــانِى
يا خليـــلىَّ بالله هـــلاّ ترانى أننى قد أحييْتُ شعرَ ابن هــانِى
بعد أن كان قد توســّـد لحدا

حيثُ شِعرى نَجلُ الشجاعة يُملىَ لستُ أحجـوه فى البراعــةِ إلاّ
أنه قـــد رقىَ العـــُـلا وتملاّ وغدا لا ثقاً بحـضرة مـــولى
فقـــدَ الشّبهَ فى الورَى والضّدا

واحيائى واخجلتى صار فـــنّى أننى فى هــوى المِــلاحِ أُغنّى
برخيمِ الغنـــا كظبِىٍ أغـــنِّ وبأوتارِى أبتـــدى وأُثـــنّى
ما أرى هـــذا للفضائل أجـْـدى

أفأيّامى كلُّـــها لى عـــقيمــهْ أو مـــالى عواقبٌ مستقيـــمهْ ؟

---

(١) الجزء التالى يشكل مقدمة غزلية .

بل عــلىّ طــاعةُ الهوى مُستديمه　　أفما هــذه مــرّاقٍ ذميمـــه

أقتفى هــزلهًا وأرفضُ جِــدا ؟

أعــلى اجــتراع كأسٍ نصيــبِ　　خــاملٍ ليس كافياً (١) لأريبِ؟

مــع أنى والله غـــيرُ مُريبٍ　　همّتِى همــةُ الذكى النجــيبِ

أتقــنصُ المجــدَ والسُّوى تتعلى

غــيره كان قــد تسلطنَ عِشقى　　وسبا قانونى لــه فى الـــرقّ

فليقم فى المغــنى بأوفـــر حــقٍ　　بُليتْ الألفـــاظُ من نارِ شوق

مع خفــوقٍ يشــيرُ برقاً ورعدا

* * *

مثلُ أرياحِ مصرَ ذاتُ اضطرابِ　　آه من مصر إذ غدَتْ فى حِسابى(٢)

أدهشتنى بسحـــرها المستهــاب　　وأثارتْ علىّ ذكــرى صَبَــابى

ولأوطــانى أذكــرتنى عهــدا

ما أحيي سعيدَ بيركَ ألـــزمْ　　فــرطٌ بالعــودِ أنْ قــد ترنم

وبأنغــامِهِ القــويـــة سـلم　　وتمــنّى لــو كان قــال وعلم

فيك فخــرًا كما عهدتَ ومجــدا

أنا أدركتُ نحـــوك الحنيّــه　　واعتَرى قــلبي رأفةٌ بنويــّــه

ولقد قِستُ فكــرتى والرويــّه　　بعـــلاك فجــاءتنــا بالسويــّه

فصرفتُ إليــك شكــرًا وحمدا

أنا فى إنشادِى القــريضَ أُصدرْ　　نحوَ عمــرانك المديحَ وأُظهــرْ

لك تاريخٌ بالعجــائبِ مُبْهــرْ　　وبتجديدى هيكــلاً لا أقصــر

وأعيــد الــذى تلاشى مجــدا

---

(١) فى الأصل : كافل .

(٢) الشاعر ينتقل من الغزل إلى الحنين لمصر و مدح محمد على .

وبتأسيس(١) فيك كل الفنونِ · بهدايا تغتني عن يقينِ
وبإنشائي المبين المتينِ · أنقلُ أوربا فيك يا نورَ عيني
وأوفِّيك بالمعارف سَعْدا

واحدٌ من بنيك يَصنع عُرفا · حيث الفضلُ فيك ينشرُ عَرفا(٢)
هل ترين السوى يفيدك لطفا · فاقَ هذا الذي وأرغَم أنفا
كلَّ لاحٍ وللحواسد أردى

أنا إنْ شاء الله حققَ عوْدي · فيك أعجوبةٌ رقتْ في الصعودِ
وتولى على ثراكِ السعيد · وأزال الذي عفّى بالجديد
وإليك كلَّ المفاخرِ أُسْدي

لكن المفخرَ الذي قد تخبّا · تحتَ أطلالك القديمة حِقبا
قد أُزيلَ القناعُ عنه فهبّا · ضوؤه في الأنام شرقا وغربا
وعجيبٌ أنْ سرعةً قد تبدّا(٣)

خبريني من الذي قد تولّى · شأنك البالغَ الجدودَ وعلاَّ
سمكُ إيوانك الذي فيه حلاَّ · يا لَه من عظيم رأيٍ تجلاَّ
من بني الترك للفلاحِ استعدا

مذْ دنا مُشْهِراً للسلاحِ · صَغُر الكلُ في جميع النواحي
أو رنا ناطقاً بعين الفلاحِ · قام من قبره فخارُك صاحِي
ورقى ذروةَ العُلا وامتدّا

بسياساتٍ فيك أضحى كفيلاَ · بيدٍ دانتْ من مُضى التقبيلا
حددتْ في جبينك الإكليلا · نضرتْ غُصناً فيكِ حاز ذبولا
وأعادتْ فيه الشبيبةَ وُدّا

---

(١) في الأصل : ويتأسيس .
(٢) عُرْف : معروف – عَرْف : رائحة طيبة .
(٣) الشاعر يشير إلى اكتشاف الآثار الفرعونية القديمة.

يا وزيراً بأرض مصرَ عطـــوفْ حوله كلُّ المكـرماتِ تطوفْ
أعـــدن رونقـاً بمصر ينــوف حُزْتِ تختاً عن الملوكِ طـريفْ
فلتحزْ فضــلاً وتحـرزْ رُشْداً

فعلُكَ الخيرَ بعده حسنُ ذكـرِ مستمرٌ على مدى كل دهــرِ
فاغتنم حــفظ مشتهَى نيلِ مصرِ فلقــد شابه دماً سيفُ نــصرِ
وغدا فى حمــاكِ ينفقُ رِفْـدا

فأدِم فى سبيل المحـاسنِ سَعيــاً وارْعَ فى روضةِ الأحاسنِ رعيا
وأبِنْ عن بهاءِ مصر المحيَّــــا ما تخبّــا من حسنها قد تهيــا
وغدا غورُهــا بفعلك نجْــدا

* * *

أنا عن وجهِ مصرَ صرتُ بعيــداً فوق برٍّ بالفضل أضحى سَعيدا(١)
ولــوادٍ شرّفتــه لــن أريــدا حيث عني اغتنى وصار وحيدا
فحقيقٌ بالعقم موتِى فــرْدا

مع أنى بالقــرب مـن ميْدانِ عــامرٍ من تنـاضُل الفرسانِ
كلُّ أقــرانى بالسبــاق مُعـانى وجميــعُ الأنــام طُـراً يرانى
فى مرورِى أرى التفرُنجَ نِداً

أبهذا الــوادى رفيــعُ الفخـارِ صار فى شطك المنيــع قرارى
فى الحشا قد غرسْتَ حبَّ اشتهارى حيث كل الكمالِ نحوك سارى
فعجيبٌ أنْ لا أُنــافسُ ضِداً

مع ما قــد حملتُ حيث فـريقى محـرقاتٌ من الــدم الأفـريقِى
وصَبُوحِى بلــوعَــتى وغَبوقى كل هــذا غدا هبــاءٌ بشــوقِى
وأنيــنى من المحبــةِ عَمْــدا

أنا أسلمتُ للمقـــادير نفــسى ونَصيبى عــاملتُــه بالتأسّى

(١) فى هذا الجزء يعبر الشاعر عن غربته فى فرنسا .

وإذا العـودُ في يدي أنا أُمسي نحوَ باريز ثمَّ مجلسُ أُنسي
لأري شعري كيف يَبلغُ حَدّا

وإفادي أسيرَ عقلٍ ذكيٍّ يزدري فيها شعرَ كل كميٍّ(١)
يرتقي أوجَ كلِّ معنى بهيٍّ ينتقي لفظَ ماهرٍ ألمعيٍّ
وشذاه يضوعُ مسكاً ونـدا

يا إلـه السماءِ ياذا البقـاء قد تيقنتُ فيك نيلَ رجائي
لم أحدْ عن موائدِ الأحيـاء قبل أن أستريحَ تحت لواء
مع أهل الفخار أبلغُ قَصْدا

* * *

أنتِ يا سُعدى قد ملكتِ حشائي وسبيتِ حريتي بالتهائي(٢)
ولقد أذهبتِ شديدَ بهائي عن محيّا وقتي الذى باعتنائي
لا يُوفى إلا لعُودي وعدا

وسلبتِ بغير حقٍ شبابي وحسبتُ لَدَيْكِ كلَّ اكتآبي
وعلى حُكمكِ المعيبِ انتسابي ولكِ أن تصرفي في انتهابي
في حياتي وما أرى عنكِ بُدا

اذهبي الآن قد رفضتُ الغراما لست من أسراه ، نقضتُ الذِّماما
عن عبوديتي نحوتُ مُراما لستُ أرضى لشرعتي استسلاما
أنا لا أبغي ولو تلطفتِ بَعْدا

أحرقتْني بلثمها وَاعتنائي مزجتْ خمرَ ثغرها بدمائي
في عُروقي جرت وفي أعضائي اذهبي يا سُعدى أديمي التنائي
(فظلومُ) (٣) الهوى عليَّ تعدَّى

اقبلي منيِّ طيباتِ الوداعِ واجعليها نهايةَ الاجتماعِ

---

(١) إفادي : سفري – كمي : فارس .

(٢) الشاعر يعود مرة ثانية للحديث عن الحب والحبيبة .

(٣) في الأصل : مظلوم .

قد تسليتُ رغبةً فى ارتفاعى ولأحيي ذِكرى بغير انقطاع

وأجارى تأييدَه لا مَردّا

أمنياتى من غفلتى أيقظتنِى وبإلهامها الهُدى وعظتنى

ودواعى الغرام قد لَفِظتنى فتناولتُ آلةً حفظتنى

فتجارتْ لقصْمها اليومَ سُعدى

حسْبُكُ الله أن عُودى حياتى أتريدى أن تظفرى بوفاتِى ؟

يا فجارِ الفرارَ عن مُزهقاتى أنا مسكينٌ فى الورى أنا ذاتى

كيفَ بالفحشِ قد تمنَّيتُ صَدّا ؟

أىُّ شيءٍ قد قلتُه من جُنونى وتفننتُ فى القَلا بفنُونِ

يا مرامى المباينَ التبيين قد تلعبتَ فى الهوى بالمجون

تردفُ الضد من غرامك ضدا

يا فؤادى قد أسلمتُك الأمورا وأباحتْ تجارةً لن تبُورا

كيف ترضى على الظبا أن تجورا لستَ ألفوك(١) آسفاً مقهورا

حيث فديتُ قلبها الآن فِدا

أفيهنيك شِدةُ الإيلامِ لفتاةٍ صعيفة فى الأنامِ

يا شريفاً لدى الملوكِ الكرامِ بامتداحٍ لهم مدى الأيّام

إن هذا للمجد يهدم عهدا

فتأملْ منها انهمالَ الدموعِ من عيونٍ مريضةٍ بالولوع

الفرارَ الفرارَ فهو شفيعى غير أن الفرار ألقى بروعى

أنها من يَدَيْنى تجاورُ لحْدا

---

(١) ألفى : يجد — واستخدام الفعل على هذه الصورة غير مستعمل ، والصحيح أن تكون : ألفاك بمعنى أجدك .

هذه فكــرةٌ أراعتْ فــؤادي　　وأضاعتْ عــزمي وكلَّ اعتمادي
وأثارتْ دمي ووارتْ رشــادي　　لستُ أنجو جبانَ نصرِ اجتهادي

أو أفــادي من همتي الآن قيــدا

ويحَ عــزٍ وسؤددٍ نشــتريه　　بنواحِ المــلاحِ إذ نشــتهيــه
يا فــؤادي سلْ عند أي فقيــه　　يغفــرُ الذنبَ من قتــالِ بنيــه

لاشتهاءِ الظهور ، علّك تُهــدى

فخــرُ ذا الجــرْم ليس يكسو إلا　　فوق كتفيــه من خطــاياه ثِقلا
أنــا صدقتُ مأربــاً معتــــلا　　ورجــاءً عن الطــريقةِ ضَــلاّ

في صنيعي لغــادتي ما اشتدا

أذهبُ اليــوم خائناً للــــودادِ　　لسؤال العُــلا أمــدُّ الأيادي
وجبيني قدمتُــــه بتمــــادي　　نحوَ تاج على اتهــامي يُنــادي

وافتضاحي يكون في النــاس وِرْدا

لا رعَى اللهُ فكــرةَ التأسيــفِ　　مزّقتني بسهم قــوسٍ عنيــفِ
وصياحي الخــفيُّ مــزّقَ خوفي　　وغضوبُ الإكليــل في تعنيــفي

لجبيني أضحى يُحــاول طــردا

تخذ الصمتَ عادةً منك عُــودي　　حيثُ بانتْ تلهفــاتُ الصــدودِ
وغدا في أنامــلي كالعميــــدِ　　ميتــاً لا يظــن فيــه بعــوْدِ

لم يُطــقْ للغنــاء أن يتصــدّى

وأنا الذي قد رميتُ السلاحــــا　　ولشرع الهــوى خفضتُ الجناحا
لا تزالي إنْ تفعــلي إصــــلاحا　　ترفعــي في الغــرام عــني جناحا

وانظــري لي بين لطفــك أفدى

ليتني أشتري رضــاءك عــــني　　الذي الآن فيــــه حسّنتُ ظنّي
بنصيفِ الحيــــاة لو كان يُغــني　　وبما قد بقي أعيشُ بأمــــنِ

أرتقي في نعــيمِ حُسنك خُلْدا

فحقيـــقٌ أن المفاخــرَ كانــتْ ؛ قد أرادتْ ضِيافــتى ما توانتْ
بسعــاداتٍ لم تكـن لى بانــتْ لكن النصرةَ التى قــد تدانتْ
بابهــا الظــنُّ والشقاءُ تحــدَّى

فإذنِ قد وكلتِ شمــسَ رجــاءِ بك أضحى شروقُها فى ازدهــاءِ
وتهــنَّ غــروبها بهنــــاءِ وإذن أنا حــاضرٌ يا منــــائى
فهلمِّى كيما أُقبِّلُ خــــدّا

إن رشفى مدامــعَ الأحــــزانِ من عيونٍ مَريضةِ الأجفـــانِ
قد رَددتِ إليكِ خِــلاً مُعــانى او صددتِ الذميمَ مــن طيشــانى
فانظرى قد قصمتُ عُودى زهدا(١)

هو عــودٌ كما علمتِ أثـــيمُ حــظه فى القصــاصِ حظ جسيمُ
فهو ملقىٌ على الــتراب ثَلــيمُ حيثما كان للمعـــالى يَــرومُ
مذ خلصتُ (صار) (٢) دمعكَ حَدّا

فدعى ذكراكِ قصيرَ خَيــــالِ غرّنى فيــه لهجتى فى كَمــالى
وأنا الآن فــديةٌ للجمـــــالِ قد ذبحتُ الفخــارَ مما جرى لى
ونحرتُ استقبالَ عِــزى بَعدا

إن روحى قد أغربتْ فى المــوده بابتهاجٍ قد صيَّر العــزَّ جُنده
وحبــــانى بجنـــــةٍ مستعــده فى حيــاتى كيما أسامرُ مجـــده
فانظرى كيف حبُّــك اليوم أدَّى

فمن الآن للممــــاتِ خُذيــنى عبــدَ رقٍ بين الورى شرِّفينى
أى شىءٍ من الأمــــانى يَليــنى فلتكونى مــولاةَ عِــزّى ودينى
واجعلى لى بساطَ حجــرك مَهْــدا

فهلمىَّ لتشمليــــنى لُطفَــــا وأسكرينى بخمــرِ عــزِّك صِرْفا

(١) الشاعر يشير هنا إلى كسر العود ، الذى كان سبب بعده عن الحبيبة .

(٢) فى الأصل : ثار .

فلنـــا عهـــدٌ بالمحبـةِ وَفَى ليس يفــنى ذكــراه لو نُتَوفّى

من ذيولِ الأخبـارِ ينشرُ بُردا

وإذا ما لديك حانَتْ وفـــاتى لك كفٌّ بغمضِ جفــنى تاتى

وكذا فى قــبرٍ يُؤْهل ذاتـــى أتهــنّى بآخــرِ اللثمـاتِ

فختـــامى فى حُسنه كالمبــدا

حواشي (وضعها رفاعة) :

(أ) قوله دفرينوا بضم الدال المهملة ، اسم شاعرة فرنساوية شهيرة لا سيما بالمراثى .

(ب) قوله برنى بفتح الباء مع إشمامها رائحة الفاء فراء ساكنة فنون مكسورة : اسم شاعر فرنساوى شهير أيضاً بالمراثى ، متقدم زمناً على تلك الشاعرة .

(ج) قوله : « ليت لى غصن نصرة » أى غصنا علامة على النصرة والفخر ، وذلك لأنه كان من عادة اليونانيين والرومانيين أن من انتصر أتحف بغصن من شجر الغار بالغين المعجمة ، وتوج بورقه .

(د) بدء القصيدة : حاصل هذه القصيدة إجمالا أن الناظم حكى قصة بمضمون أبياتها ، وهى أنه بعد أن ذاق من محبوبته لذة الوصال ، ونزّه طرفه فى رياض هذا الجمال ، قدح زناد فكره ، وشرع ينظم عقود دره ، مغنياً باسم من يحلو على اللسان ذكره ، ويجــلو صدا الجنان فكره ، فصغت محبوبته لما يقول ، وجعلت تضرم النار فى فؤاده من لحظها المسلول ، فقوىَ من شعره حماسه ، وظهر بين الناس إيناسه ، حتى ظن الناظم أن شعره قد رقى إلى العلا ، وأنه لا يليق إلا لحضرة المولى جل وعلا ، فأنيطت همته بمعالى الأمور ، فابتغى عن المحبة كما النفور ، وأخذ يصلح (ديْدنه) ليفوز بالعز والجاه بسبب عوده ، إذ هو جلب سعوده ، ولكونه سبيل فلاحه ، وطريق نجاحه .

أما مصر أو باريز فلم يخصهما مما نبه عليه ، ونوه بالميل إليه ، طابالفخر

أولا من مصر لما أنها أحق بذلك ، كما قال من سلك فى مثل هذه المسالك :

جميعُ الأرض فيها طيبُ عيشٍ ... ولذاتٍ وروضاتٍ أنيقــه
وهذا كله فى غــيرِ مصــر ... مجازىّ ، وفى مصرَ حقيقــه

وثانياً من باريز ، ولما رأى أن الهوى هو عين الهوان ، كما قاله من ركض فى هذا الميدان ، أراد أن يضرب عن محبوبته صفحاً ، ويطوى عن الغرام كشحاً ، فلما رأى ضررها من ذلك ، وأنه يفضى بها إلى المهالك ، رقّ لحالها ، ورثى لانتحالها ، وكسر عوده ، ومن ذلك سُميت القصيدة « كسر العود » ، ورجع لما كان عليه . وسعدى اسم امرأة ، ولفظ الأصل يقرب فى العربى من ظاهره ، فلهذا أحسنت ترجمته بذلك .

وقد تمت ترجمة هذه القصيدة على هذا الأسلوب الحميد ، بتوفيق الله وعونه فى العشر الأواخر من شعبان سنة ١٢٤٢ من الهجرة المحمدية على صاحبها أفضل الصلاة والسلام .. » .

نشيد المارسلييز

تمثل هذه القصيدة النشيد القومى الفرنسى الذى ألفه « روجيه دى لوارل »، وترجمةُ رفاعة لها منذ وقت مبكر أثناء البعثة (١٨٢٦ — ١٨٣١) تعكس إعجابه بمضمونها الثورى وما يحمل من دعوة إلى الحرية والعدالة ، كما أنها تحمل دعوة ضمنية إلى إيجادِ نشيد قومى لمصر .

وقد ورد هذا النص فى « مختارات من كتب رفاعة » ص ٢١٩ ، وهو من بحر الوافر .

فهيـَّـا يا بنى الأوطانِ هيّا — فوقتُ فخاركم لكمُ تهيـا
أقيموا الـرايةَ العظمى سويا — وشنوا غـارةَ الهيْجا مَليا
فهيّا يا بنى الأوطان هيّا

عليكم بالسلاحِ أيا أهـالى — ونظمُ صفوفِكم مثـلُ اللآلى
وخوضُوا فى دماءِ أولى الوبَالِ — فهمْ أعداؤكم فى كلِّ حالِ
وجورهمُ غدا فيكم جَليا

أما تصغونَ أصواتَ العساكرْ — كوحشِ قاطعِ البيداءِ كاسرْ؟
وخبثُ طويةِ الفرقِ الفَواجرْ — ذبيـحٌ بينكم بظبـا البَواترْ
ولا يبقون فيكم قط حيـّـا

عليكم بالسلاحِ أيا أهـــالى — ... ...
فماذا تبتــغى منّــا الجنودُ — وهم همجٌ وأخلاطٌ عبيـــدُ
كذا أهــلُ الخيانةِ والوغودُ — كذاك ملوك بغيٍ لن يَسُودوا
تعصبهم لنــا لم يُجدِ شيّا

عليكم بالسلاح أيا أهـــالى — ... ...
لمن جعلوا السلاسلَ والقيودَا — وأغــلالاً وأطواقاً حــديدا

لأهل فرنسا ليرُوْا عبيــدا ‎ ‎ وليس مرامهم هــذا جديدا
أما هــذا عجيب يا أُخيّا ؟

عليكم بالسلاح أيا أهــالى ‎ ‎ ... ...
وكيف يسوغُ أن نرضى رِعاعًا ‎ ‎ من الأغراب يبغون ارتفــاعا
ويجرى شَرعُهم فينا شِراعًا ‎ ‎ وأنذالٌ لديهم ، لا نُراعى
رعايا ، بل نُكيبُّ على المحيا ؟

عليكم بالسلاح أيا أهــالى ‎ ‎ ... ...
فسلمْ يا سلامُ من المــذله ‎ ‎ فما نرضى بأن نَبقى أذلّهْ
أيأسرُنــا ، وفتيتنــا أجلــه ‎ ‎ فريقٌ بالدراهم قد تولّــه
فكيف وقدرُنا أضحَى عليا

عليكم بالسلاح أيا أهــالى ‎ ‎ ... ...
إلهى كيف يقهرنــا ملوكُ ‎ ‎ بسُبل العدل ليس لهم سلوكُ
وأنذالٌ للاستعبــادِ حيكوا ‎ ‎ وما فى الفخرِ يَشركُنا شَريك
ولا أحدٌ به أبدا حريّــا

عليكم بالسلاح أيا أهــالى ‎ ‎ ... ...
فقل لهم : أيا أهلَ المظــالمْ ‎ ‎ وأربابَ الجــرائم والمــآثمْ
أما تخشونَ من تلك المحــارمْ ‎ ‎ كذا أهلُ الخيــانةِ للمكارمْ
وظلمهم لقد بلــغ الثريــا

عليكم بالسلاح أيا أهــالى ‎ ‎ ... ...
أحلّوا الخوفَ نحوكم أمــاما ‎ ‎ وخلّوا العــدل عندكم إماما
ونقضكم لمواطنــكم ذمــاما ‎ ‎ به تجــزون ذلا وانتقــاما
وتكتسبون عند القوم خزيا

عليكم بالسلاح أيا أهــالى ‎ ‎ ... ...

فهاكم قد تعسكرتْ الأهــالى　　وسارتْ كلُّــها نحو القتالِ
لتقتحم المهــالكَ لا تُبــالى　　إذا ما ماتَ ليثٌ فى الــنزالِ
تُولدُ أرضُنا شبلاً صبيا

عليكم بالسلاح أيا أهـــالى　　... ... ...
صغيرُ القــوم منّا والكبــيرْ　　يحب(١) قتالكم فرحاً يطــير
نحاربُكم وليس لكم نصــيرْ　　وليس لحــربنا أصلاً نصــير
وحاشَ فحولنا يلقوْنَ عيّا

عليكم بالسلاح أيا أهـــالى　　... ... ...
لنا حــريةٌ فى الكون تسمُو　　تزيد إذا الحروب بدتْ وتنمو
تمــانعُ عن بنيهــا ما يهم　　بها ثمــراتُ نصرتهم تتِمْ
على نغم المثــانى والحُميا

عليكم بالسلاح أيا أهـــالى　　... ... ...
تموتُ عِداتُها موتــاً شنيعـًا　　إذا ما أبصروا عــزّاً منيــعا
يحوزُ حماتهــا مجداً رفيــعًا　　فويلٌ للــذى يبغى الرجُوعا
لرقٍ يكتسى خطأً وعيًّا

عليكم بالسلاح أيا أهـــالى　　... ... ...
سندخلُ سِلكَ أرباب الجهادِ　　كأسلافٍ لهم طولُ الأيادى
وننحوا نحوهم فى كل نــادِ　　ونقفُوا فضلهم فى كل وادِ
ونبلغ فى العلا شأوا قصيا

عليكم بالسلاح أيا أهـــالى　　... ... ...

---

(١) فى الأصل : يحب .

نؤمّل أن نكُونَ لهم فِداءْ وكل فتىً بفخـرِ النصر باءْ
وأن لا بعدهم نَبــقى مساءْ إذا لم نَنتقمْ لهم العــداءْ
ونأخذُ ثأرهم من كان حيا

عليكم بالسلاح أيا أهـــالى ونظمُ صفوفِكم مثلُ اللآلى
وخوُضُوا فى دماءِ أولى الوبالِ فهم أعداؤكم فى كل حـالِ
وجورُهم غدا فيكم جليا

نشيد المارسلييز .. « روجيه دى لوازل »

هذه ترجمة لكلمات النشيد الذى ترجمه رفاعة شعراً ، ليتضح من خلال المقارنة مدى (التصرف) الذى يقوم به دائماً الشاعر المترجم — كما أشرنا إلى ذلك فى الدراسة — وقد قامت بترجمة النشيد عن الأصل الفرنسى الزميلة منى الأستاذة / شارت .

* * *

هبوا أبناءَ الوطن
فقد جاء يوم المجد
وأمامنا رُفع العلم الدموى ضد الطغيان
هل تسمعون فى المعارك
زئير الجنود الضوارى؟
إنهم يتقدمون ويَصلون بين أذرعتكم
فيقتلون أولادكم وأصحابكم
فإلى السلاح أيها المواطنون
كوِّنوا فرقكم
وهيا بنا نمشى حتى تَسقى الدماء القذرة
باطن أرضنا
ماذا تريد هذه الجماعة من العبيد ؟
هؤلاء الخونة .. هؤلاء الملوك المستذلون؟
ولمن هذه المرانع الوضيعة .. ؟
وهذه القيود التى يجهزونها منذ زمن ؟
أيها الفرنسيون ... إنه لعار لنا
هل يفكرون أن يعيدونا إلى عهد الرق السالف ..
فإلى السلاح هبوا أيها المواطنون ..

* * *

هل تظنون أنهم سيقيمون القانون فى ديارنا ؟
ويحطمون جنودنا الأباة ؟ !!
هؤلاء المرتزقة شرذمة عسكر
يا إلهنا العظيم .. هل بعد أن تُقَيَّد أيدينا بالسلاسل
سنحنى رؤوسنا تحت النير ؟
وهل سيصبح هؤلاء الطغاة الأدنياء
السادة المتحكمين فى مصائرنـــا ؟
فإلى السلاح نهب أيها المواطنون ..

* * *

فارتعوا أيها الجبابرة وأنتم أيها الخونة
يا وصمة العـــار أينما حلتْ ..
ارتعدوا فإن مشاريعكم القـــاتلة
سينال جـــزاؤها أخـــيراً ...
فكل شىء سيتحول ليصبح جندياً يجابهكم
فإذا سقط أبطالنا الفتيان
فإن فرنسا ستلدُ غيرهم
فإن الجميع مستعدٌ للنضال ضدكم
فإلى السلاح .. .. ..

* * *

أيها الفرنسيون صوّبوا ضرباتكم أو امنعوها
كالجنود الشرفاء كما عُرِف عنكم
وتجنبـــوا هـــذه الضحايا التعسة
التى تتسلح ضدكم بكل أسفٍ
لكن هؤلاء الطغـــاةُ القتـــلة
والموالين لبوييـــه .. .. ..

هؤلاء النسور الذين يمزقون ..
صدور أمهاتكم بدون رحمة ..
إلى السلاح .. ..

* * *

سندخل فى المهمة ..
عندما يولى الكبار ..
فسنجد آثارهم فى التراب
وكذلك آثـار فضائلهم
فإننا سنعتز بلقاء قبورهم أكثر
من معزتنا بالحياة ومن حرْصِنا عليها
وسيكون لنا فخرُ عظيم فى الثأر والانتقام لهم .
إلى السلاح .. ..

* * *

هذا الحب المقدس نحو الوطن
يقودنا ويسند سَواعدنا المنتقمة
أيتها الحرية ، أيتها الحرية الحبيبة ..
دافعى مع المدافعـين عنك
حتى يلحق بهم النصر تحت الأعلام
وحتى يلفظ أعداؤك أنفاسهم وهم يرون
انتصارنا ومجدنا ..
إلى السلاح .. ..

* * *

القصيدة الباريسية

ترجم رفاعة هذه القصيدة أثناء البعثة فى فرنسا (١٨٢٦ – ١٨٣١) وقد قيلت أثناء ثورة الفرنسيين ضد ملكهم شارل العاشر . ولعل فى مضمونها الثورى ما يبرر سر إعجاب رفاعة بها وترجمته لها .. والقصيدة من بحر المتدارك ، وقد وردت فى « مختارات من كتب رفاعة » صفحة ٢٢٣ .

يا أهــل فرانسةَ الغــرَّا — يا شجعاناً بشهامتـــكمْ
عِشتم فى الـرقِّ وورطتـه — والآن ، خـُـذوا حريتكمْ
ما أحسنَ يَـوم فخـاركم — بتوافقـكم فى كلمتـكمْ
كُــرُّوا كــراً للظفر بهم — النصرُ حليـفُ شجـاعتكم

* * *

الدولـــةُ تطلبُ رقــكم — وتروم ذِهـــابَ جلالتكم
قولوا : ها نحن بأجمعنـــا — جندٌ يهزأُ بجراءتكم
باريسُ الآن لقــد وجــدتْ — مأثــورَ الفخـر بهمتـكم
هيا اقتحموا صفَّ الأعــْـدا — واغــزوا فيهم ببسالتـــكم
نيرانهمُ ومدافعـــــهم — لا تنقـذهم من صَولتـكم
كــرُّوا كــرًا للظفــرِ بهم — النصر حــليف شجـاعتكم

* * *

هيا التحمــُـوا بتعـاونكم — هيا اتحدُوا لحرابتــكم
وليهدى كل فـتىً منــكم — فِشنكاً(١) أهـلَ مدينتــكم
هيا اقتحموا صفَّ الأعـْـدا — واغــزوا فيهم ببسالتِــكم
نــيرانهم ومدافعـــهم — لا تنقـذُهم من صولتـــكم
كــروا كــرا للظفــر بهم — النصرُ حليفُ شجـاعتِـكم
ما أحسنَ يـومَ فخـاركم — بتوافقــكم فى كلمتــكم

* * *

---

(١) الفشنك : طلقات رصاص لها صوت فقط .

إنْ قيل : لكم علَمٌ منْ ذا ... ينشر فى الغـارة رايتكم
قولوا : ذو رأس مشتعلٍ ... شيباً « لفييت » عصابتكم
فله فضلٌ إذ أعتقَ أهـ ... ـلَ جميعِ الأرضِ بسطوتكم
ما أحسنَ يوم فخاركم ... بتوافقكم فى كلمتكم
كُروا كرًّا للظفرِ بهم ... النصرُ حليفُ شجاعتكم

* * *

فلذاتُ مدافعهم سَعرتْ ... لكن لا تُضعفُ قوتكم
فيها يزدادُ عديدكم ... وبها تتقوّى فتيتكم
وبشدتها يبدو لكم ... أمراءُ الغزو ببلدتكم
فى الحرب شيوخُ تجربةٍ ... وهم شبان بدايتكم
ما أحسن يوم فخاركم ... بتوافقكم فى كلمتكم

* * *

ومثلثةُ الألوانِ بدتْ ... علماً نُشرتْ لحمايتكم
وعمردُ النصر له شمَمٌ ... نادى بلسانِ مقالتكم
يا قوسَ قُزح حريتنا ... إذ كان شعارَ سعادتكم
ما أحسن يومَ فخاركم ... بتوافقكم فى كلمتكم

* * *

طبولُ الحربِ لها طرَبُ ... تزفُّ جنازةُ ميّتكم
وتوابيتُ الأمواتِ بها ... أزهارُ النصر علامتكم
وهياكل أعظمهم شَهرت ... ببيت الشهدا بقرافتكم
هى مأوى أمجادكم سكنَا ... ومقامُ عظام أجلتكم
ما أحسن يوم فخاركم ... بتوافقكم فى كلمتكم

* * *

يا أمواتاً فى رَمسهمُ ... كونوا أحياءَ بسيرتكم
يا ذا العلم الحرْبىّ (١) ومن ... صرنا نهدى بهدايتكم

(١) فى الأصل : الحرى .

هيا اقتحمـــوا صفّ الأعـــدا　　واغـــزوا فيهم ببسالتِـــكُم
نـــيرانهم ومدافِعـــُهـم　　لا تنقـــذهم من صَولـــتكم
ما أحسنَ يـــومَ فخاركم　　بتـــوافقـــكم فى كلمتـــكم

* * *

أ « فليبَ » المجـدِ ورونقَه　　يا من فُـــزنا بعنـــايتـــكم
ودماءُ الحـــرب بنا امتزجتْ　　بدمائـــكم فى غـــارتـــكم
بأغانى الفخـــر اصدحْ طـــربا　　وكما هـــو قِـدماً عـــادتـــكم
هيا اقتحموا صفّ الأعـــْـــدا　　واغـــزوا فيهم ببسالتـــكم
نـــيرانُهم ومـــدافعـــهم　　لا تنقـــذهم من صولتـــكم
كُـــروا كرّاً للظفـــر بهم　　النصر حليفُ شجـــاعتـــكم

فى مدح الخديوى إسماعيل
تأليف الكونت بلجرينى الإيطالى

عثرت أثناء البحث عن شعر رفاعة فى تراثه على كتيب صغير ، كتب على غلافه : « قصيدة وطنية اسماعيلية نظم جناب الكونته بلجرينى الإيطاليانى على لسان جناب بترو أفوسكانى ، ترجمة رفاعة بك ناظر قلم ترجمة وأعضاء قومسيون بديوان المدارس » . وقد طبع « بمصر المحمية بالمطبعة الكاستلية فى ١٨ ينايرسنة ١٨٦٥ ، الموافق عشرين شعبان سنة ١٢٨١ ، بمناسبة تولية أفندينا صاحب السعادة الحكومة المصرية » ويقع الكتيّب فى ثمانى صفحات مزخرفة من القطع الكبير .

وأهم ما يلفت النظر فى هذه القصيدة المترجمة — بمناسبة تولى الخديوى اسماعيل الحكم — أنك لا تكاد تحس بأنها تبعد عن طبيعة سائر شعر رفاعة المؤلف ، لأنه فيما يبدو لم يترجمها بقدر ما عرّبها ، واقتبس بعض أفكارها العامة ، ثم صاغها بعد ذلك بأسلوبه الخاص .. يؤكد هذا التصرف فى القصيدة وفى غيرها أيضاً ، أمران :

الأول : أن القصيدة من حيث البنية تذكّر بشكل (الموشحة) ، حيث أنها تتكرن من ثمانية عشر مقطعا ، كل منها يتشكل من خمسة أبيات الأول والثانى فى المقطع لهما قافية داخلية وخارجية مشتركة ، أما الثالث والرابع فقوافيهما الداخلية والخارجية تشترك — دائماً — مع القافية الداخلية والخارجية للبيت الخامس ، الذى يتكرر بصفة دائمة ، ويمكن أن نسميه « قفل » المقطع .. والبيت الخامس الذى يتكرر فى كل مقطع هو :

يعيش إسماعيلُ ربُّ المجـــدِ   على مَدى الأجيالِ والأعوامْ

ورفاعة يسمى الأبيات الأربعة الأولى فى المقطع (دور) ، والبيت الأخير الذى اعتبرناه قفلا يسميه (مذهبه) .

الثانى : إن التصرف فى ترجمة القصيدة يتجاوز الموسيقى إلى جماليات الشعر ومحسناته ، ولا سيما أشكال البديع التى كانت « لازمة » من لوازم الشعر والأدب فى عصره مثل التورية والجناس والطباق .

وأخيراً فإننا أميل إلى الظنّ بأن رفاعة لم يكن يعرف الإيطالية وأن القصيدة ترجمت له — كما كان يفعل مع المنفلوطى فيما بعد — معانيها ، وعلى هذا فالقصيدة هنا معرّبة أو مقتبسة وليست مترجمة بالمعنى الحقيقى للكلمة ، وهى من بحر الرجز .

يا مصرُ أنتِ أرضُ كل مُعجزه   كم فيكِ من آثار فخرٍ مُنجزه
قد عُدتِ كالعصرِ القديم مُنتزه   لله إسماعيلُ فيما أبرزه
فى حيّزِ الوجودِ فوقَ الحدّ   يدومُ فخره كما الأهرامْ
ولم يزل يَقترنُ بالتحدّى   بدايعاً صحيحةَ المرامْ
يعيشُ إسماعيلُ ربُّ المجدِ   على مَدى الأجيالِ والأعوامْ

* * *

ما أنتِ إلا روضةٌ بَهيّة   شمسُ عُلاك بالسَّنا زَهيّهْ
بالنيلِ خصبُ أرضِك الزكيه   قد سطعتْ أخبارُك السنيهْ
شعاعُها انبثّ بأرضِ الهندِ   والصينِ والرومِ وأرضِ الشامْ
لما انطفا النورُ بدهرٍ مُردِى   قد سَخّر المولى له محسام
يعيش إسماعيل رب المجدِ   على مدى الأجيال والأعوام

* * *

عقلٌ وحيدٌ لا تُجاريه الرجالْ   يجولُ فى سَبَقِ العُلا أعلى مجالْ
محمدٌ الاسمِ ، علىٌّ فى الفعالْ   أنار أفقَ مصرَ شبهَ الهلالْ
مذ قام بالحفيدِ سرُّ الجدّ   فبدرُه جَلى دُجَى الظلامْ
فكرٌ مشيرٌ من أميرِ جُندِ   صيّر جيشَ الجهلِ فى انهزامْ

يعيش إسماعيل ربُّ المجـــــدِ　　على مدى الأجيـــال والأعوام

* * *

لما اصطفى الجليـلُ إسماعيـلا　　لـملك مصر سيِّداً كفيـــلاَ

وأشبهتْ طفـلا غـدا عليــلا　　عدَّلها بطبِّـه تعـديـلا

بعدلِ قانونٍ وعقْـدِ بَنْـدِ　　أزال جَورَ الحكم والحُكّامْ

ونسخَ الرخصـةَ والتعـدى　　وانقادَ للأصـول والأحكـام

يعيش اسماعيل رب المجـدِ　　على مدى الأجيـال والأعوام

* * *

بنى على العـدل أساسَ مُلـكهْ　　ونظمَ الفنـونَ ضِمنَ سِلكه

وعظَّمَ العـلمَ وأهلَ نُسْـكِه　　ذُو العقـل إن يفحْ عبـيرَ مِسكه

بطيبِ تحسينٍ كعُـرفِ النَّـدِ　　يَفُـزْ لدى الأميرِ بالإكـرام

يبذل فى التشويق كلَّ جـهدِ　　بقدرِ حظِ الفضل فى السهـام

يعيش إسماعيل ربُّ المجـدِ　　على مدى الأجيـال والأعـوام

* * *

حلَّى جبـينَ مَجمعِ البحـرينِ　　بتـاجِ عـزٍّ رائقٍ للعـينِ

وقبـله كان كـلا الشطـين　　يَلطمُ خدَّ المـاءِ بالكـفين

فذلك التـاجُ قـرينُ سَعـد　　يلمعُ فـوقَ المـاء كالحسام

يدعُو لإسماعيـل ربُّ الرشـدِ　　بنصرةِ البنـود والأعْـلام

يعيش إسماعيل ربُّ المجـدِ　　على مدى الأجيـال والأعـوام

* * *

لما رقَى ذُرا العـلا وصَعـدا　　لم يترك الأهـواءْ فى الناس سُدى

عطفهم رفقاً بهم صوبَ الهـدى　　كلفهم بأن يحـوزوا السـؤددا

فالعقلُ فى عهد العـزيز مُهـدَى　　نحوَ العـلوم لا إلى الأوهـــامْ

وإنما تمـامُ هـذا القصـد　　توسيعـهُ دوائـرَ الأفهـــام

يعيش إسماعيلِ رب المجـدِ　　على مدى الأجيـال والأعوام

* * *

لم يفتخرْ بزهـــرة الإمــاره   بل رامَ بالرعيـة افتخــاره
وَضَــعَ بنيـــه بينهم إشـــاره   لفلكٍّ قيـدِ الـذل والحقــاره
فحسبُهم فكاكُ هـــذا القيـدِ   وعتقهم من زلـة الأقـــدام
فأعلنــوا بشكــره والحمـــدِ   ما أحسنَ الشكــر على الإنعـام
يعيش إسماعيل ربُّ المجــدِ   على مدى الأجيـال والأعــوام

* * *

قد لهجتْ بمدحـه اللغـــاتُ   ورددت نشـيدَه الأصـــواتُ
لم يَروِ مثـلَ فخــرِه الرواةُ   عن ملكٍ شهمٍ لـه هِبـاتُ
تجعل هنداً في النُّهى كـزيدِ   والدرسُ للأُنثى كما الغـُلامْ(١)
من بعـد أسرها بقيـدٍ وَغـدِ   بالعلم حازتْ صفةَ احـــترام
يعيش إسماعيل رب المجـــدِ   على مدى الأجيـال والأعـوام

* * *

وبالحنـــان الأبويِّ رتَّـــبا   تربيةَ البنـاتِ من عهد الصِّبـا
يقضين من حقِّ النهى ما وجبـــا   يحـرزنَ علمـاً نافعـاً وأدبـا
تشملهن منــه عـينُ الرشـــدِ   ونجـدةُ العـــزمِ والاهـتمام
حتى يصلنَ بعقــول النقـدِ   لقـوة التفـهم والإفهـــــام
يعيش إسماعيل رب المجـــدِ   على مدى الأجيـال والأعـوام

* * *

في عهده كلُّ الرعـايا فـرحتْ   لأنه وَافى عـــلى ما اقـترحتْ
وروح جـده بهـــا انشرحتْ   كأنهـا من الضريـحِ سَرحتْ
مُضيئةَ الجبـينِ فـرقَ طـودِ   سامى الذرا عن سائر الأعـــلام
تنظـرُ من أعـلى بغـير عـدٍّ   عجـائباً لم تُحـصَ بالأقـلام
يعيش إسماعيل ربُّ المجــدِ   على مدى الأجيـال والأعـوام

* * *

---

(١) الشاعر يشير إلى دور إسماعيل في تأسيس مدارس لتعليم البنات .

نادتْ بالاستعجاب أيها الحفيدْ · ما أنت فى كَسْب العلا إلا فريدْ
ما أعجز الملوكَ فى الدهر المديدِ · وافاك بالتدبير والفكر السديد
أحييتَ مجداً من قرار لحدِ · وعظماً كان مع العظامْ
وهكذا النجلُ النجيبُ يُبدى · عظائمَ الأسلافِ باقتحام
يعيش إسماعيل رب المجد · على مدى الأجيال والأعوام

* * *

بمدحك اهتزتْ ضروبُ النغمِ · انعشتْ الملوكُ بعدَ العدمِ
لما رأَوْا عجائبَ التقدمِ · إعجابهم ما كان بالمكتتمِ
فاجتمعوا بالعودِ قبل العودَ · لينشدوا مدحاً على الأنغام
وأجمعوا على مليكٍ فردِ · مؤيدٍ بالسلم والسلام
يعيش إسماعيل أب المجد · على مدى الأجيالِ والأعوام

* * *

عشْ فى أمانِ الله يا أبهى أميرْ · مشرفاً تاج المعالى والسرير
تاريخُ هذا الجيل والعصرِ الأخير · يدعُوك مع أعلى الملوك بالنظير
أنت الوحيدُ فى العلاَ والجد · وفى المساعى ثابتُ الأقدامِ
عش فى أمانَ الله دون ضدٌ · أعدْت عصرَ الذهب الإسلامى
يعيش إسماعيل رب المجد · على مَدى الأجيال والأعوام

* * *

عشْ فى أمان الله يا من أعلى · لأهل مصره مقاماً أعلى
مذ كنتَ للرأفة فيهم أهلا · صرتَ من الأب الشفيق أولى
فأنتِ للكل أبٌ فى الودٌ · أنتَ الولى والنصيرُ الحامى
بالرفق قد فقتَ وصدقِ الوعد · فصرتَ محبوباً لدى الأنام
يعيش إسماعيل رب المجد · على مَدى الأجيال والأعوام

* * *

تدعوكَ أوربا مع الرعايا · بنعمةِ الله على البرايا
عطيةٌ من أجزلِ العطايا · إيطاليا قد حازتِ المزايا

بدرُ مَدحٍ للجناب تُهدى — لمحض إجلالٍ مع احتشامْ
قد رام جمعَ أهلها يُؤدى — فرائضَ الحب بشعرٍ سامْ
يعيش إسماعيل رب المجد — على مدى الأجيال والأعوام

* * *

أهدوا إليك هذه الطرائفا — فريدُ دُرٍّ في حماك طائفا
في ضمنه قد أودعوا لطائفا — تُحيرُ الألبابَ والمعارفا
تجل عن تسويمها بنقدِ — جواهراً بديعةَ النظام
يسمو شعاعُ نورها الممتدّ — يزْهو بنور وَجهك البسام
يعيش إسماعيل رب المجد — على مدى الأجيال والأعوام

* * *

لما عهدتَ الودَّ مني صافيا — وصدقَ حُبي في الجناب وافيا
نظمتُ في المدح له قوافيا — إن تحظ بالقبولِ كان كافيا
يُرضي المحبَّ في ارتباطِ الودِ — بشاهدٍ على الوداد النامي
فشاهدُ الود كطعم الشهد — أو وَصْلِ حبلِ العهدِ والذمام
يعيش إسماعيل رب المجد — على مدى الأجيال والأعوام

* * *

الفصل السابع

الشعر التعليمي

مصطلحات علم الحديث :

فى معرض المقارنة بين اللغتين الفرنسية والعربية يذكر رفاعة أن الفرنسية « من أشبع الألسن وأوسعها بالنسبة لكثرة الكلمات غير المترادفة ، لا بتلاعب العبارات والتصرف فيها ، ولا بالمحسنات البديعية واللفظية فإنه خال عنها ، وكذا غالب المحسنات البديعية المعنوية ، وربما عُدَّ ما يكون من المحسنات فى العربية ركاكة عند الفرنسيس ، مثلا لا تكون التورية من المحسنات الجيدة الاستعمال إلا نادراً ، فإن كانت فهى من هزليات أدبائهم . وكذلك مثل الجناس التام والناقص فإنه لا معنى له عندهم ، وتذهب ظرافة ما يترجم لهم من العربية مما يكون مزيناً بذلك ، مثل قول صاحب البديعية :

من العقيق ومن تذكار (ذى) سلم
براعةُ العين فى استهلالها بدمِ
ومن أهيل النقى تمّ النقى وبدا
تناقضُ الجسم من ضرٍّ ومن ضرمِ

ولا يمكن أن ينتقل إلى لغاتهم ما قلتُه فى نظم مصطلح الحديث :

(صحيحُ) جسمى من فرط الجرى عَضُلا
و (مرسل) الدمع من عيْنى قد (اتصلا)
(تواترتْ) قصتى فى الناس قاطبةً
حتى (لضعفى) رثى لى كلُّ من عذلا

(تعنعنَ) السحب عن عينى (روايتها)
كما (يسلسلُ) عنها القَطرُ إذ همَلا

(رفعتُ) أمرى إلى قاضى الهوى فأبى
وقال : مَالى على هـذا المليـح ولا

يا قلبُ صبراً على ما فيك عن (علل)
ولا (تشذ) وتجـزعْ ، واترك المللا

ودعْ بقيـةَ ما أبقـاهُ من رمـق
لديه ، لا تعتـبر تعنيفَ من (عدلا)

فذاك لاحٍ (١) و (بالتدليس) (مشتهرٌ)
وقولـُـه (منكرٌ) (زورٌ) وما قُبلا

إلى آخر قولى فيها :

(وقفتُ) حُبىّ عليـه لا يُجـاوزه
وهكذا شأنُ صبٍّ فى الهوى (كَمُلا) (٢)

(بحر البسيط)

---

(١) لاحى : لائم أو خصم .

(٢) راجع النص فى :

– تخليص الأبريز ، ص ٢١٥ .

هذا النص يمثل نموذجاً لشعر مرحلة مبكرة فى حياة الطهطاوى ، حيث كان ينظم أثناء تدريسه فى الأزهر بعض المنظومات (التعليمية) ، التى تعرف الطلاب بمصطلحات علم من علوم الدين أو اللغة . والنص رغم إطاره الغزلى هدفه الأول إبراز مصطلحات علم الحديث المختلفة ، التى وضعناها بين قوسين ليسهل التعرف على حجمها فى الأبيات .

وقد حاولت أن أبحث عن تكملة القصيدة فى بقية تراث رفاعة المنشور فلم أتمكن من ذلك .

منظومة فى تأديب النشء

وردت هذه القصيدة فى كتاب « مناهج الألباب المصرية فى مباهج الآداب العصرية » صفحة ٧٦ ، ويقدم لها رفاعة بقوله :

« وقد كنت نظمت فى كتاب تعريب الأمثال فى تأديب الأطفال ، منظومة لطيفة ، تحسن بمنوال التعريب نسجها ، فيحسن هنا بمناسبة المقام إدراجها » .

والقصيدة تدور معانيها حول نصائح عامة ، تذكر فى مجال تربية النشء علميا وأخلاقياً .. وهى من بحر الرجز .

الحمــدُ لله وصــلِّ ربِّ ... على النبى وآلـهِ والصَّحبِ
وبعدُ فالتـأديبُ للأبنـــاءِ ... آكدُ واجبٍ عــلى الآبـــاءِ
من أجـل ذا نظمتُ للتنبيـــهِ ... خمساً وأربعـين بيتـاً فيـــه
فى نحوِ ساعتيْن والمولى عَـلى ... قصدى أعـان جلَّ ربى وعــلا
فى برٍّ والديك بالـغْ تغنـمْ ... لا سيما فى العيـدِ أو فى الموسمْ
وإن تـرُمْ سـرور أمٍ أو أبِ ... يوما فكسْبُ العلم خيرُ مكسبِ
من رام عند الناسُ طرّاً أن يُحب ... فليلتزم حُسنَ السلـوك والأدب
وأن يكـــون طيبَ السريـره ... مهذبَّ الأخـلاق زاكى السيره
من رامَ بـين العـالم ارتفاعه ... فلْيلـزم العفـةَ والقنـاعه
هل ذَلَّ عنـد النـاس عبدٌ يقنعُ ... أو عـزَّ سيدٌ لديهم يَطمـعُ
إن رمـت أن تشـرِّقَ الأولادا ... وأن ترى من نَجلك اجتهـاداً
فعِـدْهُ بالإتحـافِ يومَ العيـدِ ... وقدمْ الوعدَ عـلى الوعيـدِ
يعاقَـبُ الجـانى بمـا جنـاه ... وذاك فى دنيـاه أو عقبـاه
والظلـم لا يتركه المـولى سُدَى ... مـآلُ كل ظـالمٍ إلى الردى
من رام أن يكتسـبَ اللطـافه ... عليه طـولَ الدهـر بالنظافه
فإنهـا من شُعـب الإيمـانِ ... تُطلـب فى الثيـاب والأبدان

وشرُّ أوصافِ الفتى هو الغضبْ ‏ يُفضى إلى ارتكاب ما لا يُرتكبْ
فيـاله من خَصلةٍ ذميمـه ‏ فى تركها مصلحـةٌ جَسيمه
وقـوةُ الرأس مع العنـادِ ‏ من أقبح الخِصال فى الأولاد
والامتثـالُ صفةٌ جليـله ‏ للودّ ليس مثـلها وسـيله
مما يُعدُّ من صفـات الـذم ‏ كتمُ الصغـير عن أبٍ وأم
سراً حقيراً أو جليلاً بل يجبْ ‏ إبداؤه وعنهما لا يُحتجبْ
يَطلعُ المولى على ما تعمـله ‏ بعلمـه لكنـه قـد يمهلـه
ففُـزْ بفعـل صالح الأعمالِ ‏ تحـز صلاح الحـال والمآل
من يعصِ والديه ضلَّ وندمْ ‏ وساءَ حـاله وللرشد عَدمْ
وضاع سعيُه وخـاب أمله ‏ ما لم يتُب فلا يضيع عمـله
وعفةُ الشريف عنـدَ الفقرِ ‏ وصبرُه لعسره مـع شكـر
خيرُ فضيلة عليهـا يُحمـد ‏ يعقبها اليسرُ ويبقى السؤدد
والولد الصالحُ عنـد الأهل ‏ يُحبّ بل يُكرم عند الكل
يمتاز عن أقـرانه فى المكتبِ ‏ تشـمله بركـةُ المـؤدب
فضلُ البنات الشغلُ والتطريزُ ‏ من حوتْ علماً به تفـوزُ
فى سائر الأحوال والاحتشامْ ‏ من جنسهن والحيـا يُرام
الرفـقُ بالفقـير والضعيف ‏ من حُسن أخلاق الفتى الشريف
وخوفُ ربِّ العرشِ والمراقبه ‏ أمنٌ من الشر وسُوءِ العاقبه
من رام نظمه بسلك السُعَدا ‏ فليُسعدْ الناسَ ليبقى مُسعدا
يُحبُّ مثلَ ما لـه لغـيره ‏ يُعطى أخـاه جانباً من خيره
يَحسُنُ حفظُ اللوح للصغير ‏ على مرار بل وللكبـير
يرسخُ فى الذهن وليس يُمحا ‏ جرِّبه بالتقسيم واقبل نصحا
الكبرُ ناشيءٌ عن الحمـاقه ‏ وما لعـاقلٍ عليـه طـاقه
يبغض كلُّ الناس ربَّ الكبرِ ‏ وبالرفيـع والوضيع يزرى

تَستحسنُ الطباعُ وَصفَ الأدبِ وأحسنُ الآداب آدابُ النبي

وما سِوى أخلاقه فباطلُ ومن تحلّى بسواها عاطلُ

ولا يليقُ من غلامٍ الطاعه خروجُ رأيه عن الجماعه

ففي اجتماع الكلمةِ السلامه بها يُتَمَمُ الفتى مَرامه

والحمدُ لله وصلى اللهُ على النبي وكلٌّ مَنْ والاه

المصادر والمراجع
والفهارس

أولا : المصادر

رفاعة بدوى رافع الطهطاوى :

- تخليص الإبريز فى تلخيص باريز
(أ) طبعة بولاق ، الثانية ، ١٢٦٥ هـ - ١٨٤٩ م .
(ب) طبعة الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٧٣ م .
دراسة وتعليق : محمود فهمى حجازى .
(جـ) طبعة وزارة التربية والتعليم ، مصر ، ١٩٥٨ .
تحقيق : مهدى علام ، أحمد بدوى ،
عبد الحميد حسن ، نظمى لوقا .
- مناهج الألباب المصرية فى مباهج الآداب العصرية
مصر ، ط . الرغائب ، الثانية ، ١٩١٢ م .
- أنوار توفيق الجليل فى أخبار مصر وتوثيق بنى اسماعيل
طبعة بولاق ، الأولى ، ج ١ ، ١٢٨٥ هـ .
- نهاية الإيجاز فى سيرة ساكن الحجاز
طبعة بولاق ، الأولى ، ج ٢ ، ١٨٧٣ م .
- بداية القدماء ونهاية الحكماء
طبعة بولاق (١٢٥١ هـ - ١٨٣١ م) .
- مواقع الأفلاك فى وقائع تليماك
طبعة بيروت ، جزءان (مترجم عن فينلون) ، د. ت.
- المرشد الأمين فى تربية البنات والبنين
طبعة بولاق ، ١٨٧٢ م .

— منظومة وطنية مصرية

طبعة بولاق ، ١٩٧٢ هـ — ١٨٥٦ م

(ثلاث كتيبات تحمل نفس الإسم فى ذات السنة) .

— مقدمة وطنية مصرية

طبعة بولاق ، ١٢٨٣ هـ — ١٨٦٦ م .

— قصيدة وطنية اسماعيلية (مترجمة)

نظم بلجرينى الإيطالى على لسان بترو أو فسكانى

المطبعة الكاستلية بمصر ، ١٢٨١ هـ — ١٨٦٥ م

— الكواكب النيرة فى ليالى أفراح العزيزة المقمرة

طبعة بولاق ، ١٢٨٩ هـ .

— تهنئة عيدية وطنية

مطبعة حجر بمصر (د . ت) وتوجد منها نسخة بمكتبة أسرته .

— جمال الأجرومية

طبعة بولاق ، ١٢٨٠ هـ — ١٨٦٣ م (منظومة فى النحو) .

— مختارات من كتب رفاعة

جمع أحمد بدوى ومهدى علام وآخـــرين .

طبعة وزارة التربية والتعليم بمصر (١٩٥٨) .

— التحفة المكتبية لتقريب اللغة العربية

طبعة بولاق ، ١٢٨٦ هـ .

— قلائدُ المفاخر فى غريب عوائدِ الأوائل والأواخر (١)

طبعة بولاق ، ١٢٤٩ هـ ، وهو ترجمة لكتاب :

(Depping, moeurs et usages des nations)

---

(١) ذكرنا من كتب رفاعة — هنا — ما له صلة بشعره وأدبه ، ولمعرفة بقية تراثه المتنوع يمكن الرجوع إلى :

(أ) محمود فهمى حجازى : أصول الفكر الحديث عند الطهطاوى مع النص الكامل لكتاب تخليص الأبريز » ص ١٣٠ .

(ب) كتب رفاعة الطهطاوى : إعداد لجنة من المجلس الأعلى للفنون والآداب ، ط دار الكتب المصرية ، ١٩٥٨ .

ثانياً : المراجع العربية

إبراهيم أنيس : دلالة الألفاظ
القاهرة ، طبعة الأنجلو ، الثالثة ، ١٩٧٢ م .

أحمد أحمد بدوى : رفاعة رافع الطهطاوى
طبعة لجنة البيان العربى ، الثانية ، ١٩٥٩ .

أحمد رافع الحسينى الطهطاوى : الثغر الباسم فى مناقب أبى القاسم ،
طبعة الرغائب ، ١٣٣٣ هـ .

— إسماعيل الخشاب : ديوان الخشاب
(ضمن مجموعة كتب) القسطنطينية ، طبعة الجوانب ، ١٣٠٠هـ .

— إلياس الأليوبى : تاريخ مصر فى عصر إسماعيل
طبعة دار الكتب المصرية ، ١٩٣٢ م .

— تمام حسان : اللغة العربية .. معناها و مبناها
طبعة الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٧٣ .

— جاك تاجر : حركة الترجمة بمصر خلال القرن التاسع عشر
طبعة دار المعارف ، مصر ، ١٩٤٥ م .

— جاك تاجر : تاريخ الترجمة و الحركة الثقافية فى عصر محمد على
طبعة دار الفكر العربى ، القاهرة ، ١٩٥١ م .

— جمال الدين الشيال : رفاعة رافع الطهطاوى
طبعة دار المعارف ، مصر ، ١٩٥٨ م .

— حسن العطار : إنشاء العطار
طبعة الكاستلية ، مصر ، السادسة ، ١٢٩٧ هـ .

— حسين فوزى النجار : رفاعة الطهطاوى
طبعة دار نهضة مصر ، أعلام العرب ، ١٩٥٧ م .

— شكرى عياد : موسيقى الشعر العربى
طبعة دار المعرفة ، ١٩٦٨ م .

– شوقى ضيف : الأدب العربى المعاصر فى مصر
طبعة دار المعارف ، مصر ، ١٩٥٧ م .

– شوقى ضيف : البارودى رائد الشعر الحديث
طبعة دار المعارف ، الثانية (د. ت.) .

– صالح مجدى : ديوان صالح مجدى
طبعة الأميرية ببولاق ، الأولى ، ١٣١١ هـ .

– صالح مجدى : حلية الزمن بمناقب خادم الوطن
طبعة وزارة الثقافة ، القاهرة ، ١٩٥٨ (تحقيق : جمال الشيال)

– طه وادى : شعر ناجى – الموقف والأداة
طبعة النهضة المصرية ، ١٩٧٦ م .

– طه وادى : أحمد شوقى والأدب العربى الحديث
طبعة روز اليوسف ، القاهرة ، ١٩٧٣ م .

– عبد الرحمن الجبرتى : عجائب الآثار فى التراجم والأخبار
المطبعة العامرة الشرفية ، القاهرة ، ج ٤ ، ١٣٢٢ هـ .

– عبد الرحمن الرافعى : شعراء الوطنية فى مصر
طبعة الدار القومية ، الثانية ، ١٩٦٦ م .

– عبد الرحمن صدقى (وآخرون) : خمسة من شعراء الوطنية
طبعة الهيئة المصرية للكتاب ، ج ١ ، ١٩٧٣ م .

– عبد الرحيم البرعى : ديوان البرعى
مطبعة العلوم الأدبية ، القاهرة ، ١٣٤٣٢ هـ .

– عبد الله فكرى : الآثار الفكرية
طبعة بولاق ، الأولى ، ١٣١٥ هـ – ١٨٩٧ م

– شهاب الدين المصرى : ديوان شهاب الدين
طبعة بولاق ، ١٢٧٧ هـ .

ـ محمد بن أحمد بن طباطبا : عيار الشعر
تحقيق : طه الحاجرى ، محمد زغلول سلام
طبعة المكتبة التجارية ، القاهرة ، ١٩٥٦

ـ محمد عبد الغنى حسن : حسن العطار
طبعة دار المعارف ، مصر ، ١٩٦٨ م .

ـ محمود صفوت الساعاتى : ديوان محمود صفوت
مطبعة المعارف ، القاهرة ، ١٩١١ (جمع : مصطفى رشدى)

ثالثاً : المراجع المترجمة

ـ إدوارد وليم لين : المصريون المحدثون شمائلهم وعاداتهم فى القرن التاسع عشر
ترجمة : عدلى نور ، مطبعة الرسالة ، القاهرة ، ١٩٥٠ م

ـ أوستن وارين ، رينيه ويلك : نظرية الأدب
ترجمة : محى الدين صبحى ـ مراجعة : حسام الخطيب ،
طبعة : المجلس الأعلى للفنون والآداب ، دمشق ، ١٩٧٢ م .

ـ ستانلى هايمان : النقد الأدبى ومدارسه الحديثة
ترجمة : احسان عباس ـ محمد يوسف نجم .
طبعة دار الثقافة ، بيروت (د . ت .) .

رابعاً : الدوريات المصرية

مجلة « روضة المدارس » الأعداد من سنة ١٨٧٠ ـ ١٨٧٣ .
جريدة « المقطم » : عدد ١٥ مـارس ١٩٢٤ .
مجلة « الكاتب » : عدد مارس ١٩٧٧ .

خامساً : المراجع الأجنبية

— G. W. Turne : Stylistics, Penguin Books, London, 1973.

— F. Parvin Sharpless : Symbol and Myth in Modern Literature. Hayden Book, New Jersey, 1976.

— I. A. Richards : Practical Criticism. Routledge, London, 1973.

— J. P. Stern : On Realism. Routledge, London, 1973.

— Robert Lado : Language Testing. Lowe and Brydone, London, 1965.

— R. G. Collingwood : The Principles of Art. Oxford, 1938.

— William Empason : Seven Types of Ambiguity. Penguin Book, London, 1961.

فهرس .. ديوان رفاعة الطهطاوى

صفحة

القسم الأول : الدراسة ـــ رفاعة شاعراً

القسم الثانى : ديوان رفاعة الطهطاوى

صفحة

كتب أخرى للمؤلف

أولا : الدراسات النقدية :

١ – شعر شوقى الغنائى والمسرحى — دار المعارف (الثالثة) ١٩٨٤

٢ – صورة المرأة فى الرواية المعاصرة — دار المعارف (الثالثة) ١٩٨٤

٣ – جماليات القصيدة المعاصرة — دار المعارف (الأولى) ١٩٨٢

٤ – شعر ناجى الموقف والأداة — دار المعارف (الثانية) ١٩٨١

ثانيا : الإبداع الأدبى :

١ – عمار يا مصر (مجموعة قصصية) — الهيئة المصرية ١٩٨٠

٢ – الدموع لا تمسح الأحزان (مجموعة قصصية) — دار المعارف ١٩٨٢

٣ – الأفق البعيد (رواية) — دار المعارف ١٩٨٤

٤ – الممكن والمستحيل (رواية) — تحت الطبع

٥ – حكاية شرخ فى الجدار .. وحكايات أخرى (مجموعة قصصية) — تحت الطبع

رقم الإيداع ٢٧٣٦ لسنة ١٩٨٤

مطابع سجل العرب